الثقافة الجديدة
العدد 336
2010

5- كلمة العدد

مقالات

8- التلوث الإشعاعي وتداعياته في العراق..الواقع والمستجدات.....كاظم المقدادي
21- عبد الفتاح إبراهيم .. لمحات عن حياته وفكر..... مجيد مسعود
30- المثقفون العراقيون ومحنة الهجرة..... محمود شمال حسن
36- التأمين: موضوع مهمل في الكتابات الاقتصادية العراقية.....مصباح كمال
50- الحزب الشيوعي العراقي 1934 – 1949 " دراسة تاريخية "..... صالح ياسر

نصوص مترجمة

62- الأساس الطبقي لـ "الماركسيات" الصينية اليوم: روبرت ويل Robert Well.....ترجمة: عزيز سباهي
69- دولة الرفاه الاجتماعي وإفرازات العولمة الرأسمالية: ليو ماير.....ترجمة:.رشيد غويلب

حوارات

77- حوار مع الفنان سعد الطائي.....حاوره: قاسم العزاوي

أدب وفــن

87- بيان المثقفين العراقيين: المثقفون العراقيون يهيبون بالمواطنين أن يشتركوا بوعي ومسؤولية في الانتخابات

مقالات

90- الصوفية في الرسم الحديث (التجريدية أنموذجا)..... جواد الزيدي
99- انحسار النقد المتخصص في الموسيقى العربية أسباب ومعالجات.....سامي نسيم عداي
108- ما حدث في حلبجة.....محي الدين زه نكه نه
112- فايق حسين: طائر جنوبي حلق في أسبانيا حتى أصبح واحداً من فنانيها.....كاظم السيد علي

قصة قصيرة

115- في شرخ المشروح.....أحمد ضحية

شعر

120- على مشارف الستين.....يحيى السماوي
124- قصائد خاطفة.....كاظم ناصر السعدي
126- مهرة لم تنم .....احمد جامع

- ❖ الغلاف الأول: للفنانة عفيفة لعيبي، أقامت وشاركت في العديد من المعارض التشكيلية. تعيش الآن في هولندا
- ❖ الغلاف الأخير: للفنان فاروق حسن/ أقام العديد من المعارض التشكيلية داخل وخارج العراق. ونال العديد من الجوائز في الرسم والديكور والتصميم .

كلمة العدد

كي لا يتبدد الأمل... لا بد من مواصلة العمل

في هذا الشهر، آذار 2010، أنجز العراقيون في السابع منه الانتخابات العامة لاختيار مجلس النواب القادم، وسط ظروف متوترة وصراعات محتدمة وتحدٍ لقوى الإرهاب، مدركين أن طريق التغيير لن يكون سهلا وأن يمر عبر المشاركة في هذه الانتخابات واستخدام حقهم الديمقراطي في اختيار ممثليهم. ولكن وبغض النظر عن أهمية هذا الانجاز فانه وبالمقابل لا بد من التذكير بان العملية الانتخابية رافقتها جملة من السلبيات والثغرات بدءاً من قانون الانتخابات الجائر ذاته. هذا إضافة الى ما رافق هذه العملية من ثغرات أخرى ومن بينها ما يتعلق بسجلات الناخبين وثغرات التصويت الخاص، وأخرها ما جرى بالنسبة للانتخابات في الخارج وما ارتبط بها من ممارسات وصلت حد الفضيحة باستبعاد عشرات الآلاف تحت ذرائع مختلفة، وتتحمل المفوضية العليا المستقلة للانتخابات المسؤولية الكبرى في هذه الفوضى، ومن دون إهمال دور المؤسسات الحكومية الأخرى في هذه العملية.

محصلة القول انه كان يمكن لهذه الانتخابات أن تشكل محطة أخرى على طريق بناء عراق جديد لكن ممارسات القوى المتنفذة ساهمت في تعطيل تحقق هذه الخطوة، وبددت الأمل في انجاز هذه المهمة ولو الى حين.

ورغم أن النتائج النهائية لم تظهر بعد حتى كتابة هذه الافتتاحية إلا إن "عراقاً جديداً " بدأت ملامحه ترتسم. ومن المؤكد أن صورته النهائية سيعكسها الاتفاق على تقاسم السلطة بين " الفائزين الكبار " في هذه الانتخابات على مستويات متعددة، علما أن هذا الاتفاق لن يكون سهلا بل معقدا وسيشهد لحظات استعصاء ستكون محفوفة بالمخاطر. وثمة العديد من المؤشرات التي تدلل على أن أغلبية " ذوات " المشهد السياسي سيرتكنون مجددا الى " مبدأ التوافقات " وسيعرض هذه المرة بطريقة يراد منها أنها تفضي الى " تسويات " وليس العودة الى نظام المحاصصات الذي قرأ الجميع نعيه علنيا ولكن كثيرين منهم ما زال متمسكا به، في الممارسة، تارة من خلال التلويح بالاستحقاق الانتخابي وأخرى من خلال التذكير بـ " طبيعة المجتمع العراقي " وثالثة بالتلويح بالاستحقاق الوطني ...الخ.

وبغض النظر عن التجاوزات التي رافقت الانتخابات الأخيرة وما شابها من نواقص وثغرات وما استندت إليه من قانون انتخابي جائر، فان ثمة دروس مهمة يمكن استخلاصها من هذه المعركة السياسية الكبيرة، ومن بينها:

أول هذه الدروس وأهمها: أن يعترف الجميع، أن مشروع الدولة الحديثة، الديمقراطية والعصرية، لا يزال مطروحا للتنفيذ باعتباره المخرج الوحيد، الممكن والمقبول، من الأزمة البنيوية الراهنة التي تواجهها بلادنا. فقد دلّلت تجربة السنوات الماضية انه لا وجود لوحدة وطنية حقيقية وثابتة خارج مشروع الدولة الديمقراطية العصرية. إن الدولة المقصودة بهذا المعنى، تلك الدولة التي لا تتقاسمها الطوائف، تحت تسميات مختلفة، بل هي دولة لمواطنين أحرار.

الدرس الثاني: هو أن المدخل الأساسي لرفع المصالح الوطنية فوق الجميع، والمباشرة في بناء الدولة العصرية، الديمقراطية، هو ضرورة بلورة آلية طويلة لهدف بعيد، تمكن من تفكيك الطوائف، كبنى سياسية

وتنشئ الأرضية لتحقيق مشروع دولة المواطنة والحقوق والحريات الأساسية. ومن هنا فان الممارسة الديمقراطية، وسيادة القانون، تتيح لهذا النضوج أن يسير بوتائر أسرع، من خلال إخماد نظام المخاوف المتبادلة وما ارتبط به من حرائق ونزيف دم وقد يتجدد في أي منعطف صعب.

الدرس الثالث: ثمة حاجة ملحة الى ثقافة ديمقراطية حقيقية، لكن هذه غير متوافرة بالمعنى الحقيقي للكلمة اليوم بل لا بد من إنتاجها وتنميتها. ولهذا يبدو أن التحدي الأكبر الذي يواجه بلادنا ومجتمعنا اليوم وخلال الفترة المقبلة هو في تجميع القوى العابرة للطوائف، حول العناوين الكبرى والأساسية لبناء الدولة الديمقراطية العصرية، دولة المواطنين الأحرار المتحررين من أية هيمنة طائفية أو قومية أو عرقية.

وننتهز الفرصة للتنويه ببيان المثقفين العراقيين الصادر قبل أيام من إجراء الانتخابات (في 25/شباط 2010)، والذي حدّد مهمات المثقفين والتحديات والمهمات التي تواجههم على الجبهة الثقافية، مؤكدا على ضرورة " ***الوصول إلى برلمان جديد يعنى بالشأن الثقافي ويمنحه ما يستحق من اهتمام، عبر العناية برسم إستراتيجية ثقافية تشترك فيها أطراف عدة، حكومية وغير حكومية، بما يخدم الأهداف بعيدة المدى في خلق بيئات ثقافية قادرة على مواجهة تحديات التراجع المحتملة في التجربة الديمقراطية العراقية الوليدة*** "

الدرس الرابع: أن هذه المهمات تحتاج من أجل غلغلتها ونشرها بين الجماهير، لتحقق النتائج الأفضل في الانتخابات القادمة الى تقوية التيار الديمقراطي، والعمل المتواصل من أجل إيجاد أفضل السبل للبدء بحوارات جادة بدون وصاية، وتنسيق فعاليات مشتركة تسهم في جذب كل الطاقات والإمكانات للمساهمة في إيجاد وسائل تتغلب على العوامل التي أسهمت في ضعف التيار الديمقراطي، وفتور حماسته من أجل استنهاض الهمم لحشد الجماهير التي ستدفعها تجربتها الخاصة للبحث عن بديل لن تجده إلا في التوجه نحو التيار الديمقراطي.

ومهما يقال بشأن الصعوبات والمخاطر المرافقة لتحول بلادنا نحو الديمقراطية فان مشقة مسارها نحو هذا الطريق لا تثنينا ما دمنا نعد الديمقراطية الخيار الأكيد للصراع، وبالوسائل السلمية، بين المصالح والتيارات التي لا يخلو منها أي مجتمع. ولا بد من العمل المثابر لكسب العقول والقلوب، وتفعيل دور الرأي العام، الذي يتعين أن يلعب المثقفون دورا كبيرا في ايقاضه، الى جانب الترويج للقيم اللازمة لبناء العراق الديمقراطي الاتحادي المنشود وإنهاء تركة الاحتلال الذي تحل " ذكراه " السابعة البغيضة بعد أيام، واستعادة السيادة والاستقلال التامين، وخلق الشروط لبناء دولة معاصرة حقا.

بغض النظر عن تواضع النتائج التي حققتها القوى الديمقراطية، التي يتعين عليها أن تقوم بدراسة نقدية عميقة وجادة للأسباب الكامنة وراء ذلك، فانه لا يجوز لهذه النتائج أن تترك آثارا محبطة بل لا بد من استخلاص دروسها والاستفادة منها لمواصلة خوض غمار التحدي من اجل أن لا يتبدد الأمل في سبيل تحقيق تلك الأهداف النبيلة التي لا بد أن تتحقق ذات يوم بعزيمة وشجاعة وإرادة أولئك الناس الذين يراهنون على خيار عابر للطوائف والاثنيات.. وليس على " حتميات " من أي نوع كان، فتلك " الحتميات" لن تتحقق إلا بالنشاط الواعي والهادف للناس ووعيهم بمصالحهم الحقيقية وليست المفترضة.

مقالات

التلوث الإشعاعي وتداعياته في العراق..الواقع والمستجدات

د. كاظم المقدادي

الدكتور كاظم المقدادي أكاديمي وباحث بيئي عراقي، حامل شهادة دكتوراه PhD في العلوم الطبية – تخصص طب أطفال من بلغاريا. عمل طبيباً وباحثاً في كل من العراق وبلغاريا وليبيا والسويد. مارس التدريس كأستاذ مساعد في إحدى الكليات الطبية البلغارية. باحث بطب وصحة الأمومة والطفولة العراقية، وبالتلوث الإشعاعي والأضرار الصحية والبيئية لليورانيوم المنضب، وله عدة كتب والعشرات من الدراسات والبحوث، والمقالات والتقارير العلمية المنشورة في العديد من المجلات العراقية والعربية وعلى شبكة الانترنت.. والى جانب ذلك ينشر دوريا في مجلة " البيئة والتنمية" ما يستجد في البيئة والتلوث البيئي في العراق.. والدكتور المقدادي يبحث هنا في مستجدات التلوث الإشعاعي في العراق وما رافقه من آثار عديدة من بينها تزايد الإصابات السرطانية.

تسعى ورقتنا هذه الى التعريف بأحدث مستجدات التلوث الإشعاعي في العراق، بما فيها الكشف عن مواقع جديدة ملوثة، لم تكن معروفة من قبل، وتزايد الإصابات السرطانية، ومتابعة التغيرات التي طرأت على مواقف الجهات الرسمية العراقية المعنية بهذه المشكلة الخطيرة.

أحداث وتطورات

شهدت الفترة من منتصف العام 2008 ومطلع العام 2010 أحداث وتطورات لصالح جبهة المناوئين للأسلحة المصنعة من اليورانيوم المنضب، وشكلت لطمة جديدة لجبهة النافين والمشككين بالأضرار البيئية والصحية لاستخدام تلك الأسلحة.

فقد أعلنت **وزيرة حقوق الإنسان** وجدان سالم أن وزارتها تستعد لرفع دعاوى قضائية الى المحكمة الجنائية الدولية لتعويض المتضررين من اليورانيوم المنضب. وأوضحت في ندوة نظمها المركز العراقي للتنمية الإعلامية، أنه بعد استكمال التقارير ستقوم الوزارة برفع دعاوى جنائية على الدول التي قامت بهذا الفعل وتعويض المتضررين منه [1].

وفي المحافظات العراقية، خاصة الجنوبية، واصلت الدوائر البيئية تحذيراتها بوجود مئات المواقع الملوثة بالإشعاع في أرجاء العراق وهي قريبة من المناطق المأهولة بالسكان وتؤثر على حياتهم اليومية. ولم تتخذ الحكومة العراقية، لحد اليوم، متذرعة بحجج مختلفة، إجراءات جدية لتنظيف وعزل سوى 10 % فقط من المناطق الملوثة- كما اعترفت وزيرة البيئة [2].

وكان من نتائج هذا الإهمال إصابة مئات الآلاف من العراقيين وخصوصا من سكان المناطق الملوثة بأمراض سرطانية فتاكة- سنأتي عليها. وقد مات منهم، خلال السنوات المنصرمة، عشرات الآلاف، وفي مقدمة الضحايا براعم حاضر ومستقبل شعبنا- أطفالنا. إضافة إلى تكاثر الولادات المشوهة، والاجهاضات المتكررة، والعقم، الذي أصاب حتى من أنجبوا قبل الحرب، وعلل مرضية أخرى غريبة وغير قابلة للعلاج، ستتوارثها الأجيال العراقية جيلاً بعد جيل.

حيال استمرار بقاء مصادر التلوث الإشعاعي، ومخاطره القائمة، وبدافع الواجب الوطني والمهني والإنساني، والحرص على حاضر ومستقبل الشعب العراقي، **بادر لفيف** من الأكاديميين والخبراء والباحثين وأطباء اختصاصيين، ومهندسين، وناشطين بيئيين، واتحادات وجمعيات ومنظمات مجتمع مدني، وغيرهم، الى **إطلاق حملة** في نيسان 2009 ، هدفها الضغط من أجل تنظيف العراق من مخلفات الحرب، وإنقاذ من بقي حياً من الضحايا، متوخية تذَكير المجتمع الدولي- ممثلاً بالأمم المتحدة والإدارة الأمريكية الجديدة وحكومات الإتحاد الأوربي وجامعة الدول العربية ودول المنطقة ،وخاصة دول الخليج العربية، بالكارثة البيئية والصحية التي خلفتها الحروب على العراق، ولاسيما التلوث الإشعاعي الناجم عن استخدام ذخائر اليورانيوم في حربي 1991 و2003، مطالبة المجتمع الدولي والمنظمات والمؤسسات الدولية وحكومات العالم بالإيفاء بالتزاماتها تجاه العراق، وتقديم المساعدة المادية اللازمة والعاجلة لتنفيذ مهمة تنظيف البيئة ومعالجة الضحايا.. لكن الحكومة تجاهلت الحملة، وعتمت عليها، ومنعت نشر أخبارها وتقاريرها.. وفي الفترة المنصرمة، طرأ تغير في موقف كل من وزارة البيئة ووزارة الصحة من التلوث الإشعاعي باليورانيوم المنضب والإصابات السرطانية. ففي أواسط 2008 نشرت وكالة أجنبية تصريحات رنانة لـ " أطباء مختصين" من المسؤولين الجدد، زعمت: " لاتوجد لحد الآن أي أدلة، أو دليل واحد فقط، على وجود إصابة سرطانية واحدة نتيجة اليورانيوم المنضب"،وان "هناك إشاعات وأقاويل كثيرة منذ عام 1991عن انتشار أمراض سرطانية سببها الأسلحة، ولكن حقيقة لم نجد لها شيئا على أرض الواقع "[3]..فندنا هذه المزاعم من وجهة نظر علمية، في وقتها، في وسائل الأعلام، ولم يجرأ أحد من " المختصين" المذكورين الرد علينا.

الغريب والمؤسف،أن **تتراجع وزيرة البيئة** السيدة نرمين عثمان حسن عن مواقفها السابقة، معلنة بأن "معدل الإصابة بأمراض السرطان في العراق يعد طبيعيا بالنسبة لعدد الإصابات بهذا المرض في دول العالم" (بالضد من مؤشرات وزارة الصحة،المعنية بالأمر- كما سنبين لاحقاً)، مشددة على " أن **أهدافا خفية** تقف وراء إثارة وجود علاقة بين التلوث الإشعاعي الناجم عن استخدام هذه الأسلحة وزيادة أمراض السرطان"**!!**[4].والغريب أيضاً أن أحد "المتهمين" بأهداف خفية- معد هذه الورقة- كانت السيدة الوزيرة قد كرمته على رأس مجموعة من الأكاديميين والباحثين البيئيين العراقيين، مشيدة بدوره المشهود في نشر الوعي البيئي حول القضايا البيئية الساخنة.

ومن المستجدات: تحرك **لجنة الصحة والبيئة في مجلس النواب،التي** ناقشت، في أواسط عام 2009، موضوع الإشعاع وتأثيره على صحة الإنسان وعلى البيئة العامة، وأجرت لقاء مع عدد من المختصين، ودعت اللجنة كافة المختصين بالشأن من أساتذة الجامعات والباحثين والأطباء، ومنظمات المجتمع المدني، الى تزويدها بكافة المعلومات

حول هذا الموضوع. وأكد الناطق الرسمي للجنة الدكتور **باسم شريف الحجيمي** أن اللجنة تنوي طرح هذا الموضوع في مجلس النواب لمناقشته وإعداد التوصيات اللازمة بصدده، ومن ثم رفعها الى الوزارات المعنية بما يسهم في تقديم أفضل الخدمات الصحية والاجتماعية لمرضى السرطان، ولإيجاد السبل الكفيلة للتقليل من مخاطر الإشعاع وتأثيره على الصحة العامة [5].

وقد **استجاب** لدعوة اللجنة العديد من المختصين، وزودها نشطاء "الحملة من أجل تنظيف البيئة العراقية" بتقرير واف أعده كاتب هذه السطور، يتألف من نحو 90 صفحة عن طبيعة اليورانيوم المنضب والدراسات المؤكدة لأضراره البيئية والصحية، والمواقع الملوثة بالإشعاع، والإصابات والوفيات السرطانية في العراق، مع مذكرة موقعة من قبل أكثر من 5000 شخصية علمية وطبية واجتماعية وثقافية،وغيرها، عراقية وأجنبية، تطالب المجتمع الدولي بمساعدة العراق على تنظيف بيئته من الإشعاع وإنقاذ الضحايا عاجلاً.

وأقامت **الهيئة العامة للمستشارين** ندوة للوقاية من التلوث الإشعاعي تحت شعار (بالعلم نحمي العراق من مخاطر التلوث الإشعاعي) بالتنسيق مع عدد من الوزارات منها البيئة والعلوم والتكنولوجيا والصحة والتعليم العالي والبحث العلمي والهيئة العراقية للسيطرة على المصادر المشعة. وكان هدف الندوة هو وضع إستراتيجية لدراسة ومعالجة واقع التلوث الإشعاعي في العراق.

يذكر أن نسبة التلوث الإشعاعي في العراق قد أُحصيت بنسبة 75% من مناطق العراق، اغلبها مناطق الوسط والجنوب. وان اغلب سكان العراق في هذه المناطق قد تعرضوا لأمراض سرطانية [6].

مع هذا، فقد انتهت دورة مجلس النواب العراقي ولم تعرض المشكلة عليه.ولم تقم **الحكومة** بأية مبادرة جدية، **و**انتهت ولايتها ولم تنجز ما وعدت به للحد من التلوث الإشعاعي، ناهيكم عن معالجته، وتواصل التخبط بإجراءات ومشاريع بيئية هامشية، وترقيعية، غير مجدية.

المزيد من المواقع الملوثة إشعاعياً في العاصمة العراقية

تجسيداً للتخبط، واصل مركز الوقاية من الإشعاع، التابع لوزارة البيئة، طيلة العامين المنصرمين، التعتيم على المواقع الملوثة، بعد أن كان يعلن عنها دورياً، وبشفافية، واتسمت بياناته بالتناقض، وطغت فيها عبارة " خالية من الإشعاع". فهذا ما جاء في الإعلان عن مسح شمل مجاميع السكراب في العديد من مناطق بغداد، التي ضمت أكثر من 10 آلاف طن من السكراب [7]. وفي الإعلان، بعد شهرين تقريباً، عن مسح الإشعاعي لما يزيد على 12 ألف و 200 طن من المخلفات الحديدية/ السكراب في بغداد [8]..بينما الواقع يفند " خلو بغداد من التلوث الإشعاعي". فقد أعلنت فهيمة سلمان- **رئيسة لجنة الصحة والبيئة في مجلس محافظة بغداد**- عن وجود مواقع ملوثة إشعاعيا في قاطعي الكرخ والرصافة ببغداد مازالت فعالة، ويضمنها مدرسة يشتبه بوجود إصابات بين طالباتها نتيجة لتلوث إشعاعي[9]. وكان تحقيق صحفي كشف النقاب عن حدوث حالتي وفاة وإصابة بمرض السرطان بسبب وجود الإشعاع في بناية مشتركة لمدرستي إعدادية عدن للبنات ومتوسطة البسمة ببغداد [10].وكشف تحقيق آخر عن تلوث إشعاعي في مبنى "هيئة الشباب والرياضة" سابقاً(برج التحرير)، حيث كان هناك (المطعم التركي) الذي ترك لتعرضه للقصف عام 2003. وأكدت وزارة العلوم والتكنولوجيا أن الطابق الثاني عشر من البناية يحوي تلوثاً إشعاعياً أعلى من الخلفية الإشعاعية، وطلبت من وزارة الاعمار والإسكان، التي تروم اعماره من جديد عدم استخدامه حماية للعاملين. وأشار **مهدي صالح حسين**- مدير دائرة البيئة الخطرة وكالة - أن هذا الأمر ليس بالجديد، وقد تم قبل فترة معالجة بناية في منطقة السنك في وسط بغداد، تعرضت للدمار والإشعاع بسبب الحرب[11].ولم تعلم وزارة البيئة بذلك، وبعد أن أجرت الكشف في بناية برج التحرير، أقرت بوجود 3 طوابق ملوثة إشعاعياً [12].

وتواصل تسرب المعلومات عن مصادر إشعاع، لكن الجديد في الأمر هو اكتشاف مصادر الإشعاع وسط المناطق السكنية المكتضة، حيث رصدت إشعاعات سامة وقاتلة لـ (السيزيوم) في محلتي 555 و557 بمنطقة الاورفلي، وورود أنباء عن إخراج الهيئة العراقية للسيطرة على المصادر المشعة أجساماً مشعة مزروعة تحت أسفلت شارع في مدينة الثورة/ الصدر [13].وفي شارع فلسطين ببغداد، أجرى مركز الوقاية من الإشعاع،على أثر ظهور إصابات سرطانية عديدة تحرياً إشعاعياً عن أسباب ظهور تلك الحالات [14].ولم تعلن النتيجة لحد كتابة هذه الورقة.

مستجدات التلوث في المحافظات العراقية

في المحافظات، حصلت في مجال التلوث مستجدات كثيرة. ولضيق المجال نشير الى بضعة أمثلة: ففي **البصرة**، رأت الدوائر الصحية إن الوضع البيئي والصحي، وبضمنه ارتفاع عدد الإصابات السرطانية بين السكان، يشكل تهديداً جدياً. فقد أكد **د. خاجاك وارتانيان**- الخبير في دائرة الصحة والبيئة: إن من بين أهم التحديات البيئية التي تواجه المحافظة هي الحديد السكراب الذي ينتشر في بعض المناطق السكنية والساحات وسط المدينة. وتمس أكداسه حياة السكان بشكل مباشر، ويساعد وجودها على ظهور أمراض خطيرة، نظراً لما تضم نسبة كبيرة منها مخلفات حربية، بعضها مشبع باليورانيوم. وقال:لقد حذرنا من مخاطرها، لكننا لم نلق استجابة من احد [15]. وذكر مصدر مسؤول في المحافظة أن لجنة مختصة من وزارة الدفاع كشفت عن موقع ملوث باليورانيوم المنضب في قضاء أبي الخصيب، يضم آليات عسكرية مدمرة،ويقع بالقرب من دور الأساتذة هناك [16]. وكشفت دراسة أعدتها **شعبة تعزيز الصحة في البصرة** في عام 2009 عن ارتفاع كمية اليورانيوم في تربة البصرة من 60-70 بيكريل للكيلوغرام الواحد من التربة قبل عام 1991 إلى 10,000 بيكريل للكيلوغرام الواحد في عام 2009. وتم تسجيل 36,205 بيكريل للكيلوغرام في المناطق التي تركت بها مخلفات الحرب [17].

وفي ميسان، واصلت مديرية البيئة في المحافظة إصدار نداءات استغاثة وتحذير إلى الجهات المعنية لرفع المخلفات الحربية الملوثة بالإشعاع التي تنتشر داخل مدينة العمارة. وأعلن **مدير بيئة ميسان** المهندس سمير عبود عبد الغفور:" منذ أكثر من عام ومازلنا نحذر من المخاطر التي تسببها هذه القطع الحربية الملوثة بالإشعاع وتداعياتها الصحية على أبناء المحافظة، وخاصة الأطفال، إلا انه وللأسف لم يتم اتخاذ أي إجراء من شأنه إبعاد هذا الخطر، في وقت نشهد فيه آثار الإشعاع على الأطفال وحصول حالات سرطانية وتشوهات خلقية. وأكد **رئيس لجنة الصحة والبيئة** في مجلس المحافظة ميثم لفته جاسم: أن وجود هذه المخلفات له اثر كبير حاضرا ومستقبلا في تدهور صحة وسلامة المواطنين وخاصة الأطفال حديثي الولادة "[18]. وجازف كادر إعلامي بالوصول الى أحد الأماكن الخطرة في مركز المدينة، وصوره، ليكشف للمسؤولين ما تسببه مخلفات الحروب المضروبة باليورانيوم المنضب من إصابات سرطانية، وطالب المسؤولين إزالتها دون استخدام الميزانية كعذر[19].

وفي **بابل**، كشفت دراسة أعدها فريق علمي من جامعة بابل عن وجود 6 مواقع ملوثة إشعاعيا، وحددت الدراسة، التي أعدها فريق مؤلف من د. حسن علوان الربيعي و د. إيناس محمد الربيعي ود. بهاء ربيع، المواقع الملوثة، وبينت أن الجرعة الإشعاعية للمناطق الستة التي تم تحديدها في المحافظة هي التالية: في المسيب4.12 وفي المحاويل 5.61 والهاشمية 5.08 وقرب سيطرة الآثار 2.36 و في بناية "فدائيي صدام" السابقة 2.89 ، أما في جامعة بابل فكانت 3.33 ملي سيفرت، بينما الجرعة المسموح بها خلال السنة الواحدة 0.5 ملي سيفيرت. فيما أظهرت إحصائية رسمية من **مركز الفرات الأوسط للسيطرة على السرطان** تزايد حالات الإصابة بالإمراض السرطانية والوفيات بذات المرض في المحافظة [20].

دراسات جديدة تؤكد التلوث الإشعاعي

أكدت **أحدث دراسة عراقية رسمية** بان أكثر من 40 موقعاً في مختلف أنحاء العراق ملوثة بمستويات عالية من الإشعاع وسموم ديوكسين، وتمثل مناطق داخل وحول بعض اكبر مدن العراق وبلداته، بما في ذلك النجف والبصرة والفلوجة، نحو 25 في المئة من المواقع الملوثة، وهي مناطق تقطنها مجتمعات شهدت نسباً مرتفعة من الإصابات بالسرطان والمواليد المشوهين على مدى السنوات الخمس الماضية.

واستنتجت الدراسة التي شاركت في إعدادها وزارات: البيئة، والصحة، والعلوم والتكنولوجيا، أن ساحات الخردة المعدنية في بغداد والبصرة وحولهما تحتوي على مستوى عال من الإشعاع المؤين الذي يعتقد انه من مخلفات اليورانيوم المنضب الذي تحتوي عليه الذخائر التي استخدمت في الحرب ضد العراق في عامي 1991 و 2003. وثمة قلق واسع بشأن مواقع الخردة، التي تكثر في بغداد ومدن أخرى بين العاصمة ومدينة البصرة.

وصنفت الهيئة العراقية للتخلص من المواد النووية 10 مواقع تحتوي على مستويات عالية من الإشعاع، كانت تضم 3 مفاعلات نووية في منشأة **التويثة**، إضافة الى مواقع كانت تنتشر حول العاصمة تعرضت للقصف أو جرى تفكيكها.

وأكدت **مديرة مركز الوقاية من الإشعاع** بشرى علي احمد انه " لم يتم مسح أكثر من 80 في المائة من العراق حتى الآن. وقد ركزنا على المواقع التي أصيبت بالتلوث بسبب الحرب. والمشكلة الكبرى التي تواجهنا هي عند سحب الدبابة المدمرة نجد آثار إشعاع جلية. ويتطلب التخلص من التلوث في هذه المواقع وقتا غير قصير" [21].

تزايد الأمراض السرطانية

بالرغم من التعتيم المفروض، فان التقارير والإحصائيات الرسمية تؤكد تزايد الإصابات السرطانية والوفيات الناجمة عنها. فقد أفاد **تقرير طبي** صادر عن وزارة الصحة بأن نحو 64 ألف شخص أصيبوا بالسرطان خلال5 سنوات مضت. وجاء في التقرير، الذي أعده 6 متخصصين بأمراض السرطان، ونشرته "جاودير" الكردية الأسبوعية، عام 2009، بأن "الإحصائيات المتوفرة في المحافظات العراقية، باستثناء إقليم كردستان، تؤكد إصابة 63 ألف و 923 شخصاً بالسرطان خلال السنوات الخمس الماضية، منهم 32 ألف و 281 ذكور و 31 ألف و552 إناث. وتشكل الإصابات بسرطان الثدي 16 % من حالات السرطان، وهي النسبة الأعلى بين أنواع السرطان، يليه سرطان الرئة والمجاري التنفسية، فسرطان الدم. وجاء سرطان العقد اللمفاوية لدى الذكور، والمبيض لدى الإناث، في المرتبة الرابعة لأنواع السرطانات الأكثر انتشارا".

وأشارت "جاودير" إلى أن نسبة الإصابة بالسرطان في العراق هي أعلى مما في دول أخرى كأمريكا والدول الأوروبية ونيجيريا.. وبينت أن السرطان في عام 2007 جاء في المرتبة الثالثة بين العوامل المؤدية إلى الموت في العراق.

وأفاد مصدر في وزارة الصحة بأن عام 2009 شهد تسجيل 15 ألف و 132 حالة إصابة بالسرطان[22]. وأعلن **المفتش العام في وزارة الصحة** الدكتور عادل محسن، خلال المؤتمر العلمي الرابع الذي نظمه المركز التخصصي لأمراض الغدد الصم والسكري التابع لصحة الرصافة، أن حجم المصابين بالأمراض السرطانية العديدة يصل الى 10 بالمائة من سكان العراق[23].وكان **البروفسور عمران سكر حبيب**- أستاذ الوبائيات والرعاية الصحية بكلية الطب جامعة البصرة- قد أعلن في الندوة العلمية التي أقامتها رابطة أنصار الإنسانية للأمراض السرطانية، بأن التقارير العلمية الموثقة تذهب الى أن نسبة 18 بالمئة من السكان في جنوب العراق مصابون أو معرضون للإصابة بأمراض السرطان[24].

وكانت **مصادر طبية** في وزارة الصحة أوضحت بان عدد الإصابات بمرض السرطان ازدادت نسبيا بشكل ملحوظ بسبب التلوث الإشعاعي الذي خلفته الحروب في العراق. ومن ابرز الحالات هي سرطان الدم والجهاز اللمفاوي

والدماغ والجهاز العصبي، التي تشكل نسبة كبيرة من مرض السرطان، بالإضافة الى السرطانات التي تصيب الأطفال، وكذلك سرطان الثدي لدى النساء. ووصل عدد الإصابات الموجودة في العراق الى أكثر من 14 ألف حالة سنوياً، في حين كانت في الأعوام السابقة هي 500 حالة فقط [25].

وأكد اختصاصي الأمراض السرطانية **الدكتور جواد العلي** أن العراق يشهد حوالي 15 ألف تشخيص لحالة سرطانية بالسنة، منها ما لا يقل عن 12 بالمئة في البصرة فقط. وعزا العلي أسباب ارتفاع نسب الإصابة بالسرطان في البصرة إلى استخدام الأسلحة التي تحتوى مادة اليورانيوم [26].

وفي **أحدث دراسة علمية مشتركة** جديدة للباحثين: الدكتور جواد العلي، والدكتور جنان بطرس توما، والدكتور سالم السعد، والبروفسور عمران سكر حبيب، والمهندس الفيزياوي د. خاجاك وارتانيان، قدمت في المؤتمر الدولي الأول عن السرطان في البصرة، في آيار 2009، وبنيت على مسح ميداني عشوائي، أثبتت نتائجها الأولية وجود زيادة كبيرة في الأمراض السرطانية، حيث بلغت النتيجة **146 حالة** سرطانية لكل 100 ألف نسمة، أي بزيادة عدة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب. وأكد معظم المشاركين في المؤتمر أن الإصابات السرطانية ذات صلة باستخدام أسلحة اليورانيوم المنضب، حتى أن **الباحث الياباني** Dr.Nobou Kazashi الذي شارك في المؤتمر أعلن بان ما يحصل في البصرة هو أشبه ما حصل في هيروشيما عقب استخدام القنبلة الذرية [27].

وأشار **أحدث تقرير** لشبكة الأنباء الإنسانية "إيرين" التابعة لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية "أوتشا"، الى دراسة بصراوية سجلت 340 حالة من حالات سرطان الدم بين عامي 2001 و2008 في البصرة، مقابل 17 حالة عام 1988 و93 حالة عام 1997. وركزت الدراسة على سرطان الدم فقط لأن عدد حالات الإصابة بهذا النوع من السرطان ارتفعت ارتفاعاً حاداً في البصرة [28].

وأكدت **أحدث دراسة أمريكية** لباحثين من جامعة واشنطن في ولاية سياتل ارتفاع الإصابات بسرطان الدم لدى أطفال البصرة بعمر دون الـ 15 سنة خلال الأعوام الأخيرة، حيث ارتفع المعدل السنوي من 2.6 في عام 1993 الى 12.2 لكل 100 ألف طفل في عام 2006 [29].

وكان مسؤولون عراقيون قد أكدوا بأن حالات الإصابة بالسرطان والتشوهات بين المواليد والمشاكل الصحية الأخرى زادت بحدة. وأفاد جواد العلي طبيب الأورام في البصرة: "رأينا أنواعا جديدة من السرطان لم تسجل في العراق قبل حرب 1991 ،أنواع من سرطان الألياف والعظام. وتشير تلك الحالات بشكل واضح إلى الإشعاع كسبب لها"[30].

وفي **الفرات الأوسط**، كشف **الدكتور شريف العلوجي** اختصاصي الأمراض السرطانية في مستشفى مرجان التخصصي في محافظة بابل عن ارتفاع أعداد الإصابة بالأمراض السرطانية في محافظات الفرات الأوسط ومن بينها محافظة بابل، بشكل خطير، إذ سجل مركز بابل لعلاج الأورام السرطانية في عام 1990 نحو 82 إصابة بالأمراض السرطانية وفي عام 2006 سجل 980 إصابة جديدة. وارتفعت حالات الإصابة بالأمراض السرطانية المختلفة في عام 2007 الى 1025، وتضاعفت في العام الحالي 2009 لتصل الى 9082 حالة تم تسجيلها. وكانت معلومات رسمية أكدت انتشار نسبة عالية من الإشعاعات في مناطق شمال محافظة بابل، وبالذات المناطق التي كانت تحوي منشات التصنيع العسكري والتي تستخدم فيها مواد كيمياوية مشعة [31].

وأعلن **الدكتور محمد فخري هلال**- أخصائي الأطفال والخدج في مستشفى بابل للولادة و الأطفال أن حالات التشوهات المسجلة في وحدة الخدج في مستشفى بابل للنسائية والأطفال كثرت في الآونة الأخيرة، حيث سجلت حوالي 46 حالة تشوه ظاهرة وأكثر من 33 حالة تشوه داخلي وتشمل تشوه عضلة القلب والأحشاء الداخلية. وأضاف: إن أكثر هذه التشوهات سببها وراثي وبيئي لان العراق تعرض إلى هجمات شرسة إبان النظام السابق وفي الوقت الحاضر[32].

وسجلت مدينة **الفلوجة** ارتفاعاً كبيراً في حالات المواليد الذين يولدون موتى أو مشوهين أو مصابين بالشلل. وأكد مسؤولون إن هناك الكثير من الوثائق تثبت استخدام اليورانيوم المنضب في أسلحة القوات الأمريكية وقوات التحالف خلال حرب تحرير الكويت عام 1991 وغزو العراق عام 2003 [33]. حيال هذا، قام عدد من المهتمين بالشأن العراقي في بريطانيا، بعد اتصالهم بعدد من الأطباء في الفلوجة الذين وثقوا ازدياد حالات الإصابات بالتشوه بين الأطفال وولادة الأجنة المشوهة، برفع مذكرة الى الدكتور علي عبد السلام التريكي- **رئيس الدورة السادسة والأربعين للهيئة العامة للأمم المتحدة**، جاء فيها بان نساء الفلوجة بتن يتجنبن الحمل والإنجاب خشية إنجاب أطفال مشوهين. وتدل الأرقام والإحصائيات بان مخاوف نساء الفلوجة ليست وهمية بل تستند الى واقع مرعب بكل المقاييس. إذ ازداد عدد الأطفال الذين يولدون بتشوهات خلقية مروعة أما بلا رأس أو عين واحدة في وسط الجبهة، أو بشرة مصدّفة وأعضاء مفقودة كلياً، كما ازدادت حالات السرطان المختلفة وبالتحديد اللوكيميا بين الأطفال.

الجهات الدولية المعنية غير راضية

موت بطيء ووحش كاسر، يطارد العراقيين وينهش لحمهم ويفني حياتهم.. عاش في رحم الحروب المتتالية التي مرت على الشعب المضام.. انه مرض السرطان الذي لا ينتبه إليه احد حيث طارد العراقيين منذ عدة عقود خفية من دون أن يشعر به احد غير الجهات الطبية المسؤولة والتي طوقت بأمر الإحجام والتكتم على هذا الغول الذي التهم مئات آلاف العراقيين[34]. وتعلم الجهات المعنية جيداً أن هذا الوحش الغول "يتغذى"على الإشعاع والمخلفات الحربية الملوثة، التي حددت وزارة البيئة- بإقرار وزيرتها- ما يعود منها الى عامي 1991 و 2003، ولم يتم اتخاذ إجراءات للتخلص منها.وأعلنت الوزيرة بان العراق يفتقر للأشراف الحكومي على النفايات [35]. وكانت قد كشفت بان الحكومة لم تطمر أكثر من 10 % من الدبابات والآليات العسكرية الملوثة باليورانيوم المنضب، بينما ثمة 80 % من المواقع الملوثة مرصود، وما زالت هناك مناطق تعذر الوصول إليها، وما زال الحطام المشع، وحوالي 10 ملايين لغم، تلوث البلاد بسبب النقص في الميزانية وهشاشة الوضع الأمني، موضحة أن الأموال المخصصة للوزارة ضئيلة جدا ولاتكفي لمواجهة التحديات البيئية في البلاد [36]. وأقرت مديرة مركز الوقاية من الإشعاع بوجود أكثر من 200 كيلومتر مربع من الأراضي في البصرة تحتوي على مخلفات الحرب بعضها ملوث باليورانيوم المنضب [37].

ولم يعد سراً أن مليارات الدولارات تختفي من ثروة الشعب في حسابات المختلسين والسراق ، تكريسا للفساد والخراب، بينما ليست هناك ميزانية ولا نية لإزالة أكوام ركام الحرب المضروب بذخائر اليورانيوم المنضب المكومة في وسط المدن، ليستنشق الناس سمومها، مسببة الموت البطيء. وعلى الرغم من حملات بعض المنظمات العراقية المستقلة والاختصاصيين العالميين والمنظمات الدولية حول تدهور الأوضاع البيئية جراء استخدام المواد الملوثة والسامة المشعة،التي سببت تلويث أكثر من 300 موقع في العراق، لم تقم قوات الاحتلال أو البلدان التي ساهمت في الغزو أو الحكومات المتعاقبة بأي إجراء جدي للتخفيف من حجم الكارثة [38].

والملفت أن تشتكي **وزيرة البيئة** بأن وزير البلديات الحالي يمنع وزارتها من الوصول الى المواقع الملوثة لغرض معالجتها، بذريعة أن مناطق التلوث من اختصاص وزارة الصحة وليست البيئة [39] وأن تتهم وزارة الموارد المائية الحكومة بإجبارها على تنفيذ مشروع ماء على أراضي ملوثة بالإشعاع قرب منطقة الخميسية التابعة لقضاء سوق الشيوخ بمحافظة ذي قار، ولم تجد أي آذان صاغية حتى الآن، رغم ما ينطوي ذلك من مخاطر جدية [40]..

حيال التخبط وسوء الإدارة، أكد خبير في البيئة أن **الجهات الدولية المعنية** بشؤون الصحة والبيئة أبلغت العراق **عدم رضاها** عن الإجراءات التي تتخذ لمنع التلوث ووقف حالات الموت اللافتة جراء تردي الأحوال البيئية. وقال الخبير البيئي أن آخر المؤتمرات الدولية عن البيئة بإشراف الأمم المتحدة سجلت عدم رضاها عن الإجراءات الحكومية في

العراق لتحسين أحوال البيئة ومكافحة آثار التلوث. وأضاف، "بين يدي الجهات الحكومية الكثير من الخطط والمشاريع لتحسين البيئة، لكنها معطلة أما بسبب الميزانية أو بسبب ضعف الإمكانات الفنية"[41].

تصاعد الدعوات إلى تدارك مخاطر التلوث الإشعاعي

بعد صمت طويل، وأثر التصريحات الأخيرة لأطباء متخصصين بالأمراض السرطانية، تحركت وزارة الصحة، ودعت الى التعامل مع ظاهرة التلوث الإشعاعي بجدية، رداً على تقليل وزارة البيئة من أهمية التلوث الإشعاعي. وقد اعترفت وزارة الصحة بان الإشعاعات الناشئة عن استخدام اليورانيوم المنضب في الحروب السابقة تسببت بزيادة الإصابة بالأمراض السرطانية، وحالات الإجهاض، والتشوهات الخلقية منذ عام 1991 وحتى الآن. وأعلن استشاري الأمراض الصدرية في مستشفى اليرموك التعليمي **الطبيب الأخصائي عبد الحميد القصير**: إن التأثيرات السلبية للإشعاعات التي تعرضت لها البلاد نتيجة استخدام اليورانيوم المنضب منذ عام 1991 وحتى 2003، خاصة في المناطق الجنوبية، تؤثر في جميع أعضاء الجسم، لذلك نلاحظ وجود زيادة في حالات الإجهاض لدى النساء، والتشوهات الخلقية التي تحصل لدى الجنين قبل ولادته، إضافة الى تأثيرها في حصول زيادة في الأمراض السرطانية، مشددا على أهمية إعداد دراسة من الجهات المعنية تشتمل على مسح جميع المناطق لاسيما التي تعرضت للقصف بمواد اليورانيوم المنضب.وطالب جميع الجهات المعنية بأخذ هذه المسألة على محمل الجد وبحيادية عالية[42]..

كما دعت **وزارة الصحة** إلى الاستعانة بفرق دولية للتخلص من التلوّث الإشعاعي، وعدم الاستهانة بنتائجه المميتة، مطالبة وزارة البيئة رسمياً بالتعامل مع ظاهرة التلوّث البيئي في البلاد بشكل جدي. وجاءت هذه المطالبة بعدما كشفت تقارير حديثة أعدّتها المستشفيات العراقية، عن تزايد نسب السرطانات بشكل غير مسبوق في البلاد نتيجة التلوّث الإشعاعي الذي تعاني منه الكثير من المدن والأحياء والمناطق القروية في العراق. كما جاء هذا التحرك مستنداً إلى **قرار مجلس الأمناء في رئاسة الوزراء**، الذي دعا وزارة البيئة إلى إجراء مسوحات في المناطق السكنية والمأهولة بعد اكتشاف إصابات سرطانية في إحدى المدارس الثانوية في بغداد نتيجة إشعاعات انبعثت من مكتبة المدرسة. وأرسل المجلس طلباً رسمياً إلى وزارة البيئة يطالبها بتحريك الفرق المسؤولة في مركز الوقاية من الإشعاع للمباشرة في إجراء المسوحات المذكورة.

وبدا أن وزارة الصحة **غير مقتنعة** بالتحركات المحدودة لوزارة البيئة، ولذا أكّدت على لسان **الوزير صالح الحسناوي** أن الإشعاعات الناشئة عن استعمال اليورانيوم المنضّب في الحروب السابقة، تسببت بزيادة الإصابة بالأمراض السرطانية وحالات الإجهاض والتشوهات الخلقية. وزاد أن تحركات وزارة البيئة تسير ببطء في هذا المجال، داعياً إلى الاستعانة بفرق دولية لتخليص بغداد من خطر التلوّث الإشعاعي [43].

إهمال مبادرة جامعة أوهايو

على الرغم من حاجة العراق الماسة الى مساعدة المجتمع الدولي لتنظيف بيئته من التلوث الإشعاعي، وتصاعد الدعوات إلى الاستعانة بفرق دولية للتخلص من التلوّث الإشعاعي،**أهملت الحكومة** مبادرة جامعة أوهايو الأمريكية لدراسة التلوث الإشعاعي في العراق الناجم عن استخدام اليورانيوم المنضب في العمليات الحربية منذ 1991، الأمر الذي دعا أكاديمي عراقي الجهات العراقية المعنية بمكافحة التلوث الإشعاعي الاستفادة من تلك المبادرة. وأوضح **د. سلام جمعة المالكي**- عضو الهيئة التدريسية في كلية الهندسة/ الجامعة المستنصرية، والمتفرغ حاليا في جامعة أوهايو/ الولايات المتحدة الأميركية (بمنحة من صندوق Scholars Rescue Fund) أن جامعة أوهايو وافقت على تمويل دراسة شاملة لمشكلة استخدام اليورانيوم المنضب، من خلال مركز تطوير القدرات القيادية العالمية، مع الاستعانة بالخبراء في الدوائر ذات العلاقة في الولايات المتحدة الأميركية. ويتضمن المشروع إشراك الجهات المعنية في العراق (وزارة البيئة، الصحة، العلوم، حقوق الإنسان، الزراعة....وغيرها) إضافة للجامعات، في البحث وتقديم النتائج النهائية

لها، دون أن تتحمل تلك الجهات أية نفقات أو التزامات جراء ذلك. وقال:" لقد تم إرسال دعوات بهذا الخصوص للعديد من تلك الجهات وللآن لم تبد أي منها أي اهتمام أو رد، بل أن السفارة العراقية في واشنطن لم تبد أي رد فعل تجاه دعوتها لان تكون ممثلة للعراق كجهة مستفيدة [44].

من جهة أخرى، دعا **وزير العلوم والتكنولوجيا** رائد فهمي الى المزيد من القوانين والتشريعات، والاستعانة بمنظومات البحث العلمي في معالجة مشاكل البيئة، مبينا أهمية مرحلة ما بعد القوانين وتفاعل الوزارات المعنية مع القوانين لتنفيذها بشكل جيد، وتقليل التكاليف، وإيجاد تكنولوجيا متطورة. وأنتقد، في محاضرة موسعة عن مشاكل البيئة العراقية، بعض الوزارات التي لا تضع ضمن أولوياتها دور البحث العملي في معالجة المشاكل. وأشار الى امتلاك وزارته لبحوث ودراسات وتقارير تساهم في معالجة مشاكل البيئة [45].

وبشأن الأمراض السرطانية، أكد وزير العلوم والتكنولوجيا على ضرورة تنسيق الجهود وتكثيفها، وتفعيل التعاون المشترك بين الجهات المعنية، للحد من مرض السرطان، ومعالجته ، وتبني عملية الكشف المبكر والوقاية منه. ودعا الى إيجاد ووضع خطط رصينة واضحة في هذا المجال[46].

خاتمة

قبل 7 أعوام سقط أعتى نظام دكتاتوري همجي، لكن آثامه وأثار شروره ما تزال شاخصة ومؤثرة جداً، ومنها تداعيات الحروب التي سببها، وغزو واحتلال العراق، واستخدام وتجريب أحدث أنواع الأسلحة الفتاكة، التي لوثت أرجاء العراق بمزيد من الإشعاعات القاتلة، وسببت كوارث صحية وبيئية وخيمة، أخطرها الأمراض السرطانية والتشوهات الولادية وغيرها من الحالات المرضية غير القابلة للعلاج، والتي ستتوارثها الأجيال القادمة من العراقيين.

هذه المشكلة الخطيرة والساخنة لم تحض بالاهتمام المطلوب، لا بل جوبهت بتجاهل وإهمال الحكومات المتعاقبة.. وما أكثر الوعود التي أطلقت ولم تنفذ، خصوصاً بعد عام 2003.

قبل 3 أعوام، تساءلنا َفي بحث نشرته مجلة وزارة البيئة العراقية: متى تنظف المواقع العراقية الملوثة بالإشعاع فعلاً؟" وقلنا: كثرت الوعود..وطال انتظار تنفيذها![47]..

مؤخراً، أعلن وكيل وزارة البيئة كمال حسين بان أعمال اللجنة المشتركة من وزارات البيئة والصحة والعلوم والتكنولوجيا تبدأ في شباط 2010 لإزالة المخلفات المشعة باليورانيوم المنضب في 40 موقعا ملوثا في العراق، تحتوي على عجلات ودبابات مقصوفة في الحرب، معربا عن أمله في التخلص من الملوثات نهائيا في غضون هذا العام [48]. وأعقب ذلك التوقيع في السفارة الأميركية في بغداد على مذكرة تعاون مشترك لحماية العاملين في مجال الإشعاع في إطار التصدي لخطر التلوث البيئي. وتأتي المذكرة، التي وقعتها وزيرة البيئة نرمين عثمان والسفير الأميركي كرستوفر هيل، تلبية لمطالب الوكالة الدولية للطاقة الذرية المتعلقة بتفكيك المنشآت النووية السابقة للعراق والتخلص من المواد المشعة الموجودة في تلك المنشآت بشكل آمن[49].

واليوم، وبعد أن انتهت ولاية السلطتين التشريعية والتنفيذية، وستغادر القوات المحتلة الأراضي العراقية، غير مأسوف عليها، **يحق لنا** أن نتساءل:**هل مَن سيديرون دفة الحكم** للفترة القادمة،**سيهتمون** بمهمة تنظيف المواقع العراقية الملوثة بالإشعاع **حقاً وفعلاً ؟!!**

ستوكهولم: 201/2/20

الهوامش

[1] "طريق الشعب"- وكالات، 2010/1/31

[2] "فرانس برس" (ا ف ب)، 2009/8/24

[3] وكالة " شينخوا" الصينية للأنباء، 2008/7/13.

[4] " المواطن"، وراديو"الناس"، في 11/9/ 2008، و"المدى"، في 11/11/ 2008.

[5] موقع: " مجلس النواب العراقي"- لجان المجلس- لجنة الصحة والبيئة- نشاطات، الاثنين 18 ايار 2009 .

[6] "وكالة أنباء الإعلام العراقي"(واع)، 2009/10/4.

[7] قناة " الفيحاء" الفضائية،2009/8/31.

[8] "الصباح"، 2009/10/17.

[9] "المشرق"، 2009/12/6.

[10] "المدى" تتصدى لملف الإشعاع مجددا، 2009/11/14

[11] "المدى"، 2009/10/12.

[12] "المشرق"،2009/11/19

[13] "المدى"،2009/11/1.

[14] "أور نيوز"، 2009/12/9

[15] "القبس " الكويتية،2009/9/6.

[16] "أصوات العراق"، 2009/12/29.

[17] IRAQ: War remnants, pollution behind rise in cancer deaths? ,Baghdad-(IRIN), 14 October 2009.

[18] وكالة الصحافة المستقلة (إيبا)،23 /2009/11.

[19] قناة "الفيحاء" الفضائية،2009/8/28).

[20] "وكالة أنباء الأعلام العراقي"(واع)، 2009/12/9.

[21] Iraq littered with high levels of nuclear and dioxin contamination, study finds, By Martin Chulov in Baghdad, The Guardian, UK, 22 January 2010

[22] " طريق الشعب"، 2009/8/18

[23] "الصباح"،2009/12/10

[24] مجلة"الشبكة"العراقية،2009/11/3.

[25] "وكالة أنباء الأعلام العراقي"(واع)، 2009/5/19

[26] راديو "نوا"،2009/12/3.

[27] كاظم المقدادي،البصرة في قبضة السرطان، مجلة "البيئة والتنمية"،العدد 139،أكتوبر 2009.

[28] IRAQ: War remnants, pollution behind rise in cancer deaths? ,Baghdad-(IRIN), Ibid.

[29] Amy Hagopian, Riyadh Lafta, Jenan Hassan, Scott Davis, Dana Mirick, and Tim Takaro, American Journal **:-Trends in Childhood Leukemia in Basrah, Iraq, 1993–2007, By** of Public Health, Feb **2010**; doi:10.2105/AJPH.2009.164236

[30] وكالة " رويترز" للأنباء، 2009/12/1،

[31] "وكالة العراق بيتنا"،2009/11/18.

[32] " المدى"، 2010/2/22

[33] " رويترز"، 2009/12/1.

[34] "الدستور" العراقية"،2010/1/5.

[35] IRAQ: War remnants, pollution behind rise in cancer deaths? ,(IRIN), Ibid.

[36] "طريق الشعب"- وكالات،2009/8/26.

[37] "رويترز"، 2010/12/1.

[38] هيفاء زنكنه، نساء الفلوجة يتجنبن الحمل خشية أطفال مشوهين،"القدس العربي"، 2009/10/18/17.

[39] " المدى"، 2009/11/26.

[40] "وكالة أنباء الإعلام العراقي"(واع)، 2009/10/2.

[41] "طريق الشعب"- وكالات،2009/8/26.

[42] "الصباح"، 2009/11/22.

[43] "الحياة" اللندنية، 2009/12/4.

[44] "أور نيوز"، 12/6/ 2009.

[45] موقع: وزارة العلوم والتكنولوجيا- أخبار، 2010/1/3.

[46] المصدر نفسه، 2010/2/9.

[47] كاظم المقدادي، متى تتظف المواقع العراقية الملوثة بالأشعاع فعلاً ؟، "البيئة والحياة"، العدد 19، آب 2007.

[48] راديو"سوا"، 2010/1/28.

[49] راديو "سوا"، 2010/2/3.

عبد الفتاح إبراهيم .. لمحات عن حياته وفكره

د. مجيد مسعود

الدكتور مجيد مسعود، حاصل على درجة الدكتوراه في التخطيط الاقتصادي من جامعة براغ عام 1968. عمل خبيراً لدى هيئة تخطيط الدولة في سورية، ثم عضواً في الهيئة التدريسية في جامعة وهران في الجزائر، وعضواً في الهيئة العلمية في المعهد العربي للتخطيط بالكويت. كما عمل خبيراً لدى الأمانة العامة لمجلس التخطيط في قطر، ومديرا تنفيذياً لدار المدى والثقافة والنشر في دمشق. صدر له عدد من الكتب في التنمية والتخطيط. في هذا المقال يتحدث الدكتور مجيد مسعود عن الشخصية العراقية المعروفة الراحل عبد الفتاح إبراهيم الذي لعب دورا مهما في العراق المعاصر.

ولد المواطن عبد الفتاح إبراهيم عام 1907 في مدينة الناصرية ، وكان والده يومذاك يشغل وظيفة واعظ. ثم انتقل مع والده إلى البصرة فدرس في مدارسها الابتدائية والمتوسطة.

يقول عبد الفتاح إبراهيم : " لاقيت مصاعب كثيرة في حياتي، لاسيما بعد معركة الشعبية ضد الانجليز الذين تمكنوا من احتلال العراق بداية بالبصرة عام 1914. وثم وضع والدي في الأسر عام 1915، وهذا الأمر غير مجرى حياتي، على الرغم من الرعاية الكبيرة التي لقيناها في مدينة البصرة في بيت جدي لامي ".

هذا وقد ظل والده في الأسر إلى أن عاد عام 1923، وعندما وجد ابنه عبد الفتاح مصابا بالبلهارسيا، قرر مصاحبته إلى الهند لمعالجته، وهكذا كانت هذه الرحلة تجربة جديدة في حياة عبد الفتاح. وعند عودته أدى الامتحان مع المكملين وحقق النجاح في الشهادة الثانوية .

كان والد عبد الفتاح ينتمي إلى عائلة لها صلة بالشيخ عبد القادر الكيلاني، التي لها جذرها التاريخي في مهنة التدريس ومحبا للعلم. وعندما وجد رغبة لدى ولده لمواصلة دراسته الجامعية، كان خير مشجع له، وانطلق الوالد إلى كليدار الكاظمية الذي بادر بإقراضه مبلغ وقدره (200 روبية)، محسوبة على مرتب الوالد الذي كان يشغل وقتذاك وظيفة مدير أوقاف الكاظمية، وذلك لأغراض سفر عبد الفتاح ومستلزمات انتظامه عام 1924 في الجامعة الأمريكية في بيروت ولكن بعدما صدر تقرير الجامعة الأمريكية المرفوع إلى الحكومة العراقية عن طلبتها في الجامعة، وفيه إشادة بجدية عبد الفتاح الدراسية وتقدمه المستمر، فقررت الحكومة العراقية أن تتحمل درسته أسوة بآخرين من زملائه.

لقد أثارت بيروت بأجواء حريتها وبالممارسة الديمقراطية التي كانت تسود الحياة الجامعية والمجتمع اللبناني، إضافة لإعجابه المسبق بابن عمه محمود احمد السيد الذي برع في مجال القصة والأدب العربي، لتنمية مشاعره الوطنية والاهتمام بالشأن الاجتماعي والسياسي العام في بلده.

وفي العام الدراسي 1924-1925 تم إنشاء (نادي النشئ العراقي) في بيروت، وأصبح عبد الفتاح رئيسا له، متعاونا مع زملائه في الجامعة، ومنهم محمد حديد، جميل توما، درويش الحيدري ونوري روفائيل وآخرين . ولما ازداد نشاطهم السياسي، جعل إدارة الجامعة الأمريكية تشدد الرقابة عليهم ، وبإنهاء دراستهم عام 1928 وعودتهم إلى العراق انفرط جمعهم، إلا إن عبد الفتاح حافظ على ارتباطه بعدد منهم وأعاد صلته كذلك بأصدقاء سابقين، منهم عبد القادر إسماعيل البستاني وحسين جميل وعاصم فليح (عامل الفخار المتنور في باب الشيخ قبل إن يتعلم ويمتهن حرفة الخياطة ويصير له شأن في النشاط الشيوعي) وآخرين .

في صيف عام 1928 تم تعيينه مدرسا للتأريخ في ثانوية الموصل براتب شهري قدره (350 روبية)، وبعدها تم نقله إلى ثانوية البصرة، ومن ثم انتقل إلى بغداد وأصبح مفتشا اختصاصيا لدى وزارة المعارف، مما أتاح له هذا العمل زيارة معظم أنحاء العراق.

بداية تحوّله الفكري

يقول عبد الفتاح: " حصلت نقطة التحول عندي نحو الاشتراكية والاتحاد السوفييتي خلال إعدادي البحوث الدراسية الجامعية حول الثورة الروسية عام 1917. ولم يسبق اختياري لهذا الموضوع أي فكرة أو دافع اشتراكي، بل ا ن الاختيار بعيد عن كل دافع، ما عدا دافع الدراسة والبحث العلمي.. إما سماعي بالاشتراكية، فقد حصل لأول مرة من خلال دراستي للكتاب الذي تناول الحركات السياسية والاجتماعية في أوربا ومن ضمنها الحركة الاشتراكية ".

دراسته العليا في أميركا

كان عبد الفتاح يتردد على مكتبة مكنزي بشارع الرشيد في بغداد ، ويحصل منها على بعض المصادر، ومنها كتاب البروفيسور الأمريكي مون (Moon) المعنون : (**الامبريالية وسياسة العالم**)، حيث كان هذا المؤلف قد اثر فيه كثيرا، ودافعا له للسفر إلى أمريكا لمواصلة دراسته العليا لنيل درجة الماجستير والدكتوراه في التأريخ، وقد تحقق له ذلك، ومجددا بتشجيع ودعم مادي من الوالد، وبما كان قد ادخره من مرتبة، فالتحق بجامعة (كولومبيا)) في نيويورك، من الفترة 1930/11/11 ولغاية 1931/6/1، وذلك بعد اجتيازه الاختبار المطلوب للدراسة عن تأريخ العراق . والتقى بالبروفيسور (**مون**) واخذ منه دروسا وحاوره بشان بحثه، وبإرشاد منه اختار موضوع تأريخ العراق، وقد وافق

البروفيسور مون أن يكون الأستاذ المشرف على دراسته وبحثه. وفي أميركا قرأ عبد الفتاح كتاب (رأس المال) لكارل ماركس، وكتابا عن الدستور السوفييتي ، ومطبوعات شيوعية كان قد جلبها معه من العراق.

لم يتمكن عبد الفتاح من مواصلة دراسته كما كان يتمنى ، وذلك عندما استلم رسالة من والده يعلمه فيها بإحالته للتقاعد بدون مرتب تقاعدي ، وعجزه عن إمداده بالمال اللازم لإكمال دراسته ، مما اضطره للعودة للوطن ، وظل على صلة بالمراسلة مع البروفيسور مون للاستفادة من توجيهاته العلمية .

في عام 1932 عمل في ميناء البصرة ، واستمر بالتزود بالفكر الاشتراكي ، فترجم كتابا عن (التربية والتعليم في الاتحاد السوفيتي) ، كما ترجم كتابا عن حياة الزعيم الوطني الهندي المهاتما غاندي لإعجابه به ، وكان ينشر مقالات في مجلة (العصر الحديث) ، ومنها مقالة عن حرية الفكر .

علاقته بالجواهري

جاء في ذكريات محمد مهدي الجواهري: (دارت أيام فخطر لي هاجس ابتياع دار، بعد عناء التشرد . ولجأت إلى ناظم الزهاوي صديقي المقرب، كنت وإياه ، وآخرون ، نؤلف ما يمكن أن نطلق عليه اسم "الشلة"، وكان في " شلتنا " عبد الفتاح إبراهيم ، محمود احمد المدرس ، زكي خيري ، عاصم فليح وحسين الرحال وغيرهم ، كنا ندعى حينئذ ، بطليعة الشباب العراقي التقدمي ، ولحسن حظي أصبح ناظم الزهاوي نفسه مديرا لمؤسسة أموال القاصرين، التي تشرف على استثمار أموال القاصرين ريثما يبلغون سن الرشد ، فتؤجر دورهم وتوظف أموالهم وتتحرك بالبيع والشراء .. الخ) .

المؤسسون بطلب إجازة حزب سياسي باسم (الحزب الجمهوري) ، كان من بينهم شخصيات معروفة ، أمثال عبد الفتاح إبراهيم ، محمد مهدي الجواهري، عزيز شريف ، عبد الرزاق مطر .. الخ ، وكان هؤلاء يدعون إلى إقامة حكم نيابي وتأمين حقوق الأقليات، إلا إن طلبهم الذي قدموه في يوم 12 / 2 / 1960، قد تم رفضه يوم 27 / 3 / 1960، بسبب خلاف ، كما ادعت السلطة الحاكمة ، على نقاط معينة.

علاقته بجماعة الأهالي

كان عبد الفتاح إبراهيم احد المؤسسين لجماعة الأهالي، وفيما بعد لجريدتها، (الأهالي)، عام 1932، مع كل عبد القادر إسماعيل البستاني، حسين جميل و محمد حديد وآخرين.

وتشير المصادر إلى إن المحور الفكري والمنظّر لجماعة الأهالي كان هو عبد الفتاح إبراهيم ، الذي كتب الكثير من الأوراق والمقالات لشرح أفكار الجماعة، وبطلب منهم اعد وثيقة بعنوان: (الشعبية المبدأ الذي تسعى الأهالي لتحقيقه)، وقد تدارستها الجماعة فصارت بمثابة البرنامج لهم حتى قبل صدور جريدتهم (الأهالي)، كما إن عبد الفتاح اشترك مع محمد حديد وعلي حيدر سليمان ، بوضع أربعة فصول من كتاب (الشعبية)، الذي تضمن الكثير من المبادئ الاشتراكية مع إشادة وترغيب بمبادئها، معتبرا إياها المبادئ الوحيدة التي يمكنها إن تخدم الطبقات الاجتماعية المسحوقة.

وكانت (الشعبية)، تمزج بين خيارين المبادئ الديمقراطية والمبادئ الاشتراكية العلمية، ولكنها تختلف عن كل منهما باعترافها بنظام الحكم الدستوري المبني على قاعدة التمثيل النيابي، ودعوتها إلى حماية حقوق الإنسان الأساسية.. ورفضها - أي الشعبية - الاعتراف بوجود الصراع الطبقي في المجتمع. كما أنها ترفض أسلوب العمل الثوري لتغيير المجتمع، واعترافها بتنظيمات الأسرة والدين والوطنية. وكما روى زكي خيري، فقد تردد في هذه الوثيقة (الشعبية) ما تقوله الدعاية الاستعمارية والرجعية عن الشيوعية.. ورأى زكي خيري أن هذا الجزء المعادي للشيوعية كان قد كتب بإلحاح من كامل الجادرجي، الذي انظم فيما بعد إلى الجماعة بعد تركه لحزب الإخاء الوطني عام 1933، وفي حينها

رد على هذه الأفكار وبلهجة شديدة قاسم حسن، وكان لتوه عائدا من اجتماع للكومنترن ممثلا للحزب الشيوعي العراقي الحديث التكوين، بصيغة مراقب، ويحتل موقعا قياديا فيه. إلا أن هذا الرد لم ينشر على الجمهور في وقته ، وذلك للحفاظ على العلاقات الطيبة مع جماعة الأهالي. (وقاسم حسن هذا صار أول سفير للجمهورية العراقية ببراغ بعد ثورة 14 تموز الوطنية).

وفي تقدير الباحث الجاد حنا بطاطو: (إن الأفكار التي طرحها هؤلاء في جريدة الأهالي مبهمة غير منسجمة، وكانت تردد صدى " الفابية " ، أحيانا ، و" الماركسية " أحيانا أخرى ، و " الدارونية " ، أو " الشعبوية " ، بين حين وآخر).

وقد روى حسين جميل بأنهم كانوا جماعة منسجمة من حيث المبادئ العامة، ولكن إذا اعتبرنا محمد حديد وأنا (حسين جميل) في الوسط، فيمكن القول أن عبد الفتاح إبراهيم كان على يسارنا، وعبد القادر إسماعيل إلى يساره.

ولكي لايظلم المفكر الوطني البارز عبد الفتاح إبراهيم، فينبغي القول بأنه كان واسع الإطلاع ، ومن قناعاته الراسخة: حق الشعب في التعبير عن آرائه ، وبضرورة الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة عن طريق الانتخاب الحرَ والنزيه، وإيمانه بعدم جدوى الانقلابات العسكرية، ونضاله الدؤوب ضد الإقطاعية والاستغلال الرأسمالي، وضد السيطرة الأجنبية بكل أشكالها، وكان مبادرا بالتخدير من الاستعمار الأمريكي بوقت مبكر في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين المنصرم، كما سيتبين ذلك من مؤلفاته .

في عام 1936 قاد الجنرال الكردي (بكر صدقي) أول انقلاب عسكري في العراق والمنطقة العربية ، أيدته بشكل عام جماعة الأهالي وشارك عدد من أعضائها في حكومته، رغم اعتراض واحتجاج بعض الوجوه القيادية فيها لهذا التوجه، وخاصة كل من عبد القادر إسماعيل وعبد الفتاح إبراهيم، إذ اعتبرا ذلك على الأسس الديمقراطية، ومخالفة صريحة لمبدأ إبعاد الجيش عن الحياة السياسية اليومية. ومما جاء في المذكرة التي رفعها عبد الفتاح إلى قيادة الجماعة: (إنكم حطمتم حركتنا عندما مكنتم الجيش من حيازة السلطة ، ولسوف تدفعون ثمن ذلك)، وكان - كما أرى - محقا في ذلك. وفي إحدى رسائله المعنونة (مطالعات في الشعبية) كتب عبد الفتاح: (إن القومية كانت ولا تزال من الأساليب التي تستغل الشعوب بواسطتها لفائدة الفئات الحاكمة وحدها).

وفي رأي الدكتور عامر حسن فياض: (إن هذا المفهوم عن القومية كان السبب الرئيسي للخلاف الذي دب بين عبد الفتاح إبراهيم وبين جماعة الأهالي إلى ما بعد تأسيس جمعية الإصلاح الشعبي عام 1935، ولأسباب أخرى، تخلى عبد الفتاح إبراهيم عن جمعية الإصلاح الشعبي، لينصرف بعدها مكرسا حياته للمطالعة والكتابة والتأليف، ممثلا الفكر الاشتراكي الديمقراطي اليساري المتطرف في العراق) .

علاقته بالسبعاوي

من تلامذة عبد الفتاح عندما كان مدرسا في الموصل الطالب محمد يونس السبعاوي، الذي أشاد عبد الفتاح بجديته ووطنيته. وقال عرضت عليه الانضمام إلى جماعة الأهالي في المراحل التأسيسية للجماعة، فأجابني : (إن طريقكم طويل، نحن عن طريق الجيش والعشائر سننزع السلطة من الانجليز بأسرع منكم) . وبعد حركة مايس عام 1942 وتأليف حكومة الإنقاذ الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني، شارك فيها السبعاوي وزيرا للاقتصاد. ويقول عبد الفتاح : (التقاني السبعاوي، فعرض علي مسؤولية الإشراف التنفيذي على "التموين " التي كانت برئاسته ، فاعتذرت منه .. فألتمسني معاونته بموضوع يهمه شخصيا، أن يبقى قوت الشعب بمنأى عن أيدي المتلاعبين ؟! فاقترحت عليه تشكيل لجنة خاصة ترتبط به مباشرة ، فأجابني : ((صار أستاذ))، وأصدر فورا الأمر الإداري الوزاري اللازم، وتألفت اللجنة من عزيز شريف وناظم الزهاوي وأنا ، حسبما اقترحت عليه. وفي عام 1945 قدم استقالته من الوظيفة الحكومية بعد أن بلغ ملفه الوظيفي فيها- متقطعا ومتواصلا - حوالي ال17 عاما.

(على طريق الهند)

هذا هو المؤلف الهام الذي كان المشروع الأول لبحثه لنيل درجة الماجستير في التأريخ وبأشراف وتوجيه من البروفيسور (مون)، وعند عودته مضطرا للوطن من أمريكا أعده للنشر لأول مرة في "رسالة الأهالي" وذلك عام 1932. وكان عمره عهد ذلك 25 عاما، مما يعبر هذا الباحث عن قدرات علمية مميزة فعلا بتلك الحقبة من تاريخ العراق. وذلك لان هذا المؤلف يعتبر بحق أدل وأعمق الكتب التي صدرت باللغة العربية عن الاستعمار الأوربي للشرق العربي، وفي المقابل عن حركات التحرر الوطنية بالمنطقة.

وفي صيف عام 1935 أعاد طبعه، وقد وجد أن الكثير من مواضيعه تقتضي الكتابة من جديد، محتفظا بمواضيعه الأولى وأفكاره الأساسية، وان جرى البحث فيها هذه المرة بإسهاب أكثر، مما جعل حجم الكتاب يقارب ضعف حجمه الأول، حيث صار بـ (350) صفحة من القطع الكبيرة . وقد اعتنى المؤلف عبد الفتاح، عناية خاصة بجعل هذا الكتاب نافعا للجيل الجديد، يُعينهم في الوقوف على الوضع الراهن في الشرق الأدنى بصورة عامة وفي العراق بصورة خاصة، عسى أن يتحقق القصد من ذلك ، كما كتب عبد الفتاح إبراهيم في مقدمته للطبعة الثانية .

في الباب الأول الذي عنونه: ((طريق الهند))، تناول فيه نظرة في جغرافية وتاريخ الخليج. وإضاءة على المصالح التجارية التي تتقدم المصالح السياسية. وتحدث عن بريطانيا التي تسيطر على الخليج في سبيل الهند، وموقفها من المسألة الشرقية واهتمامها بطريق الفرات، تجاه مشروع قناة السويس.

وفي الباب الثاني: ((سكة حديد بغداد)) ، تحدث عن الرأسمالية الجرمنية التي تسوق ألمانيا إلى الاستعمار، وعن مشروع سكة حديد بغداد من حيث أهميته السياسية، والمنافسة بين الشركات على الامتياز، وحصول الألمان على موافقة السلطان عبد الحميد على امتياز المشروع بشكل نهائي. وكيف إن هذا المشروع (سكة حديد برلين- بغداد) يثير حربا شعواء فيما بين أطراف الرأسمالية الدولية.

وفي الباب الثالث: ((عوامل أخرى تؤيد المصالح السياسية البريطانية في العراق))، منها النهضة الصناعية تزيد حاجة انجلترا إلى القطن، وتزايد النفوس يزيد الحاجة إلى الحبوب، وكلاهما يمكن أن توفره الأراضي الخصبة في وادي الرافدين. والعامل الهام الثاني هو النفط بعد اكتشافه بالعراق، والدعوة إلى الاستعاضة بالنفط عن الفحم، والفوائد الكثيرة من ذلك، مما جعل الحكومة البريطانية تسيطر على شركات النفط.

وفي الباب الرابع: ((الاستعمار البريطاني في حالة الدفاع))، يوضح بوادر اليقظة في الشرق الأوسط والأدنى: النهضة التركية ، العهد الجديد في إيران، بوادر اليقظة في أفغانستان وفي الهند، الحركة الوطنية في مصر من عهد محمد علي الكبير مرورا بالعرابي ومصطفى كامل وسعد زغلول وحزب الوفد وحركة العمال والفلاحين في مصر. ويشير المؤلف في هذا الفصل الرابع أيضا إلى تأثير الثورة السوفييتية على الشرق، وصلات روسيا الجديدة بالشرق بعد ثورة أكتوبر 1917، والدولية (الأممية) الثالثة ومساعيها، ولاسيما بعد تقرير السياسية الاقتصادية الجديدة (النيب)، وتعاون السوفييت مع حكومات الشرق الأوسط الحديثة وسياستهم الصريحة وإلغائهم الامتيازات السابقة المجحفة، وإعادة المستعمرات والحقوق المغصوبة إلى أهلها .

وأخيرا تحدث المؤلف عبد الفتاح إبراهيم عن العراق الذي جعلت منه بريطانيا مقر المقاومة في الشرق الأوسط والأدنى، وكيف استعانت انجلترا بأمراء العرب ضد الدعوة للوحدة الإسلامية ، عند اشتداد الصراع قبل الحرب العالمية الأولى (1914- 1918)، بين الدعوة للوحدة الإسلامية وبين الدعوة للوحدة العربية. وكيف تخلت عن وعودها للعرب بإنشاء دولتهم العربية، وحولت الشريف حسين الذي ناصرها من سلطان العرب إلى ملك الحجاز، ومن ثم تآمرت عليه لصالح عبد العزيز سعود عند توزيع العروش والإمارات في المنطقة العربية.

وإضافة لهذا العرض المكثف لكتاب ((على طريق الهند))، نوجه الضوء هنا على بعض الفقرات لبيان المعية هذا الباحث، منها على سبيل المثال ما جاء في الصفحة 170 من الكتاب المذكور (كانت الحرب الخفية التي استعرت نيرانها بين دوائر الرأسماليين من جهة والدوائر السياسية الاستعمارية من جهة أخرى ، منذ أواخر القرن التاسع عشر، ولاسيما بين بريطانيا والولايات المتحدة - من أهوال الحروب الرأسمالية الخفية. ولم تكشف هذه الحرب عن الروابط التي تربط الرأسماليين في كل دولة برجال السياسة والحكومة، وعن تسخير الرأسمالية رجال الدولة لمصالحهم فحسب، بل قد أثبتت أيضا إن الرأسماليين والدوائر السياسية ورجال الحكومات يؤلفون في الحقيقة عصابة واحدة للنهب والسلب واستغلال الشعوب. ويرى القارئ قصة هذه الحرب في كثير من الكتب التي نشرت بعد الحرب العامة (المقصود الحرب العالمية الأولى) ومنها كتاب ((النفط مستعبد الشعوب)) وهو أول كتاب باللغة العربية بحث هذا الموضوع، لمؤلفه ((يوسف إبراهيم يزبك))، (يوسف إبراهيم يزبك من أول مؤسسي الحزب الشيوعي السوري- اللبناني عام 1924- م).

وفقرة أخرى من ص (187) من هذا الكتاب على طريق الهند، هذا نصها: " كان الأمريكيون يتبجحون كثيرا بسلامتهم مع الميول الاستعمارية، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك - والرأسمال والاستعمار أمران متلازمان - فالرأسمالية الأمريكية وكانت حديثة عهد بالحياة، لم تكتف بما توفر لديها من ميادين الاستثمار في أمريكا الشمالية، فحملت على أمريكا الجنوبية والوسطى وعلى جزر المحيط الهادئ، وأعلنت كل هذه المنطقة ميدانا خاصا لاستثمارها (قاعدة مترو). على أن استعمارها كان استعمارا اقتصاديا خفيا لا يستهدف ضم الملكيات، وكان بعيدا عن أعين الشعوب في العالم القديم، فبقى مجهولا لديها وجعلها تعتقد بأن أمريكا الرأسمالية تختلف عن أوربا الرأسمالية، وهو اعتقاد باطل ".

وفقرة ثالثة وأخيرة، من ص (338 هذا نصها):

" إن بريطانيا قد توفقت في السيطرة على شؤون بلاد الشرق الأدنى ، كما توفقت في استعمار الهند من قبل ، بتسخير ذوي الأطماع الذين قامروا بمصالح بلادهم، ومقدرات شعوبهم وصاروا أداة لبث بذور الفرقة والشقاق فيما بينها بأبخس الأجور ، وانخدعوا بالألقاب المزيفة الكاذبة التي خلعها عليهم الاستعمار. وقد أحرز الاستعمار البريطاني بخلقه هذه الأطماع والنظم السياسية المزيفة فوزا لم يسبقه إليه احد من قبل. فقد استطاع بواسطتها أن يحقق جميع من كان يصبو إليه من غير أن يكلف نفسه شيئا مما اقتضته أنواع الاستعمار الأخرى من الأموال والتضحيات. فقد اشغل رجال هذه البلدان بالمناقشات والمنازعات على الوظائف التي شبهها بعضهم بالعظام تلقى للكلاب، وصار هو السيد المطاع، يتسابقون جميعا إلى اكتساب رضاه ، وتنفيذ أوامره، وتحقيق إغراضه من غير ما تورع، للنيل من بعضهم البعض، من غير التفات لما يصيب البلاد ومصالح السواد الأعظم من الإضرار " .

لقد كان المؤلف عبد الفتاح إبراهيم دقيقا في توثيقه ومنهجيته العلمية في عرض المواضيع وتحليلها واستخلاص الدروس والعبر منها. ويتبين من قائمة مصادر الكتاب ((على طريق الهند)) ولكل باب من أبوابه، وغالبيتها العظمى باللغة الانجليزية، مدى سعة معرفة هذا الباحث الجاد بالموضوع الذي يتناوله. وقد ختمه بقاموس الإعلام (20 صفحة) لكل ما ورد ذكره في الكتاب مع أرقام الصفحات لكل منها، وذلك لمساعدة القارئ بالرجوع إليها عند الحاجة.

((معنى الثورة))

<u>أضواء على ثورة 14 تموز الوطنية</u>

يقول خدوري:د خدوري: كان هناك رجل معجب بقاسم، هو عبد الفتاح إبراهيم، وهو لم يكن يشغل منصبا سياسيا في وزارة عبد الكريم قاسم، إنما شغل ولمدة قصيرة، منصب المدير العام لموارد النفط. ولكن عبد الفتاح لم يكن سياسيا محترفا ويدين بنفوذه إلى كتاباته، وليس لانتمائه إلى جمعيات سياسية منظمة.

وفي كتابه (معنى الثورة) الذي صدر عام 1959 حاول عبد الفتاح إبراهيم، إن يجد في ثورة 14 تموز نظرية ليبرالية تقوم من جهة على الأفكار الاشتراكية، ومن جهة أخرى على الديمقراطية الليبرالية. أي انه، كما يوضح خدوري، عاد في تفكيره إلى نظريته السابقة عن "الشعبية "، التي تأسست عليها حركة "الأهالي ".

ولهذا يمكن اعتبار كتاب (معنى الثورة) أفضل دفاع عن ثورة 14 تموز، فأوضح فيه ميادين الثورة وأهدافها. وأهاب بجميع الفئات المتحررة إن يناصروها ويقفوا الى جانبها. وهكذا فأن هذا الكتاب أشبه ببيان رسمي أوجز فيه للجيل الناشئ مضمون البرنامج الذي يحلم به منذٌ أمد بعيد ويتمنى تحقيقه يوما ما.

ولعل كتاب (معنى الثورة) قد وفر بعض التوجيه والإرشادات للحكم الثوري، إلا انه لم يترك - كما يرى خدوري- أي انطباع في نفس عبد الكريم قاسم أو في نفوس أنصاره.

(الاجتماع والماركسية)

هذا هو عنوان كتابه الأخير- كما اعلم - الذي سجل في التمهيد له: " بين أهم معطيات الماركسية رؤيتها ظواهر الحياة الاجتماعية في إطارها التاريخي، مرتبطة بمتطلبات المجتمع المادية وحكم الضرورة فيه. وكشفها وجه الخطأ في أخذ هذه الظواهر بمعزل عن ظروفها التاريخية، أو أخذها جامدة في عالم متغير ".

لقد حاول عبد الفتاح إبراهيم في دراسته هذه محاولة لإبراز النواحي الاجتماعية في الماركسية، وتأكيد أهميتها في معرفة طبيعة المجتمع وخفاياه، وفي وعي مشاكله وإدراك السبل إلى حلها. ورجح الطريقة التاريخية في متابعة الفكر الماركسي في نشوئه وتطوره، لانسجامها مع طبيعة الماركسية التي تربط تطور الفكر بظروف الزمن.

ولهذا فقد تناول الباحث عبد الفتاح في مؤلفه هذا في أبوابه الثلاثة:

- مقدمة إجمالية لموضوع الماركسية وتطبيقاتها في الباب الأول؛
- وخلفية الفكر الماركسي في الباب الثاني؛
- وتطوره في حياة ماركس وأنجلز حتى أواسط القرن التاسع عشر في الباب الثالث .

هذا وقد اتبع الباحث ذات المنهجية في كتابه الأول، من حيث دقة التوثيق، وسعة المصادر، ورفدها بدليل المراجع والهوامش، وفهرست الإعلام والمواضيع. وكان يطمح أن تتيح له الظروف الفرصة ليواصل بحث تطور الفكر الماركسي، ويتممه في كتاب آخر، كما يعالج بعض قضايا الماركسية الأساسية في كتاب ثالث. وكتب : " ليس في ظني ما هو أجدى من الماركسية طريقة علمية لتقصي مشاكل الحياة الاجتماعية وكشف السبيل إلى حلها " .

هذا وقد جاء في مقالة مهدي الحافظ: " إن فكرة اللقاء القومي - اليساري الديمقراطي، كانت موضع اهتمام ومتابعة من جانب مجموعة من الشخصيات السياسية والفكرية البارزة، التي كانت تعمل كفريق واحد وتنشر دراسات هامة، وتصدر بيانات سياسية في تلك الفترة. وكانت تضم كل من عبد الفتاح إبراهيم، عبد الوهاب محمود، مصطفى علي، إبراهيم كبة، محمد سلمان حسن، وكان عبد اللطيف الشواف على صلة وثيقة بهم، ولاسيما مع عبد الفتاح إبراهيم الذي ارتبط وإياه بوشائج قوية تطورت فيما بعد إلى مبادرات فكرية وسياسية مشتركة .

ويشير المؤلف كوركيس عواد في (معجم المؤلفين العراقيين) المكون من ثلاثة مجلدات، إلى قائمة من عناوين أبحاث المفكر عبد الفتاح إبراهيم ، لحين صدور المعجم في عام 1969، منها: *على طريق الهند*، *مبادئ الشعبية*، *في المنهج القومي*، *وجهة المجتمع بعد الحرب* ، *مشكلة التموين* ، *مقدمة في علم الاجتماع* ، *وحدة الحركة الديمقراطية* ، *دراسات في الاجتماع* ، *مستقبل التربية والتعليم في العراق* ، *خطاب عبد الفتاح إبراهيم رئيس اللجنة السياسية لحزب الاتحاد*

الوطني في المؤتمر الثاني عن سياسة الحزب ، قصة النفط ، معنى الثورة، .. وهذا وغيره يشير إلى إن الفقيد عبد الفتاح إبراهيم قد ترك مخطوطات بهذا الشأن تستحق من يهتم بجمعها وأعدادها للنشر ، تعميما للفائدة ، ولاكتشاف المزيد من المعرفة مما تركه لنا هذا المعلم الكبير.

كان الأستاذ شهاب احمد الحمد مؤلف - الجزء الأول - من سيرة عبد الفتاح إبراهيم الشخصية، قد أشار لي انه التقاه يوم 11 \ 2 \ 2003 ، وكما يبدو انه غادرنا بنفس هذا العام ، متجاوزا الخامسة والتسعين من عمره الحافل بالنشاط المثمر وسيظل فكره حيا يساهم في إنارة الطريق إلى حياة أفضل للوطن والمواطن.

****

غالبية المعلومات مستمدة بتصرف من المراجع التالية:

(1) شهاب احمد الحمد، المفكر العراقي عبد الفتاح إبراهيم - السيرة الشخصية، الجزء الأول، إصدار مركز الرابطة للدراسات والبحوث الوثائقية، بغداد تموز 2005.

(2) د . عامر حسن فياض، فكر عبد الفتاح إبراهيم - الصيرورة والتكوين- نقلا عن المرجع السابق.

(3) حسين جميل، مقابلة أجراها معه د . صفاء الحافظ ، مجلة (*الثقافة الجديدة*) ، العدد 304/ 2002.

(4) د . مجيد خدوري، العراق الجمهوري، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، إيران 1968 .

(5) محمد مهدي الجواهري، ذكرياتي، دار الرافدين ، دمشق 1988، ج ا ص 359 .

(6) عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، الطبعة الثانية ، بغداد 1953 .

(7) عبد الفتاح إبراهيم، معنى الثورة، أضواء على ثورة تموز الوطنية، بغداد 1959.

(8) عبد الفتاح إبراهيم، الاجتماع والماركسية، دار الطليعة الطباعة والنشر، بيروت 1980.

(9) د . مهدي الحافظ، مقالة في جريدة السفير اللبنانية، بيروت منتصف آب 1996.

(10) كوركيس عواد، معجم المؤلفين العراقيين، 1800 - 1969، ثلاث أجزاء ، مطبعة الإرشاد ، بغداد 1969.

(11) د . مجيد مسعود، محطات من سيرة عبد القادر إسماعيل البستاني، مجلة (*الثقافة الجديدة*)، العدد 322 - 323، بغداد 2007.

*****

المثقفون العراقيون ومحنة الهجرة

د. محمود شمال حسن

النخبة المثقفة العراقية بين ضغوط الأزمات والقهر السياسي

لقد عانت النخبة المثقفة العراقية، مدة طويلة من الخبرات المؤلمة، جراء الأزمات السياسية والاقتصادية المتلاحقة، فضلاً عن القهر السياسي للحكومات المتعاقبة. ولعل المهم هنا، أن هذه الأزمات على كثرتها، أثرت تأثيراً سلبياً على النخبة المثقفة، ذلك أن حدوث أزمة ما، يعني، أن النخبة المثقفة، ينبغي لها أن تقدم فروض الطاعة والولاء للحكومة، وبصريح العبارة، ينبغي على النخبة المثقفة، أن تثبت بالأدلة القاطعة، أنها مؤيدة لمساعي الحكومة. وعندما نقول، ينبغي على النخبة المثقفة، أن تقدم فروض الطاعة والولاء للحكومة، فإننا نعني بذلك، أن يكون للنخبة المثقفة الإسهام الواضح في التعبئة الدعائية للحكومة، وذلك من خلال الإشادة بمنجزاتها ودعوة الآخرين إلى الالتزام بنهجها القويم ومقارعة أعداءها. ولعل الأهم من ذلك، أن النخبة المثقفة، ينبغي أن تبذل جهوداً مكثفة لإقناع أفراد المجتمع، بفكرة ، أن الحكومة هي قدرهم؛ ولأنها قدرهم، كان لابد من الالتفات حولها ومساندتها تجاه القوى الغاصبة، هكذا، كان يطلب من النخبة المثقفة في عهود الحكومات المتعاقبة.

بيد أن هذه المطالب، لم تلق استجابة من جانب بعض أفراد هذه النخبة، وكان من الطبيعي، والحال هذه، أن ينجم عن الإحجام عن تلبية مطالب السلطة، جملة من المشكلات، منها: التعرض الى الاعتقال أو التشريد أو العيش في المنفى، الى جانب هذا وذاك، الملاحقة بتهمة الخيانة للوطن والحرمان من حقوق المواطنة والتعرض الى الطرد من الوظيفة، مما يؤدي الى الحرمان من الدخل الشهري، الذي يتم بموجبه إشباع بعض الحاجات الشخصية والاجتماعية. وهذا يعني كله، الضغط على أفراد هذه النخبة؛ بهدف إجبارهم على طاعة الحكومة في مساعيها التي تستهدف بالدرجة الأساس، السيطرة على المجتمع، وإسكات الأصوات المعارضة؛ ليتسنى لها بعد ذلك، التصرف بموارد المجتمع، ومن ثم، وهو الأهم، البقاء في السلطة مدة طويلة.

نقول أن هذه الأزمات بمجملها ، شكلت مناخاً اجتماعياً، اجبر النخبة المثقفة، إلى التزام الصمت إزاء الأحداث الجارية في المجتمع؛ إيثارا للسلامة. كذلك، أريد من إشاعة هذا المناخ ، إشغال الأفراد بهموم المعيشة المتلاحقة، ومنهم أفراد النخبة المثقفة على وجه التحديد، أكثر من انشغالهم بالأحداث السياسية. وبالمحصلة النهائية، فان إشاعة هذا المناخ، مكّن السلطة من تحقيق هدفها الرئيس، ألا وهو إجبار أفراد النخبة المثقفة على الرضا بالقهر والصمت إزاء الأوضاع الجارية، وتحمل المعاناة دون تذمر. ولقد ترتب على ذلك كله، جملة من الآثار النفسية والاجتماعية والتربوية، وفي هذا الصدد، نشير الى أهمها:

1- هجرة الكفاءات العلمية:

تشير الوقائع الميدانية، أن الأوضاع المعيشية الآخذة بالانحدار، أدت بنسبة كبيرة من الكفاءات العلمية الى ترك المؤسسات العلمية والجامعات والمعاهد والهجرة الى الخارج. وقد اتخذت هذه الهجرة مسارين اثنين : فأما الأول، فهو مسار البلدان العربية، إذ هاجرت بعض هذه الكفاءات الى دول الخليج العربي واليمن وليبيا والأردن وسوريا، وأما الثاني، فهو مسار البلدان الأجنبية، وقد هاجر قسم من هذه الكفاءات الى بلدان أوربا واستراليا والولايات المتحدة واسيا. ولقد شهدت هذه الهجرة زيادة لافتة للانتباه، وعندما نقول أن هجرة الكفاءات شهدت زيادة لافتة للانتباه، إنما نعني بذلك، أن أعداد المهاجرين كانت كبيرة. فقد وصل الحال ببعض المؤسسات العلمية الى إفراغها من هذه الكفاءات، وهو الأمر الذي جعل النظام السابق ، يتخذ إجراءات قسرية حيال هذه الكفاءات ؛ بهدف منعها من الهجرة. ولو طالعنا الإحصاءات عن أعداد الكفاءات المهاجرة، بالرغم من ندرتها في هذا الصدد، نجد، أن أعدادها كانت كبيرة، وهذا يؤشر حقيقة، أن المجتمع العراقي، انضم الى قائمة البلدان التي تعاني من ظاهرة (نزيف الأدمغة) أو (هجرة العقول). وتثبيتاً لصحة هذا الرأي، يشير احد التقارير الصادرة في واشنطن، أن أساتذة الجامعة العراقيين، بلغ عددهم في الجامعات الأمريكية الرئيسة (11550) أستاذا جامعياً[1]. وفي لندن لوحدها ، يوجد فيها خمسة آلاف طبيب عراقي، كما ورد في بيان مجلس الحكم ، وفي كندا يوجد ما يقارب ثلاثة آلاف تقني عالي المستوى من اصل عراقي، الى جانب ذلك، هناك أكثر من (4) ملايين مهاجر عراقي ينتشرون في بقاع مختلفة من العالم، بينهم أعداد تقدر بعشرات الآلاف من الكفاءات العلمية التي

هاجرت الى الخارج، نتيجة الفقر والبؤس والمعيشة المهينة للكرامة الإنسانية. نقول، أن هذه الأعداد الكبيرة من الكفاءات التي هاجرت الى الخارج، كانت تتمتع بخصائص من قبيل: التميز العلمي أو الثقافي والمهارة العالية والخبرة المتراكمة، فضلاً عن إنتاجيتها العلمية العالية، وليس أدل من دليل على ذلك، سوى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات وفي المعاهد العلمية الذين هاجروا الى الخارج، كانوا من حملة شهادة الدكتوراه، وبدرجات علمية تراوحت بين أستاذ مساعد الى أستاذ، والقليل منهم ، كانوا يحملون درجة مدرس.

أما المتخرجون الجدد من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، فان نسبة كبيرة منهم، تفضل الهجرة على البقاء.

والحقيقة، أن هذا التفضيل للهجرة؛ يرجع الى عاملين اثنين:

- فأما **العامل الأول**، فهو اقتصادي بالدرجة الأولى، إذ أصبحت الأجور في الوظائف الرسمية غير مجزية؛ ولأنها غير مجزية، فقد انتشر بين صفوف المتخرجين الجدد، فكرة الهجرة للتخلص من المنغصات الموجودة في الداخل، مما ترتب على ذلك، العزوف عن التعيين.

- وأما **العامل الثاني**، فهو محاكاة أو تقليد أولئك الزملاء الذين سبقوهم في الهجرة، فضلاً عن الأحاديث التي يسمعها هؤلاء الطلبة من أعضاء هيئة التدريس، تفيد بعدم احتمال الأوضاع المعيشية البائسة، وان الهجرة تعد حلاً مناسباً؛ للتخلص من تلك الأوضاع البالغة القسوة. ولقد كانت هذه الأحاديث التي ذاعت بين صفوف هذه الفئة المتخرجة حديثاً، بمثابة الإشارة لتقبل فكرة الهجرة، ومن ثم تهيئة مستلزماتها المطلوبة فيما بعد. ولقد توصلت، إحدى الدراسات التي أجريت على طلبة الدراسات الأولية في المراحل المنتهية وطلبة الدراسات العليا، الى الرأي الذي ذهبنا إليه، إذ أفادت هذه الدراسة، بوجود رغبة حقيقية لدى هؤلاء الطلبة في الهجرة إلى الخارج[2]؛ بقصد الاستقرار وتحقيق بعض أهدافهم الشخصية ومن ثم التخلص من المنغصات والاحباطات التي يتعرضون لها، لذا، أصبحت الهجرة الى الخارج شغلهم الشاغل.

وما يخص أولئك الذين لم يتمكنوا من الهجرة؛ بسبب القيود المفروضة على السفر أبان النظام السابق، فقد اخذوا يعانون الفقر والحرمان، مما عرض الكثير منهم الى الاغتراب عن المجتمع. إذ تشير إحدى الدراسات التي أجريت على أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العراقية، أن (70%) من هؤلاء، كانوا يعانون من الاغتراب[3]. وهذا يعني، أن نسبة كبيرة من أفراد هذه الفئة، مهيأة من الناحية النفسية للهجرة في حال توفر الفرصة المناسبة.

نقول، انه بسبب ضآلة الدخل وعدم كفايته لسد مقتضيات المعيشة اليومية، اضطر عددا كبير من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات ومن الباحثين في المؤسسات العلمية، الى البحث عن عمل خارج أوقات الدوام الرسمي، وهو، الأمر الذي أدى الى التغيب عن الدوام بضعة ساعات أو لأيام معينة من الأسبوع للإيفاء بالتزاماتهم في عملهم الإضافي. ولقد ترتب على ذلك، ضعف المهارات التدريسية بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس في الجامعات، وكذلك ضعف المهارات العلمية بالنسبة للباحثين في المؤسسات العلمية، نتيجة عدم الاكتراث بالعملية التدريسية و البحثية، ومن الطبيعي والحال هذه، أن تضعف مهاراتهم المرتبطة بعملهم .

وهنا نصل الى مسألة لابد من الإشارة إليها وهي، أن ضعف المهارات المهنية لهذه الكفاءات، أدى الى تدني الإنتاجية العلمية[4]. والمتتبع لإنتاجية الكفاءات العراقية، يجد أنها إنتاجية تستهدف بالدرجة الأولى، الحصول على الترقية العلمية، ولاتستهدف إيجاد الحلول لبعض مشكلات الميدان، إلا القليل منها، وهو الأمر الذي أفضى الى انجاز مجموعة من البحوث العلمية التي تفتقر الى المعالجة النقدية للظاهرة. كذلك، تفتقر الى الدقة في المعالجة، فضلاً عن التكرار، أو تأليف بعض الكتب المقررة دراسياً، وهي الأخرى تفتقر الى المعالجة النقدية، وهناك رتابة في الطرح والسرد وغلبة التكرار عليها. نقول، انه بسبب المعيشة الآخذة بالانحدار والمهينة للكرامة، اتخذت هذه الفئة، عدداً من الأساليب

لمواجهة التدهور الحاصل في المعيشة، ولعل من أهم هذه الأساليب: ترك الوظيفة ، بعد أن وجد بعضهم، عدم قدرته على الإيفاء بالتزاماته العلمية، إذ تركها غير مأسوف عليها . وفريق ثانٍ، فضل البقاء في الداخل، راضياً بقليله مغترباً عن محيط عمله. وما يهمنا في هذه السطور ، الفريق الثالث الذي ترك البلاد مهاجراً الى مكان آخر، وحقيقة الأمر، أن هذه الهجرة نجم عنها جملة من المشكلات النفسية والاجتماعية والعلمية، وفي هذا السياق نشير الى أهمها :

أ- إفراغ المجتمع من قوى التغيير[5] الاجتماعي، ذلك أن المجتمع يعول كثيراً على هذه الكفاءات للإسهام في تنميته ، فما بالك في هجرته الى بلاد أخرى، فان النتيجة المتوقعة، أن المجتمع سيعاني مزيداً من المشكلات المتعلقة بموارده البشرية الماهرة .

ب- إن بقاء الكفاءات في بلاد المهجر، مدة طويلة، سيفضي ولا ريب، الى إضعاف الصلة بالمجتمع الأصلي، وعدم قدرتها على الاندماج في المجتمع في حال عودتها إليه[6] . إذ تفيد الملاحظات الميدانية، أن ثمة عدداً غير قليل من أفراد هذه الكفاءات، عادوا الى العراق بعد سقوط النظام، بيد أنهم رجعوا ثانية بعد مدة وجيزة؛ وذلك لتعارض أساليب الحياة التي درجوا عليها في بلاد المهجر مع تلك الأساليب السائدة في المجتمع العراقي، فضلاً عن هذا وذاك، كان هؤلاء العائدون غير قادرين على التوافق مع المحيط الاجتماعي الجديد، وهو الأمر الذي جعلهم يعانون الاغتراب، وان كانوا مع أسرهم ومعارفهم .

ج- ولعل بقاء هذه الفئة مدة طويلة في المهجر، سيفضي إلى مشكلات تتعلق بإتقان الأطفال للغة الأصلية؛ وذلك يعود الى أن الأطفال سيواجهون لغتين في آن واحد: اللغة الثانوية، وهي لغة البلاد المهاجر إليها، واللغة الأصلية، وهي عادة لغة الأبوين. وبما أن اللغة الثانوية، ستكون هي اللغة الغالبة في عملية التفاهم مع أفراد المجتمع الجديد، وفي عملية التعلم المؤسسي، فان اللغة الأصلية ستنال الشيء القليل من الاهتمام، ولاسيما أن هذا الاهتمام، سيقتصر على المفردات العامية، وهذا سيؤدي بطبيعة الحال، الى اكتساب لغتهم الأصلية بطريقة غير سليمة من ناحية التركيب اللغوي. إذ ستكون صياغتهم اللغوية ضعيفة، الى جانب التغيير الذي يطرأ على بعض الحروف؛ وهذا يرجع كله الى غياب الاتصال بأهل اللغة، الى جانب أن عملية اكتسابها لا تتم بطريقة مؤسسية.

د- كذلك، فان بقاء هذه الكفاءات في بلاد المهجر مدة طويلة، سيفضي الحال بالأطفال الى استدخال القيم الثقافية لمجتمع المهجر، وهي بطبيعة الحال، تتناقض كلية مع الثقافة الأصلية للأبوين .

وهنا تكمن الخطورة ! إذ سيفقد الأطفال صوابهم في تمييز قواعد الحلال والحرام من الناحية الدينية، أو ما هو مباح وما هو محظور من الناحية الاجتماعية. وستزداد الأمور تعقيداً، حينما يتقدم الأطفال في السن؛ وذلك لاكتسابهم التوجهات القيمية السائدة في مجتمع المهجر. وهذا سيؤدي بطبيعة الحال، الى استصدار استجابات تتناسب وطبيعة هذه التوجهات، انطلاقاً من مقولة، أن التوجهات القيمية توجه السلوك وجهة معينة، وهذا معناه، أن استجابات الأطفال، ستكون على غرار استجابات أقرانهم في مجتمع المهجر، من حيث الحكم على الأشياء ومحاكاة العلاقات الاجتماعية السائدة، وكذلك من حيث تكوين تصور عن الأحداث الاجتماعية من منظور ثقافة المهجر، الى جانب مراعاة عملية التفاعل مع الأفراد، استناداً الى القواعد السائدة هناك. وبذلك ، فان بقاء الكفاءات العلمية في بلاد المهجر مدة طويلة، سيفضي الحال بالأطفال الى استدخال قيم الثقافة الأصلية بشكل ضعيف، بالمقابل الاهتمام باستدخال القيم الثقافية لمجتمع المهجر بصورة لافتة للانتباه. ولقد استثارت مسألة محاكاة الأطفال لقيم ثقافة المهجر، قلق الآباء هناك ؛ بسبب صعوبة ضبط سلوك الأطفال عندما يصلون الى مرحلة المراهقة، ولاسيما الإناث على وجه التحديد، إذ ستجاري العلاقات الحادثة من حيث تكوين الصداقات مع الذكور أو محاكاة الأنماط السلوكية السائدة لدى الإناث. وربما تتطور الأمور الى ما لا يحمد عقباها في حال الاختلاء بأحدهم ، ولاسيما أن الأجواء هناك مهيأة للإتيان بهذا النوع من السلوك .لذا، نقول، أن القلة من الآباء التي

استثار قلقها حول محاكاة الأطفال لقيم ثقافة المهجر، سارعت بالعودة الى الوطن ، تجنباً للمشكلات المترتبة على التحلل الاجتماعي الحادث هناك.

هـ- ومن المشكلات المترتبة على البقاء في المهجر، اكتساب ثقافة تتسم بالاستهلاك المفرط. وقد أسهمت عوامل متعددة في اكتساب هذه الثقافة نذكر منها: ارتفاع الدخل الذي يتقاضاه المهاجر، وهو من العوامل المشجعة على استهلاك المواد والسلع الفاخرة. كذلك، فان محاكاة الأفراد في بلاد المهجر على اقتناء السلع والبضائع، أسهم في اكتساب ثقافة الاستهلاك، فضلاً عن هذا وذاك، أن الفضائيات التي يتعرض لها المهاجرون هناك، أدت الى تنمية أنماط استهلاكية لم تكن معروفة من قبل، وهذا بدوره أدى الى زيادة الطلب على بعض السلع والبضائع. وبالمحصلة النهائية، أن هؤلاء المهاجرين أصبحوا منشغلين بإشباع حاجاتهم من هذه السلع والبضائع. إذ كلما اشبعوا حاجة من سلعة ما، وجدوا أنفسهم أمام سلع أخرى لم يشبعوا حاجاتهم منها ؛ بسبب أن الفضائيات ترسل إليهم على مدار مدة البث صوراً تشتمل على سلع استهلاكية تتمتع بقدر كبير من الجاذبية، الى جانب أنها تمثل آخر صيحات المودة ، ولاسيما في مجال الملابس وأدوات الزينة[7] وهي في الوقت نفسه، متنوعة تشبع حاجات الجنسين، من مختلف الفئات العمرية.

و- ومن المشكلات العلمية المترتبة على هجرة الكفاءات العلمية من أساتذة الجامعة، تكليف الأساتذة الجدد بمهمات تدريسية مقاربة لأولئك الذين يتمتعون بخبرة تدريسية وبحثية طويلة. والحقيقة ، أن عملية التكليف هذه لم تكن موفقة؛ بسبب أن الأساتذة الجدد بحاجة الى التأهيل التربوي، الذي يشتمل على أساليب التعامل مع الطلبة وإدارة الحوار والمناقشة داخل القاعة الدراسية. كذلك، فان هؤلاء الأساتذة، لم تكن لديهم خبرة كافية في طرائق التدريس، فضلاً عن أن مستواهم العلمي في حقل اختصاصهم لم يكن بالمستوى المطلوب، مما ترتب على ذلك، أثاراً سلبية، انعكست على العملية التربوية برمتها، وهنا نشير الى أهم هذه الآثار:

تشير الملاحظات اليومية، أن القاعات الدراسية، أخذت تشهد فوضى، لم تألفها من قبل؛ وهذا يعود الى حداثة الموقف على هؤلاء الأساتذة الذين اخذوا يواجهون صعوبة في السيطرة على القاعة الدراسية، مما أدى الى إشاعة الارتباك وضياع وقت المحاضرة في إسكات الطلبة. كذلك، فان عدم إلمام الأساتذة الجدد بأساليب التعامل مع الطلبة، أدى الى إحلال الطريقة التسلطية، محل الطريقة المرنة، مما ولد نفوراً لدى الطلبة، ومن ثم الشعور بالاستياء والتذمر، وهذا أفضى بطبيعة الحال الى إشاعة أجواء مضطربة داخل القاعات الدراسية. ولعل الأهم من ذلك، أن حالة الاستياء والتذمر التي شاعت بين الطلبة، جعلت الكثير منهم، ينصرف عن متابعة المحاضرة. كما أن حداثة الخبرة العلمية لهؤلاء الأساتذة، انعكست على المستوى العلمي للطلبة، إذ بدأنا نشهد في الآونة الأخيرة، أن الحصيلة المعرفية للطلبة، انخفضت بشكل ملحوظ؛ وذلك يعود الى أن هؤلاء الأساتذة ، لم يتمكنوا من استثارة دافعية الطلبة في طلب المزيد من المعرفة. كما أن هؤلاء الأساتذة، اخذوا يقدمون للطلبة المحاضرات بصيغة مختصرة دون الإلمام بالتفاصيل، وبالمحصلة النهائية، فان هذا الحال، مكن الطلبة من الإلمام البسيط بالظواهر دون معرفة التفاصيل التي تشتمل عليها. الى جانب، أن المفردات المقررة للمادة العلمية، لم تنجز بكاملها، وأنها آخذت تخضع للاجتهادات الشخصية من جانب هؤلاء المستجدين .

ومن الآثار السلبية المترتبة على تكليف الأساتذة الجدد بمهمات تدريسية، أن التقاليد العلمية المتعارف عليها، قد ضعفت بشكل واضح؛ ولعل السبب يرجع هنا الى أن عدد الأساتذة الجدد، بدأ يتغلب على عدد الأساتذة القدماء وان هؤلاء القدماء، آخذت أعدادهم بالتناقص بمرور الوقت، حتى وصل عددهم في القسم العلمي بين (3-4) والبقية الباقية من الجدد. كما أن بعض الأساتذة القدماء، عزف عن التدريس في الدراسات الأولية واقتصر جهده على التدريس في الدراسات العليا ؛ بسبب شعورهم بالإرهاق ، جراء التدريس، وهذا أدى الى عزوفهم عن متابعة مجريات الأمور داخل القسم العلمي، وهو الأمر الذي جعل التقاليد العلمية في الأقسام العلمية، تشهد انحساراً ملحوظاً.

الهوامش

(1) محمد رشيد الفيل. الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس للتكنولوجيا . (عمان : دار مجدلاوي ، 2000) ، ص81.

(2) خالد حنتوش ساجت المحمداوي . الاتجاهات المستقبلية للطلاب نحو الهجرة خارج العراق: دراسة ميدانية في جامعة بغداد. (بغداد: جامعة بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، 1996)، ص90.

(3) خضير مهدي عمران الجبوري. الاغتراب عند تدريسيي الجامعات العراقية وعلاقته بجنس التدريسي وموقع الضبط والدخل الشهري ومنشأ الشهادة والمرتبة العلمية . (بغداد: جامعة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، 1996)، ص91.

(4) محمود شمال حسن . الخطاب التربوي العربي وإشكالية تشكيل السلوك . شؤون عربية ، العدد 115(خريف ،2003) ، ص116.

(5) نادر فرجاني . (بيروت: النفط: أبعاد الهجرة للعمل في البلدان النفطية وأثرها على التنمية في الوطن العربي، ط3.(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1984)، ص64.

(6) محمود شمال حسن . قلق المستقبل لدى الشباب المتخرجين من الجامعات . المستقبل العربي ، السنة 22 ، العدد 249(تشرين الثاني – نوفمبر ،1999) ، 85.

(7) محمود شمال حسن . نحن والبث الفضائي: دراسة الآثار النفسية والاجتماعية المحتملة للبث الوافد من الفضاء في المجتمع العربي. دراسات اجتماعية. السنة 1، العدد 2 (حزيران –يونيو، 1999)، ص95.

محمود شمال حسن . مسألة التضليل في الخطاب التلفزيوني . الإذاعات العربية . العدد 1 (2001) ، ص16.

التأمين: موضوع مهمل في الكتابات الاقتصادية العراقية

مصباح كمال

تعلم مصباح غازي عسكر كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية (1978) وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن ولا يزال يمارس العمل.

نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي-عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر. يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقي

نزعم أن موضوع التأمين غائب في برامج الأحزاب وإن ذُكر ففي مجال الضمان الاجتماعي [1]، وحتى في هذا المجال فإنه لم يخضع للتحليل. ولا ينصرف اهتمام العاملين في قطاع التأمين إلى الدور الاقتصادي للتأمين إذ أن معظم كتاباتهم تقتصر على قضايا فنية [2]. وكذا الأمر في الدراسات الأكاديمية ولكن من الإنصاف أن نقول بأن الدراسات العليا في الجامعات العراقية أفردت مكاناً لبعض الجوانب الاقتصادية للتأمين [3] لكن المنجز في هذا المجال لم ينشر، ولم تخضع الدراسات ذاتها للتقييم والنقد [4]. أما اهتمام الحكومات فهو مفقود، وتصريحات أعضاء الحكومة ينقصها الدراسة - ولم تترجم إلى إجراءات أو قرارات ملزمة.

لا ندعي بأننا نسد فراغا في هذا المجال لكننا من خلال التعليق الانتقائي على آراء ثلاثة اقتصاديين (د. صبري زاير السعدي، د. كامل العضاض، د. كاظم حبيب نعتز بآرائهم) نود أن نطل على الموضوع ونفتح باباً للمناقشة.

إطار اقتصادي عام لتقييم دور التامين

يقول د. السعدي في كتابه ***التجربة الاقتصادية في العراق الحديث: النفط والديمقراطية والسوق في المشروع الاقتصادي الوطني (1951-2006)*** [5]***:***

"إن شروط النمو الاقتصادي الرئيسية تتمثل في زيادة معدلات الادخارات (الاستثمار) المحلية من غير إيرادات الصادرات النفطية أولاً، وثانياً في زيادة الصادرات من غير النفط الخام. وبالتالي، كان لا بد للسياسات الاقتصادية الكلية أن تصمم لتأمين هذين الشرطين على المدى المتوسط والبعيد. كما كان على السياسات المالية والنقدية تحقيق التوازن الاقتصادي الداخلي والخارجي على المدى القصير في ظروف الاستخدام شبه الكامل للأيدي العاملة الوطنية. وتكشف التجربة، أن تحقيق التوازن الاقتصادي على المدى القصير لا يمكن أن يقوم على أساس التوسع في المديونية للخارج عن طريق الاقتراض الخارجي، وأنه يمكن أن ينحرف كثيراً عن شروط النمو الاقتصادي ما لم يتحقق فائض في الميزان التجاري عن طريق زيادة الصادرات غير النفطية، وأن يتم تمويل الإنفاق العام من الإيرادات غير النفطية، ولا سيما ضرائب الأرباح والدخول."

نظرياً ودون الدخول في تفاصيل القيود التنظيمية للنشاط التأميني، يمكننا ترجمة شروط النمو الاقتصادي فيما يتعلق بدور التأمين في الآتي: مساهمة صناديق أقساط التأمين المتجمعة لدى شركات التأمين في زيادة معدلات الاستثمار، وكذلك المساهمة في زيادة الصادرات غير النفطية من خلال الاكتتاب بأعمال إعادة التأمين الواردة من خارج العراق. ولكن بسبب ضعف القاعدة المالية لشركات التأمين حالياً فإنها غير قادرة على هذا الاكتتاب لا بل أنها مضطرة إلى توسيع شرائها لإعادة التأمين من الخارج. وسوف يمر وقت طويل قبل أن تستطيع العمل خارج العراق.

ويلاحظ د. السعدي أن الإنفاق الحكومي هو المتغير المهيمن على الطلب العام [6] ومن باب التعميم، وخاصة في سبعينات القرن الماضي، يُلاحظ أن ازدهار التأمين أرتبط بالإنفاق على المشاريع النفطية والصناعية والإنشاءات المدنية الكبيرة. فقد شهدت هذه الفترة طفرة كبرى في حجم أقساط التأمين المكتتبة، وخاصة أقساط التأمين البحري والهندسي، وتعاظم حجم أقساط إعادة التأمين.

وما زال الإنفاق الحكومي هو المهيمن على الطلب العام مع فارق أساسي، فيما يخص التأمين، هو أن هذا الإنفاق لا يترجم نفسه إلى طلب من قبل مؤسسات الدولة ومقاوليها على شراء الحماية من شركات التأمين العراقية. وقد نشأ هذا الوضع السلبي بسبب أحكام قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005، وإهمال التأمين في عقود الدولة، وترك حرية التأمين لدى المستثمر الأجنبي والوطني للتأمين لدى شركات أجنبية أو وطنية حسب رغبة المستثمر .. الخ [7].

أما التوسع في المديونية للخارج فهو استمرار لسياسة النظام الشمولي مع اختلاف واضح وهو لجوء الحكومة الحالية إلى الاقتراض من المؤسسات الدولية [8].

دور توازني للتأمين

كتبنا ورقة بعنوان: "السياسات الاقتصادية في العراق والخيارات البديلة: قطاع التأمين نموذجاً" لتقدم في ندوة " أداء السياسات الاقتصادية في العراق والخيارات البديلة"[9] (كان المأمول عقدها في برلين، آب 2009، إلا أنها تأجلت). وقد قرأها بعض الزملاء ومنهم د. كامل العضاض. نقتبس هنا بعضاً من تعليقاته ومناقشتنا معه.

"اعتقد إن تشخيصاتك تعكس، ليس فقط غياب الرؤية الإستراتيجية لإعادة بناء العراق بكل كياناته الإنتاجية والخدمية، (وقطاع التأمين في طليعتها)، بل، أيضا، تدني الفكر القيادي الموجّه، إذ يبدو أن هذا الفكر يفتقد الإحاطة الكافية أو حتى الفهم المتداول للبرالية ودور القطاعين العام والخاص، بمنظورها العلمي؛ يفتقده حتى بالمعايير الرأسمالية الأمريكية ذاتها... أشتغل حاليا على دراسة في الحسابات القومية، حيث وجدت من خلال موازنة أرصدة، أو فوائض حسابات الأنشطة السلعية، (أي المادية)، مع كل من فوائض الأنشطة الخدمية، (غير المادية)، وفوائض أنشطة التأمين، .. أن قطاع التأمين هو **الذي يلعب الدور التوازني،** كلما يحصل خلل ما بين الإنتاج السلعي والنشاط الخدمي المصرفي، أو القطاع المالي كله. إذ تعلم أن الأزمات المالية الكبرى، ومنها الحالية في الاقتصادات التي يفور فيها النشاط المالي والنقدي والائتماني، **وليس التأميني،** كالاقتصاد الأمريكي، يفضي النشاط المالي، **بإبداعاته وفذلكاته المالية،** كإعادة الشراء والتسييج والمشتقات، إلى أن تتحول المعاملات المالية إلى **اقتصاد وهمي، ذلك لأنها لا تقوم على تدفق مماثل للسلع الحقيقية**. أما قطاع التأمين، فهو الذي يسحب السيولات النقدية ويوظف أرصدته المالية في حافظة من الاستثمارات الحقيقية، فهو إذن، **يلعب دور توازني ما بين القطاعين السلعي المادي والخدمي الإنتاجي،** بما في ذلك الخدمات المالية... من هنا أقول، انه لا يوجد إلا فهم ساذج لدور نشاط التأمين في العراق في مجال التوازن الاقتصادي. وهذا ناهيك عن دوره في إستدناء الأخطار وفي توزيع أعباء الخسائر وفي المحافظة على الأصول الجديدة والتراكمية في الاقتصاد العراقي. أعتقد، بصراحة، إن ورقتك جاءت، ليس فقط في وقتها المناسب، وإنما أيضا، لتسد فراغا مغفلا، بما يخص القطاع التأميني الهام جدا في العراق ". [التأكيد للدكتور العضاض]

يتحدث العضاض عن النشاط التأميني من منظور الاقتصاد الكلي، أي مساهمته في الناتج الوطني الإجمالي وما يتفرع عنه من عناوين نذكر منها:

- التأمين على الحياة كوسيلة ادخارية فريدة ودور شركات التأمين كوسطاء ماليين، طبيعة الاستثمار في التأمين على الحياة وفي التأمينات العامة.
- توفير فرص العمالة من قبل شركات التأمين والخدمات الملحقة بالنشاط التأميني كوساطة التأمين، وتسوية المطالبات وتقييم الممتلكات.
- التضخم ودورة الأعمال وتأثيرها على مستوى النشاط التأميني.
- التغيير السكاني وأثره على طلب التأمين.
- السياسة المالية: الإنفاق العام/الحكومي، الضرائب المفروضة على وثائق التأمين وعلى إيرادات شركات التأمين، الرقابة على النشاط التأميني.
- السياسة النقدية: أدوات السياسة النقدية، وتأثيرها على قطاع التأمين.
- التجارة الدولية وميزان المدفوعات.

وملاحظاته حول الدور التوازني لصناديق التأمين لتعديل الخلل بين الإنتاج السلعي والنشاط الخدمي المصرفي أو القطاع المالي، أمر جديد علي، وهو لا يجد له تطبيقاً في الاقتصادات غير المعقدة كالاقتصاد العراقي، إذ أن التوازن الاقتصادي الذي يتحدث عنه له علاقة ببيئة استثمارية متطورة لا تجد لها حضوراً في العراق.

ربما يكون الخلل الأكبر متمثلاً بالفجوة بين ما أسماه بالاقتصاد الوهمي (المضاربة بالأوراق المالية التقليدية والجديدة، وهي التي فجّرت الأزمة الأخيرة، التي لا علاقة لها بالإنتاج) والاقتصاد الحقيقي (إنتاج السلع والخدمات لإشباع الحاجات المعيشية للناس) [10].

في مناخ الأزمة المالية التي يمر بها الاقتصاد العالمي فإن المحافظ الاستثمارية لشركات التأمين ليست بمنأى عن هذه الأزمة خاصة بعد أن أصبحت كلفة رأس المال (الاقتراض لأغراض التوسع مثلا) عالية، وتعرّضَ العائد على استثمارات شركات التأمين وكذلك قيمتها السوقية إلى الهبوط، وميل المؤمن لهم إلى إعادة النظر في برامجهم التأمينية لتقليص كلفة شراء التأمين.

قواعد السلوك، والتغلغل التأميني، والسياسة الاستثمارية لشركات التأمين

في دراسة لنا ذكرنا:"ومن الوسائل الأخرى لتعزيز ثقة الجمهور وكذلك الالتزام بالمعيار الأخلاقي والفني للعمل إصدار مدونة لقواعد السلوك code of conduct لتكون شركات التأمين خاضعة للمساءلة بموجبها". وفي الحديث عن التغلغل التأميني والكثافة التأمينية ذكرنا أن تحديث القطاع ينصّب على مساهمته في الاقتصاد الوطني. فالمعروف أن "أهمية قطاع التأمين في الاقتصاد الوطني لأي بلد يقاس من خلال مؤشرين: التغلغل التأميني insurance penetration والكثافة التأمينية insurance density. ويقصد **بالتغلغل التأميني نسبة دخل أقساط التأمين إلى الناتج المحلي الإجمالي،** وهو بذلك يؤشر على أهمية النشاط التأميني في الاقتصاد الوطني وتطور هذا النشاط بالنسبة للاقتصاد الوطني ككل ... **أما الكثافة التأمينية، فهي تعني إنفاق الفرد على شراء الحماية التأمينية، وبالتالي فهي تعبر عن إجمالي أقساط التأمين المتحقق في البلد منسوباً إلى عدد السكان.** وتدل الإحصائيات على أن الكثافة التأمينية في البلدان المتقدمة تفوق كثيراً ما يماثلها في البلدان ضعيفة النمو" [(11)].

في تقييمه لهذه الدراسة قال د. العضاض:

"اقتراحك بوضع **قواعد سلوك لقطاع التأمين** مسألة أساسية وضرورية إلا أن هذه القواعد يجب أن تضم مؤشرات على الدور العقلاني التنموي لشركات التأمين وخاصة شركات التأمين على الحياة. ويمكن لهذه الشركات الاستمرار في أداء هذا الدور طالما تجنبت المضاربات المالية والمضاربات بمنتجات استثمارية غير مستقرة والتعامل مع أسواق المضاربة الثانوية كإعادة البيع وإعادة الشراء والحيل القذرة للأسواق الزائفة. وعند حديثك عن مفهوم التغلغل التأميني عرّفته على أنه "نسبة دخل أقساط التأمين إلى الناتج المحلي الإجمالي." دعني أصحح هذا من منظور الحسابات القومية فهي الأرباح الصافية، أي أقساط التأمين المسددة مطروحاً منها التعويضات المدفوعة أو التي ستسدد. وبالطبع يجب استقطاع مصروفات أخرى ".

لم يكن غرضي من **وضع قواعد للسلوك** أن تكون موسعة وتتضمن مؤشرات عن دور عقلاني تنموي لشركات التأمين وخاصة شركات التأمين على الحياة كأوعية ادخارية واستثمارية، شريطة عدم تورطها في أدوات استثمارية قائمة على المضاربة. لكن الفرص الاستثمارية أمام شركات التأمين العراقية محدودة ولم تلجأ، في الماضي أو الحاضر، للاستثمار في أدوات غير مضمونة.

قواعد السلوك هي القواعد المنظمة للعلاقات بين شركات التأمين والمؤمن لهم وتشمل، على سبيل المثال، بنوداً عن أسلوب بيع وثائق التأمين، وضوح الغطاء التأميني، عدم التلكؤ في تسوية المطالبات، معالجة الاختلاف بين الشركة والمؤمن له بعدالة وكفاءة خلال فترة زمنية معقولة .. الخ. وقواعد أخرى للحد من غسل الأموال.

أفادنا د. العضاض بالتنبيه على تطبيق مفهوم التغلغل التأميني من منظور الحسابات القومية وهو ما لا يلقى عناية العاملين في قطاع التأمين. ما يهمنا هنا هو التفكير في الوسائل التي تزيد معدل التغلغل التأميني ومنها، على سبيل المثال:

جعل فروع معينة من التأمين إلزامياً كالمسؤولية المدنية الناشئة عن حوادث السيارات.

التأمين الإلزامي الصحي (وهو ذو بعد اجتماعي اقتصادي يمس شريحة واسعة من الناس، ليس هذا بالمكان المناسب للحديث عنه، يقوم على قناعات قابلة للنقاش بشأن قدرة الدولة على تمويل الخدمات الصحية).

وفيما يخص إلزامية التأمين هناك تخوف غير مبرر يقوم على جهل بالإلزامية (وليس هذا أيضاً بالمكان المناسب للحديث عنه ويكفي القول إن التأمين على خطر الفيضان إلزامي في بعض الولايات الأمريكية، والتأمين على المسؤولية العشرية لمقاولي الإنشاءات المدنية إلزامي في فرنسا، والتأمين على المباني في سويسره إلزامي .. الخ).

ويمكن تعزيز التغلغل بجذب فئات جديدة للتأمين على الأخطار التي تتعرض لها ولا تؤمن عليها لأسباب دينية أو أخلاقية أو اقتصادية.

وبالطبع كلما زادت معدلات النمو الاقتصادي زادت فرص التأمين على الوحدات الاقتصادية والتجارية الجديدة.

ومع تطور ثقافة حقوقية تجاه مسؤولية الأفراد والمؤسسات عن أفعالها تظهر الحاجة لتأمين المسؤولية المدنية التي تشكل مصدراً إضافياً لطلب التأمين. وتلعب السياسات الضريبية دوراً مهماً بالتأثير على الطلب الفعّال على شراء التأمين. ففي

التأمين على الحياة يميل طالبو التأمين لوثائق تجمع بين التأمين التقليدي والادخار. الضرائب على هذه وغيرها من الوثائق وكذلك على شركات التأمين قد تنفر مجموعات من الناس من شراء التأمين. كما أن شركات التأمين، كمؤسسات تجارية ربحية، تحول عبء ما يفرض على أموالها من ضرائب على عاتق المؤمن لهم من خلال زيادة أسعار التأمين.

السياسة الاستثمارية لشركات التأمين

لا بد أن تخضع لقواعد منظمة وللرقابة القانونية. إن تحقيق الربح الاكتتابي هو ما تعمل شركات التأمين من أجله، أو هو ما يجب أن تعمله، وعند فشلها في ذلك فإنها تعوضه من عوائد الأموال المستثمرة ـ الطريقة التقليدية لتغطية العجز، وهو ما يسِمُ عمل العديد من شركات التأمين العالمية. لكن السياسة الاستثمارية لشركات التأمين قد تُمنى بالفشل بسبب اختيار استثمارات مشكوك في قيمتها السوقية.

إن الاعتماد على العوائد الاستثمارية سياسة لها مخاطرها. تخيل الاستثمار في العقارات، فإن تعرضت العقارات إلى الهلاك، وفي غياب التأمين عليها تفقد مثل هذه الاستثمارات قيمتها الآنية والدخل المنتج منها وبالتالي لن تُسعف في تغطية العجز الاكتتابي. أو عند انهيار سوق الأوراق المالية وما يترتب عليه من فقدان العوائد إضافة إلى هبوط قيمة الأوراق المالية التي استثمرت فيها شركة التأمين بحيث أن بيعها سيكون، ربما، دون قيمتها الاسمية وبالتالي فإن العوائد المتحققة من البيع ستكون ضعيفة ولا تساعد كثيراً في تغطية العجز الاكتتابي (عدم كفاية أقساط التأمين المكتتبة لتمويل مطالبات المؤمن لهم بالتعويض). ثم هناك التغيير في سعر الفائدة على الودائع. ولذلك فإن الانصراف عن تحقيق ربح على الأعمال المكتتبة والاعتماد المطلق على عوائد الاستثمار في ظل التقلبات الدورية الملازمة للاقتصاد الرأسمالي ليس بالأمر المحمود. وبالطبع فإن تنوع المحفظة الاستثمارية يعمل على التخفيف من نتائج المخاطر التي تكتنف بعض الأدوات الاستثمارية.

التأمين وإستراتيجية التنمية الوطنية المشتركة

قرأنا بسرور دراسة من خمس حلقات للدكتور كاظم حبيب "نقاش اقتصادي مفتوح وصريح مع السيد الدكتور برهم صالح، نائب رئيس الوزراء العراقي"، تعرض في الحلقة الثالثة منها للتأمين (**المدى**، 25أيار2009).

كي نتابع موقف د. حبيب من الدور الاقتصادي للتأمين نقتبس مطولاً من دراسته. يذكر أن الهدف المركزي..على مدى السنوات العشرين القادمة يتركز "في تخليص العراق من التخلف والاعتماد الوحيد الجانب على موارد النفط في تكوين الدخل القومي." وهذه أطروحة مشتركة بين معظم الاقتصاديين العراقيين.

بعدها يدعو إلى التزام جملة أدوات ومنها:

1. الاستفادة من إمكانيات القطاعين الخاص والحكومي في عملية التنمية...
2. حماية الإنتاج المحلي من المنافسة الأجنبية خلال المراحل الأولى من تنفيذ إستراتيجية التنمية...
3. التحكم بتأمين انسياب نسبة.. من إيرادات النفط الخام صوب التثمير الإنتاجي وتنشيط القطاع الخاص ...
4. وضع سياسة مالية ونقدية، بما فيها السياسة الضريبية والجمركية، وسياسة **جادة للتأمين وإعادة التأمين على نطاق البلاد كلها** تتناغم مع إستراتيجية التنمية الوطنية .. وتنقل البلاد من حالة الاقتصاد الشمولي المتخلف إلى .. **اقتصاد السوق الاجتماعي، إذ أن السياسة المالية والنقدية، ومعها التأمين، هي الأدوات التنفيذية للسياسات الاقتصادية**." [التأكيد من عندنا]

اقتصاد السوق الاجتماعي والتأمين

وقبل التعليق على رسم سياسة للتأمين وإعادة التأمين نود التعريف باقتصاد السوق الاجتماعي الذي يرد في دراسة د. حبيب هذه وغيرها من دراساته لنعرج بعدها إلى ما يعنيه هذا الاقتصاد بالنسبة للنشاط التأميني.اقتصاد السوق الاجتماعي أشبه ما يكون بمشروع بناء "طريق ثالث" بين الليبرالية (اقتصاد السوق، المبادرة الفردية، المنافسة) والاشتراكية (العدالة الاجتماعية). ويتطلب تحقيقه اعتماد سياسات تقوم على تأكيد **المنافسة** (والوجه الآخر له هو منع الاحتكار)، توفير الشروط لتحقيق **تكافؤ الفرص بين الكيانات الاقتصادية** وتعطيل سيطرة فئة على مقاليد الاقتصاد

الوطني، و**تدخل الدولة** عند فشل السوق في أداء دوره (دور اضطراري). وقد يضاف إلى هذه السياسات **تدخل الدولة لتوجيه الإنفاق والاستثمار لتلبية حاجات اجتماعية** (هياكل ارتكازية، مدارس، مستشفيات وغيرها من خلال مشاركة الدولة مع القطاع الخاص الوطني أو الأجنبي أو الاستثمار المباشر وهذا الأخير هو الذي ينتظم دعوات الاستفادة من الريع النفطي لأغراض البنية التحتية، المادية وغير المادية، بما فيها التعليم والصحة والحفاظ على البيئة).

وبالنسبة للعراق فإن خيار الانتقال إلى اقتصاد السوق مسألة مفروغ منها وإضافة الصفة الاجتماعية لا يغير من طبيعة التوجه الاقتصادي للحكومة والأحزاب السياسية بما فيها أحزاب اليسار. فهناك تقدير واعتراف بدور جديد للدولة، في صيغتها الاتحادية، (رغم عدم وضوح الأفكار بشأن هذا الدور في الوقت الحاضر) يقوم على منهج الرعاية الاجتماعية، والتنمية البشرية والتكنولوجية وتدريب القوى العاملة ومحاربة الفساد المالي والإداري وإعلاء سلطة القانون. التلكؤ الحالي في إدارة الاقتصاد وغياب السياسات الواضحة هو الممهد لإنهاء دور الدولة كمقرر لإدارة الاقتصاد. نحن بإزاء قيام اقتصاد رأسمالي في العراق رغم الأوصاف الأخرى التي تطلق عليه.

ماذا يعني ذلك بالنسبة للنشاط التأميني؟ ربما يعني **خروج الدولة من السوق التجاري للتأمين**. ويقتضي هذا خصخصة شركات التأمين وإعادة التأمين التابعة لها، وحصر دور الدولة بتوفير أنماط من التأمين الاجتماعي، أو تطوير ما هو قائم منها، كما هو الحال في الديمقراطيات الغربية، أو تكوين مُجمّع تأميني لمقابلة الخسائر والأضرار المادية المترتبة على الكوارث أو خطر الإرهاب. وقد يكون هذا المجمع ممولاً من الميزانية العامة أو من مساهمة الشركات أو رسوم مفروضة على وثائق تأمين معينة، وقد يكون مشروعاً مشتركاً بين شركات التأمين والدولة. لكننا نستبق ما سيسفر أو لا يسفر عنه المستقبل.

يعني ذلك أيضاً **ضمان الدولة للمنافسة** (منع الاحتكار) بين شركات التأمين، وتوفير الشروط لتحقيق **تكافؤ الفرص بين الكيانات الاقتصادية** (عدم تفضيل شركة تأمين على غيرها) وتعطيل سيطرة فئة على مقاليد النشاط التأميني (الاندماج بين مجموعة من شركات التأمين للسيطرة على السوق لتعظيم أرباحها)، و**تدخل الدولة** عند فشل الشركات في أداء دورها (دور اضطراري ربما تلجأ إليه عند إفلاس شركة تأمين للحفاظ على حقوق حملة وثائق التأمين كما هو الحال بالنسبة للمودعين في المصارف). وقد يضاف إلى هذه السياسات **تدخل الدولة لتوجيه الإنفاق والاستثمار لتلبية حاجات اجتماعية** (وهو ما تمارسه الدولة من خلال الإنفاق العام الذي يخلق فرص جديدة لشراء التأمين، وتحديد مجالات استثمار صناديق التأمين، والسياسة الضريبية الخاصة بالنشاط التأميني ومنها عدم فرض ضريبة على عقود التأمين على الحياة لتشجيع الادخار، أو وثائق التأمين الصحي لتقليل الضغط على الخدمات الصحية التي تقدمها الدولة).

السياسة المالية

ما يهمنا من هذا الاقتباس (الفقرة 4 من دراسة د. حبيب) هو إبراز تأثير السياسة المالية والنقدية على النشاط التأميني، وهو لم يتوسع في عرضه "للسياسة المالية والنقدية ومعها التأمين" باعتبارها أدوات تنفيذية للسياسات الاقتصادية إذ أن دراسته ليست مكرسة للتأمين. ولعله يقدم تفصيلاً لوجهة نظره بشأنه في المستقبل.

ويبدو أن إقحام التأمين مع السياسة المالية والنقدية يعكس اهتمامه بالدور الاقتصادي للتأمين إذ يدرجه ضمن الأدوات التنفيذية للسياسات الاقتصادية. وموضوع السياسات الاقتصادية هو ما كان يشغل ذهنه عندما حاول تنظيم ندوة حول "السياسات الاقتصادية في العراق والخيارات البديلة."

نعرف بأن الأدوات الرئيسية في السياسة المالية تتضمن **الإنفاق الحكومي** و**الضرائب**، وكلاهما يؤثران على النشاط التأميني. وقد علقنا على ذلك تحت باب **إطار اقتصادي عام لتقييم دور التامين** في هذه الورقة، فالسياسة الضريبية تؤثر

على شراء التأمين (إن كانت هناك ضريبة على وثائق التأمين وهو ليس كذلك في العراق في الوقت الحاضر باستثناء رسم الطابع)، كما تؤثر على قدرة شركات التأمين في بناء احتياطياتها.

السياسة النقدية

تهدف السياسة النقدية إلى تحقيق استقرار نقدي داخلي (استقرار المستوى العام للأسعار من خلال التحكم بعرض النقد ومعدلات الفائدة وحجم الائتمان المصرفي للحد من التضخم) واستقرار نقدي خارجي (استقرار سعر الصرف)، وتوفير المتطلبات المالية للنشاط الاقتصادي. ويتدخل المصرف المركزي كلاعب رئيسي في سوق النقد للحفاظ على قيمة العملة الوطنية من خلال بيع وشراء القطع الأجنبي. تؤثر السياسة النقدية على النشاط التأميني كغيرها من الأنشطة الاقتصادية. واختصاراً نرى أن تدني سعر صرف العملة الوطنية، مثلاً، يعني زيادة كلفة شراء حماية إعادة التأمين من الخارج. كما أن التضخم الداخلي يؤدي إلى خسارة في قيمة موجودات شركات التأمين، وكذلك هبوط قيمة وثائق التأمين على الحياة (مدخرات المؤمن لهم) وتآكل قيمة الأموال المؤمن عليها وما ينشأ عنها من اختلاف في تسوية مطالبات تعويض الأضرار المادية بسبب التباين في مبالغ التأمين عند ابتداء التأمين وعند تسوية المطالبة.

سياسة جادة للتأمين وإعادة التأمين

يدعو الدكتور كاظم إلى تبني **سياسة جادة للتأمين وإعادة التأمين على نطاق البلاد كلها** تتناغم مع إستراتيجية التنمية الوطنية. ووصفه لهذه السياسة بالجادة يدل على عدم رضا، في رأينا، عن ما هو قائم وما يصدر من مواقف غير مدروسة من أعضاء الحكومة. لكنه لم يتوسع في شرح هذه السياسة. وهذا أمر مفهوم لأنه ليس معنياً هنا بالتأمين وإعادة التأمين بشكل مباشر سوى انتظامه ضمن إستراتيجية التنمية الوطنية.

ومن الضروري وضع هذه السياسة في إطار أوسع ونعني به السياسة الاقتصادية ويراد منها سلوك الحكومة في المجال الاقتصادي، وهي "تعبير عن **خيارات اجتماعية** (تشخيص ما هو مفضل على أساس أخلاقي أو سياسي أو غيره لتحديد هوية ما يعرف بالمصالح العامة أو المصالح الجماعية وصياغته كهدف اجتماعي عام) تترجم في **قرارات الحكومة** وتوضع قيد التطبيق من خلال **مؤسسات** معينة (السوق أو الإدارات والمؤسسات والشركات العامة) تنسجم مع الخيار المفضل. ويمكن القول أيضاً إن الخطط الخمسية ما كانت إلا تعبيراً عن سياسة اقتصادية، وعن موقف تجاه صيرورة الاقتصاد والمجتمع. " تبني سياسة اقتصادية، بضمنها سياسة للتأمين، مهمة حكومية لكن رسم سياسة التأمين يقع على عاتق مؤسسات التأمين (شركات التأمين وجمعيتها وديوان التأمين) ومن يمثل مصالح طالبي التأمين. ولأن أية سياسة للتأمين لها أبعاد اقتصادية واجتماعية يصبح من الضروري أن يهتم بها الاقتصاديون أيضاً. وقد قمنا بمحاولة غير مكتملة لوضع ملامح سياسة في دراستنا **"السياسات الاقتصادية في العراق والخيارات البديلة: قطاع التأمين نموذجاً"** [12] نقتبس منها الآتي:

"واختصاراً، فإن السياسة التأمينية، التي ندعو لها يمكن أن تتضمن معالجة العناوين التالية:

- دور الدولة المباشر وغير المباشر في النشاط التأميني: التأمين التجاري والاجتماعي.
- رسملة شركات التأمين العامة والخاصة.
- أطروحة خصخصة شركات التأمين ومدى الحاجة إليها ضمن الواقع الحالي للنشاط التأميني.
- الموقف من دور شركات القطاع الخاص والشركات الأجنبية في سوق التأمين العراقي.
- تكامل سوق التأمين العراقي: على المستوى الوطني الفيدرالي.
- تكامل سوق التأمين العراقي: على مستوى الخدمات النوعية التكميلية (خبراء تسوية الخسائر، خبراء تقييم الممتلكات العينية، الوساطة التأمينية).

- السياسة المالية وتأثيرها على دور التأمين في الاقتصاد الوطني."

وهذه العناوين تظل كذلك ما لم تترجم في دراسات معمقة رغم قيامنا بمحاولات نشرناها في ***مجلة التأمين العراقي***. رسم سياسة للتأمين يتطلب جهداً جماعياً وبمشاركة من عدة أطراف لها مصلحة في التأمين ومن يوفره وكيف وبأية كلفة. وأملنا أن يساهم الاقتصاديون في هذا المسعى.

إستراتيجية التنمية الوطنية في إقليم كردستان العراق والنشاط التأميني

بالنسبة لإستراتيجية التنمية في كردستان العراق، يقول د. حبيب بأنها يجب أن تتضمن:

أ اعتماد الموارد المالية المتأتية من تصدير النفط الخام والغاز الطبيعي في عملية التغيير الملحة لبنية الدخل القومي على صعيد الإقليم، وعلى صعيد العراق كله...

ب الاهتمام بتوفير مستلزمات إشباع الحاجات المادية لأفراد المجتمع من خلال تنفيذ سياسة تجارة خارجية عقلانية تساهم في توفير تلك الحاجات من جهة، ولكنها تساهم في تنمية الثروة الوطنية...

ج وهذا يعني .. توجيه هذه الموارد وتوزيعها على خمسة اتجاهات أساسية في المرحلة الراهنة:

أولاً: استكمال وتطوير وإنشاء مشاريع البنية التحتية ...

ثانياً: الصناعة: توجيه المزيد من الموارد المالية الحكومية لأغراض التنمية الصناعية..

ثالثاً: الزراعة: توجيه المزيد من الموارد المالية لإغراض التنمية الزراعية.

رابعاً: السياحة: توجيه المزيد من الموارد لأغراض التنمية السياحية...

خامساً: **البنوك وشركات التأمين**: يحتل هذان القطاعان أهمية استثنائية في الاقتصاد الكُردستاني باعتبارهما يمثلان بعض أهم الأدوات التنفيذية في السياسة المالية والنقدية للإقليم التي يفترض فيها أن تساهم في تنفيذ السياسات الاقتصادية لحكومة الإقليم. نعرف جميعاً بأن كُردستان بحاجة إلى: سلسلة من البنوك التابعة للقطاع الخاص المحلي والأجنبي ...

كما أن **اقتصاد الإقليم بحاجة ماسة إلى النشاط التأميني** الذي يمكن أن تنهض به شركات التأمين وإعادة التأمين التي تسهم في دعم النشاط الاقتصادي والتمويلي في الإقليم. وهي مؤسسات اقتصادية تساهم في عملية الادخار من جهة، وفي تعويض عمليات اهتلاك رأس المال الثابت والخسائر التي تتحملها الشركات والأفراد لأسباب مختلفة مثل الكوارث الطبيعية أو الحرائق أو السرقات أو الموت على سبيل المثال لا الحصر ...

ويتطلب قطاعا البنوك والتأمين وجود كوادر علمية وفنية مختصة تضع الأسس العملية والعلمية والفنية لإنشاء البنوك وشركات التأمين في كُردستان العراق وتطويرها وتحديد علاقتها ببغداد وبالعالم الخارجي ".

لنلاحظ أولاً أن د. حبيب يؤكد على توجيه الموارد النفطية وتوزيعها على خمسة فئات أساسية في المرحلة الراهنة، أي:

استكمال وتطوير وإنشاء مشاريع البنية التحتية، توجيه المزيد من الموارد المالية الحكومية لأغراض التنمية الصناعية الحديثة، توجيه المزيد من الموارد المالية لإغراض التنمية الزراعية والسياحية، وكذلك قطاع المصارف والتأمين.

جميع وجوه الإنفاق الاستثماري هذه لها مردودات على النشاط التأميني من حيث تعظيم الطلب على الحماية التأمينية، وهو ما أتينا على ذكره آنفاً (الربط بين الإنفاق الحكومي والطلب على التأمين). فكل مشروع إنشائي يحتاج إلى غطاء تأميني ضد مخاطر الإنشاء والمسؤوليات القانونية التي قد تنشأ عنها تجاه أطراف ثالثة. وحال تشغيل المشروع فإنه

يحتاج إلى تأمين ضد مخاطر التشغيل واحتمال توقف الإنتاج بسبب ضرر مادي وبالتالي خسارة الدخل المتوقع. وكذا الأمر بالنسبة للتنمية الزراعية التي تستدعي التأمين على تضرر المحاصيل بفعل البَرَد وآفات معينة واحتمال نفوق المواشي. كما أن المنشآت السياحية تحتاج إلى تأمين شامل يجمع بين احتمال تعرضها لأضرار وخسائر مادية ومالية ومسؤوليات قانونية. أما المصارف فهي تحتاج إلى تأمين يعرف باسم الوثيقة المصرفية الشاملة. وشركات التأمين نفسها تحتاج إلى تأمين مبانيها وموظفيها مثلما تحتاج إلى حماية محافظها من أقساط التأمين ضد تعرضها للخسائر الكبيرة (مطالبات التعويض من قبل المؤمن لهم) لدى شركات إعادة التأمين.

لنلاحظ ثانيا أن مردود الإنفاق الاستثماري على قطاع التأمين، من خلال تعظيم الطلب على التأمين للمشاريع تحت الإنشاء وقيد التشغيل، المتمثل بأقساط التأمين، يخضع لرسوم وضرائب تصب في خزانة الدولة الاتحادية أو حكومة الإقليم. وتشمل هذه ضريبة رسم الطابع على وثائق التأمين، رسم لصالح جمعية شركات التأمين وإعادة التأمين العراقية، ضريبة على دخل شركات التأمين. نلاحظ أن الدولة لا تفرض ضريبة على أقساط التأمين.

مثل هذه الرسوم والضرائب تزيد من كلفة شراء التأمين وبالتالي تؤثر سلبياً على الطلب الفعّال للتأمين. كما أن لجوء الدولة إلى فرض ضرائب عالية على دخل شركات التأمين، وربما مستقبلاً على وثائق التأمين، سيؤثر على حجم الاحتياطيات المالية لشركات التأمين لمقابلة مطالبات بالتعويض لم تخضع للتسوية النهائية بموجب وثائق تأمين سارية أو مطالبات قد تقع مستقبلاً.

والمعروف أن الإعفاءات الضريبية هي من الوسائل التي يمكن اللجوء إليها لتشجيع تنمية الطلب على وثائق التأمين على الحياة، إذ أن شركات التأمين على الحياة هي الأقدر على توفير مصادر ادخارية للأفراد وكذلك الاستثمار العيني.

التأمين: الحلقة الأضعف في الكتابات الاقتصادية

سيستمر التأمين أن يكون الحلقة الأضعف في الكتابات الاقتصادية العراقية واهتمامات الأحزاب والمسؤولين [13] وضمن معرفتنا المحدودة ما زال ذكر التأمين عند الاقتصاديين العراقيين مقتضباً لا يبرز المكانة الاقتصادية الذي يحتله في حماية الثروات الوطنية الخاصة والعامة وضمان ديمومة الإنتاج ومساهمته في التنمية الاقتصادية. وقد ذكرنا في هامش دراسة لنا أن:

"قطاع التأمين لا يرقى في أهميته إلى قطاع النفط المهيمن على تفكير الاقتصاديين العراقيين. وحتى العاملين في قطاع التأمين لم يدرسوا أهميته في المساهمة في الحفاظ على الثروات الوطنية (أي المساهمة في تجديد الأصول المتضررة من خلال تمويل التصليحات أو الاستبدال)، وكذلك دوره كوسيلة ادخارية فعّالة (وخاصة تأمينات الحياة)، والمساهمة في تكوين رأس المال، وإمكانية توفير فرص كبيرة للعمالة، وأخيراً دوره الحضاري في التقليل من النزاع الاجتماعي وتحويل عبء الاختلاف بين الأفراد إلى شركات التأمين (كما في تأمين المركبات). وبعبارة أخرى، فإن دور التأمين في التنمية الاقتصادية لم يلقَ ما يستحقه من عناية الباحثين " [14].

لعل هذا التعليل ليس كافياً لكنه يؤشر على إهمال، نظري وعملي، للأهمية الاقتصادية للتأمين. ومن المناسب أن ننظر إلى إغفال التأمين على أنه جزء من الإهمال العام للمسألة الاقتصادية مقابل تخمة في التعامل مع الشأن السياسي. يقول د. السعدي بهذا الشأن:

"وتكشف معطيات التجربة في فترة الاحتلال أن العملية السياسية أو المناقشات التي تتم بين الأحزاب والقوى السياسية لم تكن معنية بالأزمة الاقتصادية بشكل جدي كما يبرز في سلوكها وغياب برامجها السياسية خلال الانتخابات العامة، أو ضحالة مناقشاتها في مواد الدستور الاقتصادية، أو في الغياب الكامل للأزمة الاقتصادية في برامج الحكومات والتي كان فشلها في المجال الاقتصادي صارخاً ومؤلما "[15].

الأمل يظل قائماً لحصول نقلة نوعية في تفكير الأحزاب السياسية وفي صياغة برامج الحكومات في معالجة ما يسميه بالأزمة الاقتصادية، وهي مزمنة تتمثل في تدني معدلات النمو الاقتصادي والاستثمار العام والخاص وعدم تحسن مستوى

البطالة وعدم وجود توازن في التركيب القطاعي للناتج المحلي الإجمالي، وضعف الخدمات والتزايد السكاني، والطابع الريعي للاقتصاد الذي يعرضه للانكشاف والتأثر بحركة الأسعار العالمية وأسعار الصرف.

إن سوء إدارة الاقتصاد الوطني ومحدودية الوعي بالتأمين لدى الجمهور الأكبر من المواطنين، والشركات التجارية والصناعية الصغيرة، يسهمان في تراجع النشاط التأميني إضافة إلى عوامل أخرى كامنة في تنظيم شركات التأمين العامة والخاصة وافتقارها إلى الكوادر الفنية عالية التدريب والقدرات الإدارية. ترى هل أن ارتقاء مستوى النشاط في المستقبل وتوطين كيانات تأمينية أجنبية متطورة يوفر الأرضية للاهتمام بالحلقة الأضعف؟

لندن أب 2009 – كانون الثاني 2010

(1) صباح كمال، التأمينات الاجتماعية في العراق: قراءة لموقف الحزب الشيوعي العراقي (لندن: تشرين الثاني 2009)، ورقة لم تنشر بعد.

(2) إن مسحاً سريعا لمحتويات مجلة رسالة التأمين (متوقفة عن الصدور منذ ثمانينات القرن الماضي) سيؤكد ذلك. نأمل أن يقوم أحد الزملاء في قطاع التأمين بهذا المسح بالرجوع إلى أعداد المجلة المتوفرة في مكتبة شركة التأمين الوطنية في بغداد.

(3) أنظر الدراسة القيّمة لمروان هاشم "الدراسة الأكاديمية للتامين في العراق" المنشور في 2009/04/15 في مجلة التأمين العراقي الإلكترونية

http://misbahkamal.blogspot.com/2009/04/blog-post_15.html

(4) من باب المثال فقط نشير إل بعض من هذه الأطروحات الأكاديمية:

عبدا لزهرة عبد الله علي، إعادة التأمين وميزان المدفوعات في الأقطار النامية (جامعة بغداد، دبلوم عالي تأمين، 1975 (

حميد جاسم علوان، استثمارات قطاع التأمين مع دراسة تطبيقية ودورها في الاقتصاد العراقي (دبلوم عالي تأمين، 1978(

حسن عباس ضاحي، التضخم وأثره على التأمين على الحياة (جامعة بغداد، دبلوم عالي تأمين، 1982(

نسخ هذه الأطروحات متوفرة في مكتبة شركة التأمين الوطنية، بغداد.

(5) د. صبري زاير السعدي، التجربة الاقتصادية في العراق الحديث: النفط والديمقراطية والسوق في المشروع الاقتصادي الوطني (1951-2006) (بغداد ودمشق وبيروت: دار المدى، 2009)، ص 338.

(6) د. صبري زاير السعدي، مصدر سابق، ص 340.

(7) راجع على سبيل المثال: مصباح كمال، " نزيف أقساط التأمين في العراق" مجلة التأمين العراقي (2009/2/23(

http://misbahkamal.blogspot.com/2009/02/blog-post_23.html

(8) عادل مهدي "مفاوضات بين العراق وصندوق النقد لتطوير المالية العامة والقطاع المصرفي" جريدة الحياة، 27 سبتمبر 2009.

(9) مصباح كمال، "السياسات الاقتصادية في العراق والخيارات البديلة: قطاع التأمين نموذجاً"، الثقافة الجديدة، العدد333-334، 2009، 80-91.

(10) وهو تطور رصده الاقتصادي الماركسي بول سويزيPaul Sweezy (1910-2004) منذ سبعينات القرن الماضي في العديد من مقالاته المنشورة في مجلة Monthly Review http://monthlyreview.org/ والتي نشرت فيما بعد ككتب مع زميله هاري ماگدوف أحدها كتابStagnation and the Financial Explosion الذي نشر في أواسط ثمانينات القرن الماضي. وفيها نتعرف على مفهوم " الأمولة financialisation ".

(11) " برهم صالح وإعادة رسملة وتحديث قطاع التأمين العراقي "

(http://misbahkamal.blogspot.com/2009/05/blog-post_20.html)

(12) الثقافة الجديدة، العدد 333-334، 2009.

(13) كتبنا غير مرة عن تصريحات المسؤولين ويمكن مراجعتها في مدونة مجلة التأمين العراقي ومنها:

"نزيف أقساط التأمين في العراق: مناقشة لتصريحات وزير التخطيط والتعاون الإنمائي" (2009/02/23(

http://misbahkamal.blogspot.com/2009_02_01_archive.html

"د. برهم صالح وإعادة رسملة وتحديث قطاع التأمين العراقي" (2009/05/20(

http://misbahkamal.blogspot.com/2009/05/blog-post_20.html

"نقد "مؤتمر التأمين" وتصريحات وزير المالية" (2009/07/19)

http://misbahkamal.blogspot.com/2009/07/28-2009.html

(14) مصباح كمال "التأمين في العراق وعقوبات الأمم المتحدة" مدونة مجلة التأمين العراقي الإلكترونية.

http://misbahkamal.blogspot.com/2008/06/2002-73-96.html (13/06/2008)

نشرت هذه الدراسة تحت نفس العنوان كفصل في كتاب جماعي بعنوان دراسات في الاقتصاد العراقي (لندن: المنتدى الاقتصادي العراقي، 2002)، ص 73-96.

(15) د. صبري زاير السعدي، مصدر سابق، ص 405.

*****

الحزب الشيوعي العراقي 1934 – 1949 " دراسة تاريخية "

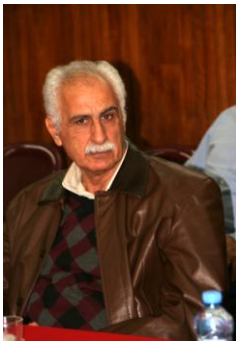

عرض وتعليق: د. صالح ياسر

الحزب الشيوعي العراقي 1934 – 1949 " دراسة تاريخية " هو عنوان أطروحة أكاديمية مقدمة الى مجلس كلية التربية – الجامعة المستنصرية باعتبارها جزءاً من متطلبات نيل درجة **الدكتوراه في التاريخ الحديث** من قبل الباحث **مؤيد شاكر كاظم الطائي** وبإشراف أ.د. موسى محمد طربوش، ونوقشت في عام 2007.

إشكالية الدراسة وإطارها الزمني ومبرراته

جعلت الدراسة الفترة الممتدة بين **1935** (تاريخ تأسيس الحزب، حسب الباحث) و **1949** (وهو تاريخ إعدام الرفيق فهد) إطارا زمنيا لها.

ويعتبر الباحث هذه الفترة " *مرحلة قائمة بنفسها، شهدت تأسيس الحزب، ونشاطا سياسيا وفكريا ملحوظا له، وتوسع في تنظيماته الشعبية، وصولا الى تعدد مواقفه من القضايا السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية وإعدام الشخص القيادي الأبرز صاحب الفضل في تأسيس الحزب وتوسعه وتثبيت أركانه، والشخصية الشيوعية الألمع في تاريخ العراق حتى يومنا هذا، وجاء التوقف عند عام 1949 كون المرحلة اللاحقة تصلح لان تكون دراسة منفصلة لا سيما بعد ثورة 1958*".

أما **لماذا اختار الباحث الحزب الشيوعي العراقي كمادة للبحث** في الإطار التاريخي فهو "*لما يملكه هذا الحزب من تاريخ طويل وتعدد أنشطته ومواقفه من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكون الموضوع لم يدرس دراسة أكاديمية جامعية، على الرغم من تعدد الكتب التي تناولت تاريخ الحزب الشيوعي العراقي* " (ص 1)

وطرح الباحث على نفسه **جملة أسئلة** سعى من خلال الفصول الأربعة للأطروحة الإجابة عليها **بروح حيادية وموضوعية** كما قال. ومن بين تلك **الأسئلة** ما يلي:

- **كيف ومتى أُسس** الحزب الشيوعي العراقي؟
- **ما هي ابرز أنشطته ومواقفه** السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟
- **وما هو مدى ارتباطه بالشيوعية العالمية** واثر ذلك في مواقفه من القضايا المحلية والعربية والدولية؟
- **ما هي طبيعة علاقته بالحركة الوطنية العراقية؟**
- وغيرها من الأسئلة العديدة التي تناولتها صفحات الأطروحة المعروضة هنا.

الصعوبات التي واجهت الدراسة

واجهت الدراسة، بحسب الباحث، جملة من الصعوبات من بينها (ص6):

- **الطبيعة السرية لعمل الحزب** التي ولدت صعوبة الحصول على صحفه وأدبياته بأكملها وصعوبة الحصول على المعلومات الكاملة لأعضائه والإحصائيات الدقيقة لحجمه التنظيمي.
- **حالة الفلتان الأمني التي يمر بها العراق،** إذ حرمت الباحث الاستفادة من العديد من المصادر والوثائق فضلا عن المقابلات الشخصية التي كان من المؤمل إجراؤها في بغداد وكردستان.
- عانى الباحث من عملية **تغيير الأستاذ المشرف** على هذه الأطروحة إذ كانت عملية طويلة أضاعت من الباحث عدة اشهر.

بنية الدراسة

تتألف الدراسة من **أربعة فصول وخاتمة ومجموعة من الملاحق** فضلا عن **المقدمة** التي تستهدف توضيح **أهمية** مادة الأطروحة وتحديد أهم مضامينها.

الفصل الأول (ص 8 – 84) الموسوم: ***تكوين الخلايا الماركسية ونشاطها الفكري والسياسي حتى عام 1935***، يضم **خمسة محاور**، أعده الباحث ليكون **مدخلا تمهيديا** للموضوع حيث تناول بشكل مركز **أهداف** الماركسية ومفهومها، **وطرق** دخول الماركسية الى العراق، ثم **تكوين الماركسية** والنشاط السياسي والفكري لهذه الخلايا حتى توحيدها.

هنا في هذا الفصل **استنتاجان جديران بالإبراز** وهما:

1. *" إن ظهور التنظيمات الشيوعية في البلدان العربية جاء نتيجة دعم الكومنترن، فضلا عن الدور الذي أدته الجاليات الأجنبية في نشر الفكر الماركسي..... مع ملاحظة أن الفكر الماركسي ما كان ليجد له مكانا في الوطن العربي لولا تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في اغلب بلدانه آنذاك "*.
2. أما بشأن انتشار الأفكار الماركسية في العراق، فيشير الباحث الى انه " لم يلاحظ من المصادر التي تم الإطلاع عليها أي دور للكومنترن في نشرها، سواء بتكليف أشخاص أو تشجيعهم أو إسنادهم ماديا أو معنويا .....ظهر الفكر الماركسي في العراق بشكل أو بآخر من خلال وجود خلايا ماركسية في عدد من المدن العراقية، مارست نشاطا فكريا وسياسيا) (ص34، 37). هذا الاستنتاج مهم إذ انه يُرجع نشوء هذه التنظيمات الى **عوامل داخلية** (تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية) (ص 33-34) أي **نتاج التربة المحلية** وليس كما روجت له بعض الأوساط من أن النشوء **نتاج عوامل خارجية**.

وفي معرض تتبعه لتاريخ انتشار الأفكار الماركسية في العراق يشير الباحث الى أنها دخلت **متأخرة** قياسا الى مصر وسوريا ولبنان وفلسطين. وعند بحثه عن **أسباب التأخر** يرجح الباحث الأمر الى " *أن ذلك مرتبط بطول الهيمنة العثمانية وعمقها في العراق التي ولدت حالة من التخلف الشامل الذي ساد البلاد قرونا من الزمن* " (ص 37).

أما **الفصل الثاني (85 – 137)** والذي ظهر تحت عنوان: ***تأسيس الحزب الشيوعي العراقي ونشاطه السياسي والفكري حتى حزيران 1941***، فقد تضمن **أربعة محاور** وتركز على **تحديد تاريخ الحزب** حيث يعرض **المقاربات المختلفة** بشأن تحديد تاريخ التأسيس (الذي تأرجح بين 1934 و 1935)، ونشاطه السياسي منذ تأسيسه وحتى حزيران 1941 وهو تاريخ الاحتلال البريطاني الثاني للعراق، حيث تولي فهد قيادة الحزب بشكل مباشر، وموقف الحزب من انقلاب بكر صدقي ووزارة حكمت سليمان. وليس الباحث وحده من آثار هذه النقطة (الاختلاف بشأن تاريخ التأسيس) بل كان الباحث المعروف عزيز سباهي في كتابه (***عقود من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي***) قد أثار هذه النقطة، الأمر الذي يعني أنها تحتاج الى مزيد من الدراسات لتوثيق التاريخ الفعلي دون أن يعني ذلك التقليل من 31/آذار/1934 كموعد رسمي للتأسيس.

وبعد عرض تفصيلي لجوانب مختلفة من نشاطات الحزب خلال هذه الفترة العاصفة والمتناقضة توصل الباحث الى **استنتاج مهم** قوامه (*أن الحزب تميز باندفاع في العمل السياسي في الأوساط الشعبية في ظروف الرقابة الصارمة التي فرضتها وزارة ياسين الهاشمي على الصحف وعمل الأحزاب السياسية، ومع ملاحظة قلة إمكانياته وتواضعها، فقد عمل قدر الإمكان على التوغل بين صفوف الجماهير وترجمة أهدافه في إشعال ثورة العمال والفلاحين التي يدعو إليها، في الوقت الذي وجدت فيه نقاط ضعف كثيرة أدت الى وضع نهاية لأول لجنة مركزية للحزب لم يمض على تأسيسها سوى بضعة أشهر*) (ص 105).

وبالمقابل لعبت جريدة "***كفاح الشعب*** " رغم تواضع إمكانياتها، دورا مهما في نشاط الحزب على الصعيد الفكري خلال هذه الفترة. فقد ضمت الجريدة " *موضوعات متنوعة سياسية واقتصادية واجتماعية..... وأبرز ما تناولته الجريدة من موضوعات سياسية، هجومها على وزارة ياسين الهاشمي الثانية، فقد وصفتها بأنها وزارة تجسس ورجعية سوداء*" (ص 110).

ومن جانب آخر **شجبت** الجريدة طريقة إجراء الانتخابات النيابية في البلاد ووصفتها " بالمهازل الانتخابية التي تزيد من جرم الحكومة وظلمها ". **ونددت** الجريدة بالوجود البريطاني في العراق، **وطالبت** بإلغاء المعاهدة العراقية – البريطانية لعام 1930 مع بريطانيا، ومصادرة ما يملكه البريطانيون من مصارف وحقول نفط وسكك حديد.

وكان للجريدة موقف ايجابي من القضية الكردية، إذ كانت ترى وجوب منح الأكراد حقهم في الاستقلال وتقرير المصير (ص 110).

أما بشأن **السياسة العربية** فقد **احتجت** الجريدة باسم عشرات آلاف عمال وفلاحي العراق على سياسة بريطانيا الاستعمارية تجاه شيوعيي فلسطين بالتضييق على نشاطهم واعتقالهم وعدم تنفيذ مطالبهم بإطلاق سراحهم بممارسة النشاط السياسي العلني، على الرغم من إضرابهم في السجن.

وعلى صعيد **السياسة الدولية** هاجمت "***كفاح الشعب*** " الحكم النازي الألماني والفاشي الايطالي، ..... وهاجمت سياسة الاستعمار البريطاني في العالم المبنية على أساس سياسة " فرق تسد ". وفي الوقت الذي هاجمت فيه السياسة البريطانية، اثنت على السياسة السوفيتية بعد قيام الثورة البلشفية التي حررت الأقليات القومية والشعوب الضعيفة التي كانت تحت الحكم القيصري حتى أصبحت جمهوريات عمال وفلاحين سوفيتية مساوية لروسيا نفسها (ص111).

وفي الشأن الاقتصادي والاجتماعي، تحدثت الجريدة عن **حتمية الصراع** بين العمال ومستغليهم الرأسماليين وانتقدت نظام الاقتصاد الرأسمالي وما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية إبان الأزمة الاقتصادية العالمية (1929 – 1933) (ص 112).

في حين ضم **الفصل الثالث** المعنون: ***<u>التطورات التنظيمية في الحزب الشيوعي العراقي (حزيران 1941 – 1949)</u>*** **خمسة محاور، ويهدف** لبحث مجمل التطورات التنظيمية التي شهدها الحزب خلال الفترة 1941 وشباط 1949، تاريخ إعدام الرفيق فهد. في هذا الفصل يستعرض الباحث **الواجهات العلنية** التي أسسها الحزب سعيا منه لممارسة النشاط السياسي العلني، فضلا عن نشاط الحزب بين المنظمات الشعبية والعسكرية وأخيرا محاكمة فهد وإعدامه.

كما يستعرض الباحث مفصلا **الانشقاقات** التي حصلت في صفوف الحزب (جماعة الأماميون، جماعة الشراريون الجدد، جماعة وحدة النضال، رابطة الشيوعيين العراقيين، جماعة الحقيقة) وموقف الحزب منها والذي تمثل بكتابة فهد لكراسه المعروف " ***حزب شيوعي لا اشتراكية ديمقراطية*** " حيث حاول فيه **توضيح أسباب ظهور الانشقاقات، وعزاها** فضلا عن الظروف الموضوعية للحزب، الى ظروف البلاد السياسية والاجتماعية، وظروف الطبقة العاملة التي لم

تمض مدة طويلة على خروجها من مراتب البرجوازية الصغيرة، ولا زال تفكيرهم اقرب الى البرجوازية منه الى البروليتاريا فضلا عن قلة الكادر الحزبي المتقن للنظرية الثورية وتطبيقاتها. وأشار فهد الى أن سبل مواجهة الانشقاقات ليس بإبعاد المنشقين فحسب، بل وجوب محاربة أفكارهم المتقاطعة مع الفكر الشيوعي كي لا تنتشر، وان ظهورها من جديد وانتشارها يعني ضياع الأمل في تطور الحركة الثورية.

وإضافة لذلك فان أوضاع العراق المتوترة أبان الحرب العالمية الثانية، قد **استدعت** تحديد أدق واشمل لأهداف الحزب وسياسته الأمر الذي تطلب **عقد مؤتمرة الوطني الأول** وذلك في أوائل آذار 1944. ناقش المؤتمر المذكور **أربعة تقارير** هي:

- **تقرير حول الوضع السياسي** وبعنوان **" قضيتنا الوطنية "** ألقاه الرفيق فهد.
- **تقرير حول أهمية العمل الحزبي في أوساط الشباب من العمال والطلبة** وكيفية كسبهم للعمل الحزبي، ألقاه الرفيق زكي بسيم.
- **تقرير حول الجانب الثقافي** وضرورة التسلح بالماركسية – اللينينية ألقاه الرفيق حسين محمد الشبيبي.
- **التقرير الرابع** ألقاه الرفيق فهد وتحدث فيه حول **قرار حل الأممية الثالثة في ايار 1943**.

كما **أعقب** قراءة التقارير مناقشة المؤتمر لمسودة **" الميثاق الوطني للحزب "**.

*وفي معرض تقييمه لهذا المؤتمر يتوصل الباحث الى **استنتاج** يقول فيه " أن الحزب الشيوعي العراقي هو أول الأحزاب السياسية في العراق التي استندت الى برنامج سياسي عملي في نضاله من اجل السيادة والاستقلال قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية. فضلا عن أن الحزب الشيوعي..... كان الرائد بين الأحزاب السياسية الأخرى في العراق المعاصر الذي اعترف بحق تقرير المصير للشعب الكردي..... كما تضمن الميثاق إشارة واضحة للاهتمام بحياة المواطن اقتصاديا وقدم معالجات موضوعية لهذه الجوانب..... كما حاول التصدي لسلب الأراضي الأميرية من قبل الإقطاعيين عن طريق التفويض واللزمة .....، وضرورة التنظيم النقابي لكل من العمال والفلاحين، واهتم بالجانب الثقافي لعامة الناس وبخاصة التعليم مؤكدا ضرورة المساواة بين النساء والرجال في هذا المجال "* (ص 144).

كما يقدم الباحث **عرضا مفصلا** لمفردات النظام الداخلي للحزب، ثم يستعرض أسماء أعضاء اللجنة المركزية الجديدة التي انتخبها المؤتمر.

وكان لانعقاد **المؤتمر الوطني** وما توصل إليه من وثائق وخطة عمل صدى طيبا إذ أدى الى **تصاعد نشاط الشيوعيين**، حيث يشير الباحث الى **زيادة عدد أعضاء الحزب** من (1000) عضو عام 1942 الى (3000 – 4000) عضو حتى أوائل عام 1948، وفضلا عن الزيادة العددية هذه ووجود قيادة الحزب المركزية في بغداد (ص 153).

غير أن **تنامي** نشاط الحزب وتوسع تنظيماته آثار اهتمام وانتباه رجال الأمن، كما يشير الباحث، الأمر الذي أدى الى **بدء حملة بوليسية واسعة** لمراقبة الشيوعيين **ثم** الى اعتقال العديد من رفاق الحزب وقادته حتى **تُوجت** تلك الحملة بإلقاء القبض على الرفيق فهد وإعدامه فيما بعد.

وبحسب الباحث فان اعتقال فهد كان *"ثمنا باهضا عن المكاسب الكبيرة التي حققها الحزب في الانتشار بين الأوساط الشعبية والمثقفة، لذا مثل ذلك الاعتقال خسارة كبيرة للحزب توازي جميع تلك المكاسب، لأنه حرم الحزب من قائد كان من الصعب تعويضه في المدد اللاحقة في تاريخ الحزب "* (ص 155).

ويعطي الباحث اهتماما لمسعى الحزب الشيوعي العراقي الى **ممارسة النشاط السياسي العلني** ومحاولاته لكسر الطوق الذي كانت تفرضه عليه الأنظمة الحاكمة والملاحقات التي تعرض لها مناضلوه مما كان يدفعه الى اللجوء الى العمل

السري. ولم يكن الشيوعيون عشاقا لهذا الطريق بل أن إجراءات الملاحقة والسجن والتعذيب للمناضلين هو ما كان يدفع الحزب الى هذا الخيار.

يشير الباحث الى أن الشيوعيين حاولوا "*في أواسط عام 1941 للحصول على إجازة حزب علني لا يحمل اسم الحزب الشيوعي، ليكون واجهة لهم لمزاولة نشاطهم السياسي بصورة علنية، فأوعز فهد الى عبد الله مسعود القريني ليقدم طلبا الى وزارة الداخلية لتأسيس حزب باسم* ***(حزب الوحدة الوطنية العراقي)*** ". ولكن الوزارة **رفضت** الطلب وأقدمت على اعتقال القريني وإرساله الى سجن الفاو. وتكررت محاولة الحزب ثانية بعد انبثاق حكومة نوري السعيد الثامنة (25 كانون الأول 1943 – 3 حزيران 1944)، حيث تم تقديم طلب إجازة تأسيس حزب سياسي باسم " **حزب الشعب** " وذلك في 27 نيسان 1944.

وبإيعاز من فهد تقدم حسين محمد الشبيبي ومحمد حسين أبو العيس وسالم عبيد النعمان وآخرون طلبا بتاريخ 22 أيلول 1945 لتأسي حزب باسم " **حزب التحرر الوطني** " وأرفقوا معه برنامج الحزب ونظامه الداخلي، الذي وضعه فهد كما يذكر سالم عبيد النعمان. ولكن نشاط هذا الحزب لم يكن بعيدا عن أنظار الحكومة نظرا لما قام به من نشاط بارز في أوساط الطلبة والعمال، فقامت باعتقال رئيس الهيئة المؤسسة **حسين محمد الشبيبي** في تشرين الأول 1945.

كما يتضمن هذا الفصل **استعراضا مفصلا لنشاط الحزب الشيوعي بين المنظمات الشعبية والعسكرية** (ص 204 ولاحقا). ويختتم الفصل بمحاكمة أعضاء الحزب وإعدام قادته: **فهد وحازم وصارم**.

وبالمقابل فقد ظهر **الفصل الرابع** والأخير تحت عنوان: ***موقف الحزب الشيوعي العراقي من القضايا الداخلية والعربية والدولية ((حزيران 1941 – 1949)*** وتناول الجوانب الثلاثة: الداخلية و العربية والعالمية. وقد **كرس** الباحث هذا الفصل **لدراسة مواقف الحزب من القضايا السياسية، والاجتماعية، والاهتمام بحالة الشعب الاقتصادية والاجتماعية، وموقف الحزب من القضايا العربية والدولية**.

وتعرض الباحث، بالتفصيل، الى **رؤية الحزب للعمل الجبهوي** ومسعاه الدائب للتوصل الى **بناء جبهة موحدة** لكن محاولاته أخفقت لتحقيق هذا الهدف. وفي **محاولته لتفسير هذا الإخفاق** يرى الباحث أن في مقدمة **أسباب** هذا الإخفاق هو "*الخلاف الإيديولوجي الكبير بين هذه الأحزاب..... فضلا عن الخلافات الشخصية بين زعماء هذه الأحزاب، وحرص كل واحد منهم على حصر زعامة العمل الجبهوي بيده، .....، والتخوف الذي خلقته الأجهزة الأمنية لدى الأحزاب الأخرى من النشاط الشيوعي في البلاد مما أبعدها عن العمل مع الشيوعيين مهما كانت أهمية هذا العمل ووطنيته* " (ص 278).

كما توقف الباحث عند **مواقف** الحزب من **جملة من القضايا الاقتصادية – الاجتماعية** المحلية، هذا إضافة الى مواقفه من **القضايا العربية** (الوحدة العربية والقضية الفلسطينية) ، والعلاقات العراقية – البريطانية والعلاقات العراقية السوفيتية، وموقف الحزب من الحرب العالمية الثانية والقضايا الدولية الأخرى.

أما **خاتمة الأطروحة** فقد ضمت أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج في ضوء محتويات الأطروحة. في حين تضمنت **ملاحق الأطروحة** نشر الوثائق المهمة المتعلقة بتاريخ الحزب الشيوعي العراقي.

النتائج التي توصل إليها الباحث

بعد العروض التفصيلية في الفصول الأربعة، توصل الباحث الى **جملة من الخلاصات والنتائج المهمة** تمثلت في ما يلي (ص 327 ولاحقا):

1. **بفعل مجموعة من التأثيرات الفكرية، العربية والإقليمية والدولية، وبجهد محلي صرف أسست أولى الخلايا الماركسية في العراق.** وكان للاختلافات الفكرية لأعضاء هذه الخلايا والتباين في التوجه والفارق وان كان ضئيلا في المستوى المعاشي لكل من هذه المدن، أثره الواضح في طبيعة عمل ونهج وممارسة كل من هذه الخلايا. فبينما عرفت الخلايا الماركسية في بغداد بالتركيز في عملها على النشاط الفكري بالدرجة الأولى مع بعض الإسهامات في النشاطات السياسية، عرفت خلايا الجنوب بممارستها للعمل السياسي بالدرجة الأولى أكثر من العمل الفكري وهذا ما يفسر لنا محاولاتها استخدام الجماهير في نشاطها ضد الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم في البلاد أوسع من الخلايا التي ظهرت في بغداد.
2. **إن الحاجة الى توسع نشاط الخلايا وتوحيد قواها كان عاملا مهما في تعارف هذه الخلايا على بعضها، وقد أدى الشيوعي المعروف يوسف سلمان يوسف " فهد " دورا بارزا في هذا المجال،** وتوج جهوده في تأسيس الحزب الشيوعي العراقي في 8 آذار 1935، ليكون أول حزب سياسي يساري سري معارض للأوضاع السائدة وللحكم القائم في البلاد آنذاك..... ومع أن الحزب ومنذ البداية قد تبنى شعارا يفوق وضعه وحجمه التنظيمي.....، فان حماس هؤلاء الأفراد قد اثر في العديد من فئات المجتمع لينطلق الحزب في عمل الكسب الجماهيري وقيادة مجموعة من الإضرابات العمالية والمساهمة بإضرابات فلاحية أخرى.
3. **بالرغم من قلة الخبرة لدى الشيوعيين الأوائل في ممارسة النشاط السياسي ووجود الخلافات الفكرية، إلا أن هذا التنظيم ورغم بساطته اقلق نظام الحكم،** الذي بدوره عبر عن قلقه هذا بإصدار قانون العقوبات البغدادي عام 1938.
4. **امتاز الشيوعيون بسمة الإصرار في ممارسة العمل السياسي والتنظيم السري التي كانت كفيلة بعودة التنظيم والنشاط الشيوعي في العراق في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات لا سيما بعد عودة فهد،** الذي بدأ بإعادة بناء الحزب على أسس قوية ومتينة حقق من خلالها نجاحات باهرة، حيث بدأت مرحلة بناء جديدة مستمرة في تنظيمات الحزب لم توقفها مجموعة الانشقاقات التي تعرض لها الحزب في مرحلة بنائه الأولى والتي كادت تنهي وجوده. الأمر الذي كان له الأثر في بروز الحزب أكثر على الساحة السياسية ومد نفوذه بشكل أعمق داخل مختلف فئات المجتمع من العمال والفلاحين والنساء والشباب والطلاب والعسكريين. وقد أصبحت هذه الفئات الروافد الأساسية لمد الحزب بأعضائه وبخاصة بعد النضالات الباهرة التي قادها الحزب بينها والتي أخذت شكل مجموعة مظاهرات وإضرابات كان غرضها الأساس إنصاف هذه الفئات وتحقيق مطالبها العادلة مما كان له الأثر البارز في تعزيز ثقة الجماهير بالحزب، وعلى الرغم من مواجهة السلطة القائمة هذه الأنشطة بمختلف الأساليب الصارمة إلا أن البنية الأساسية للحزب كانت في نمو مستمر إبان قيادة فهد له.
5. **كان جميع أعضاء الحزب الشيوعي، بمن فيهم فهد، أبناء للبيئة العراقية ونتاج لها، على ما انطوت عليه تلك البيئة من تناقضات سياسية واقتصادية واجتماعية، فكان طبيعيا أن يأتي الحزب، بأهدافه وشعاراته، معبرا عن تلك البيئة بكل تناقضاتها المذكورة.** وينبغي أن يؤخذ بالحسبان أن عددا غير قليل من أولئك الأعضاء كان من أصول فلاحية وعمالية، بغض النظر عن التفاوت فيما بينهم في الثقافة الماركسية.
6. **حققت قيادة فهد للحزب الشيوعي العراقي مكاسب عديدة كان من الصعب تحقيقها في ظل نظام حكم صارم عانت منه الأحزاب العلنية الأقل راديكالية وثورية من الحزب الشيوعي العراقي.** لذا كان من الطبيعي أن يشعر الشيوعيون بحالة الضياع بعد اعتقال هذه القيادة في أوائل عام 1947 وما يؤكد ذلك ما تولى على الحزب من قيادات ولجان مركزية لم تستطع ملء الفراغ الذي خلفه اعتقال فهد، .... ، واتسمت معظم إجراءاتها بعدم الواقعية والاندفاع الزائد والصبيانية.
7. مثلما حملت شخصية فهد جميع هذه الايجابيات فإنها لم تخل – بحسب الباحث – من الجوانب **السلبية** وأولها عدم المرونة والفردية والتصلب وفقدانه الحوار في التعامل مع الآخرين والتمسك الأعمى بالتعاليم الماركسية – اللينينية.
8. **كان الارتباط الاممي، بحسب الباحث، صاحب التأثير الكبير** في اتخاذ الحزب مواقفه من القضايا السياسية الداخلية والعربية والدولية.
9. **إن تاريخ الحزب هو جزء لا يتجزأ من تاريخ العراق المعاصر،** لذا فانه إذا انطوى تاريخ الحزب على ما يعتقد أنها سلبيات ومآخذ فينبغي أن ينظر إليها في ضوء ما انطوى عليه تاريخ البلاد نفسه من سلبيات ومآخذ كثيرة،

في ضوء الوجود الأجنبي وتأثيراته وحدود المرونة التي كانت عليها الحياة السياسية العراقية ونظرة الوزارات العراقية المتعاقبة الى الشيوعية عامة والحزب خاصة.

10. **امتلك الحزب الشيوعي العراقي جميع أدوات النضال المطلوبة والمؤثرة، وهي أدوات اتسمت وطبيعة تلك المدة الزمنية المحدودة والتطور البسيط الذي بلغه المجتمع**. وقد تمكن الحزب من استخدام جميع هذه الأدوات في ظل قيود وظروف لم تكن سهلة في الغالب. أما مدى نجاح الحزب في تحقيق أهدافه فينبغي أن ينظر إليه في ضوء تلك القيود والظروف بما فيها ظرفي الزمان والمكان، وموقف الحكومات المتعاقبة منه، ومدى تعاونه مع الأحزاب الأخرى وتعاونها معه وانسجامها مع أهدافه وشعاراته.
11. **كشفت محاكمة فهد ومن معه من الشيوعيين عن إصرار وجرأة في ضرورة مزاولة العمل السياسي والنشاط الشيوعي حتى لو كلفهم الأمر خسارة حياتهم، وتمسك بالنضال الوطني لإسقاط نظام الحكم وتغيير الوضع القائم في البلاد**. ولا بد من القول – حسب الباحث – **أن إلقاء القبض على فهد ثم إعدامه كان قد شكل خسارة كبيرة لشيوعيي العراق**، اثر ليس على الحزب فحسب بل حتى على الحركة الوطنية في العراق، كونه كان قطبا مهما في الحركة الوطنية ضد الحكم القائم آنذاك، إلا انه **في الوقت نفسه لم يضع هذا الإعدام نهاية النشاط السياسي للشيوعيين**، الذين سرعان ما استطاعوا جمع شتاتهم والعودة الى ميدان العمل السياسي.

بعض الملاحظات على الأطروحة

تتيح القراءة التفصيلية للأطروحة، التي عرضت فصولها والنتائج التي توصلت إليها، بلورة جملة من الملاحظات التي لا تقلل بأي حال من الجهد الذي بذله الباحث فهو مبثوث في مختلف جوانب العمل، ومن بينها:

- **عنوان الأطروحة** يشير الى أنها **" دراسة تأريخية "**، ولكن الباحث لا يشير الى **المنهج** الذي اعتمده. فثمة العديد من التيارات المنهجية ضمن المقاربة التاريخية، وكان من الضروري من الناحية المنهجية أن **يشخص** الباحث ذلك ليتسنى للقارئ (وأيضا الناقد) محاكمة النص واستخلاص الاستنتاجات المطلوبة في ضوء محاكمة المنهج المعتمد والمنهجية المستخدمة. ومثل هذه المقاربة تتيح الإجابة على جملة قضايا:
  - **معرفة الأسس الاقتصادية- الاجتماعية والسياسية والثقافية** لتناقضات المجتمع في الفترة موضوعة البحث.
  - **تقدير أبعاد حركة وتطور** العمل الحزبي والسياسي.
  - **تقدير الطبيعة التأريخية** للجوانب الثقافية والإعلامية في علاقتها مع طبيعة العمل الحزبي في التقرير والصياغة وفي التأثير السياسي جهة جمهور معين.

لكونه مهتم بالبحث التأريخي أساسا فان الباحث وقع في إشكالية منهجية تتمثل في **عدم التمييز** بين مفهومي (**الشيء**) و (**السلعة**) (ص 15) حيث كتب قائلا (.... نظرية **" فائض القيمة** "..... بيّن فيها ماركس أن قيمة الشيء تتحدد بقيمة العمل اللازم لإنتاجه). الصحيح أن **ماركس** عند إنتاجه لمقولة (فائض القيمة)، انطلق من تحليل مجتمع رأسمالي **تتحول** فيه الأشياء الى سلع، وبالتالي فان **قيمة السلعة** (وليس " قيمة الشيء " كما يقول الباحث) تتحدد بكمية العمل الضروري اجتماعيا لإنتاجها. كما لم يميز الباحث من جهة ثانية بين مقولتي: (**العمل**) و (**قوة العمل**). **فالعمل** هو قبل كل شئ ذلك **النشاط الإنساني الواعي والهادف الى إنتاج الخيرات المادية**. فالناس لا يجدون في الطبيعة كل ما يحتاجون إليه في صورة جاهزة، لذلك يصبح لزاما عليهم أن **ينتجوا** الخيرات الضرورية للحياة. **وبالتأثير** في الطبيعة **ينمي** الناس قدراتهم، **ويكتسبون** معارف جديدة. إن **العمل هو صفة طبيعية خالدة والشرط الأساسي لحياة الإنسان**. **العمل** هو فعل ونشاط، إضافة الى كونه علاقة، علاقة مزدوجة حيث يوحد بين الإنسان والطبيعة من جهة، كما يوحد الناس فيما بينهم من جهة ثانية (علاقة العامل بالرأسمالي، أو علاقة العمال فيما بينهم). أما **قوة العمل** فهي **قدرة الإنسان على العمل**. ولهذا **تتحدد** قيمة قوة العمل **بوسائل المعيشة الضرورية لوجود العامل**.

إن **قيمة جميع وسائل معيشة العامل** تحددها **نفقات العمل الضروري اجتماعيا لإنتاجها**. وهذه النفقات هي التي **تكوّن قيمة قوة العمل**.

وكتب الباحث هنا في معرض عرضه لنظرية فائض القيمة وكيف ينتج وما هو مصدره مشيرا لهذه القضية كما يلي: (وبذلك يستأثر وحده بالفرق بين الأجر الذي يدفعه وبين قيمة إنتاج العمل وقد أطلق على هذا الفرق اصطلاح " فائض القيمة"). والصحيح هنا **إعادة إنتاج قوة العمل** وليس العمل ذاته.

- ثمة استنتاج طرحه الباحث ويقول فيه انه (*يتضح مما تقدم من استعراض لأبرز أفكار ماركس، انه قد بنى الكثير من آرائه على وقوع الأزمات والدورات الاقتصادية بوصفها* ***ظاهرة حتمية*** *بينما اثبت الواقع مع تقدم الفكر الاقتصادي أن الأزمات ليست بالظاهرة الطبيعية الحتمية وانه من المستطاع تلافي حدوثها عن طريق التخطيط الاقتصادي*) (ص 17). من المفيد الإشارة الى أن هذا الاستنتاج غير دقيق لان ماركس بعد تحليله لتطور الاقتصاد الرأسمالي بيّن أن الأزمات هذه هي ظاهرة حتمية في هذا الاقتصاد (الرأسمالي)، فتعميمه ليس مجردا (يشمل كل الاقتصادات) بل **ملموسا** يشمل الاقتصاد الرأسمالي. هذا مع العلم أن مفهوم " التخطيط الاقتصادي " هو احد مفاهيم الاقتصاد السياسي للاشتراكية، علما أن الكثير من الشركات العملاقة في الرأسمالية تستعمله ولكن بمضامين أخرى.
- مع التقدير للجهد المبذول وكثرة المصادر إلا انه **يلاحظ ضعف التوازن بين المصادر الأولية (الحزبية الخاصة بالحزب الشيوعي وهيئاته القيادية، أرشيف الحزب، من كتب ومداولات وقرارات لجنته المركزية أو كتب قادته، وصحافته) والمصادر الأخرى**. إذ نظرا لأن الأطروحة تتحدث عن تاريخ الحزب الشيوعي من وجهة نظر تاريخية وتتناول فترة محددة (1935 – 1949) كان المفروض أن تكون حصة المصادر الأولية هي الأكبر دون أن يعني ذلك إهمال المصادر الأخرى التي تستخدم لتعزيز الاطروحات والاستنتاجات التي يتوصل لها الباحث. ولا شك أن محاولة رصد المادة الحزبية ودراستها يساعد في تكوين فكرة علمية منضبطة نوعاً ما عن طبيعة الحياة النضالية أو الحياة السياسية في داخل الحزب أو ضمن قوى حركته الداخلية أو طبيعة علاقاته الخارجية جهة قضايا مماثلة أو مشتركة.
- النسخة التي بحوزتي تشير الى وقوع أخطاء فنية حيث تم ترقيم الصفحات بالمقلوب ص 30 – 50 جاءت بالمقلوب أي 50 نحو 30 ! وآمل أن لا تكون موجودة في النسخ الأخرى من الأطروحة.

وختاما فان ما قدمه الباحث مؤيد شاكر كاظم الطائي من جهد في أطروحته يستحق التقدير. كما أن الأطروحة وفي الوقت الذي سعت للإجابة على جملة الأسئلة التي طرحتها فإنها فتحت في الوقت ذاته الباب أمام أسئلة جديدة نأمل أن يتصدى لها باحثون آخرون يفكون ألغازها ومسارتها الصعبة ويعالجون الأحداث التاريخية بموضوعية وبراس بارد.

****

نصوص مترجمة

الأساس الطبقي لـ "الماركسيات" الصينية اليوم *

روبرت ويل Robert Well

ترجمة: عزيز سباهي

روبرت ويل هو مؤلف: القط الأحمر، القط الأبيض، الصين ومتناقضات "اشتراكية السوق" Monthly Review Press 1966 وعديد من المقالات والأبحاث حول الاقتصاد السياسي الصيني والعلاقات الطبقية.

في خاتمة (البيان الشيوعي) يصف ماركس وأنجلز مجموعة من "الاشتراكيات" كل واحدة منها تمثل محاولة من جانب الطبقات المختلفة لربط نفسها بالنظرية الآخذة بالتطور حديثاً، مستخدمة إياها للدفاع عن مصالحها الخاصة، كالمحافظين "الإقطاعيين" أو "البورجوازية" أو "البورجوازية الصغيرة" و "اليوتوبيا النقدية" وهلمجرا. شيئ من هذا النوع يحدث الآن في الصين، مع وفرة في المواقف النظرية، كالادعاء بكونها "ماركسية" تنهض لتمثيل مختلف المواقع الطبقية. فـ "الاصلاحيون" الرأسماليون الذين مثلهم دنغ تسياوبنغ في نهاية السبعينات أوجدوا انشقاقا في الأسس الإيديولوجية لليسار الصيني، وبذلك وسعوا ونوعوا من الانشقاقات التي كانت تجري خلال الثورة الثقافية. فالحركة باتجاه الرأسمالية، على الخصوص، في الوقت الذي تستمر بالادعاء أنها تتمسك بالنظام الاشتراكي الذي يقوده الحزب الشيوعي، تنادي بـ "السوق الاشتراكية ذات الخصائص الصينية" وهكذا، فهي تحتاج في الواقع الى لي المفاهيم الماركسية لتوفير الشرعية للسياسات الجديدة. في الوقت ذاته "تتفتح" الصين على آراء جديدة، لاسيما تلك الوافدة من الغرب، وكانت النتيجة أن برز طيف واسع من "المنظرين" الذي يدعون "الماركسية" ولايزال بعضهم يتمسك بالسياسات الثورية لعهد ماو، حتى أولئك الذين يحتضنون الرأسمالية بدرجات مختلفة كضرورة للتقدم، لكنهم يرغبون في ذات الوقت في تقليل الاضطرابات والاستقطابات في النظام القائم؛ الى أولئك الذين يوفرون الغطاء للإيديولوجيا "الرسمية".

هذه السلسلة الطويلة من المواقع الإيديولوجية ذات ترتيبات وتكوينات متحركة، وبضمنها تلك التي ترتبط بالإدارة كالكونفشيوسية[1] والتاوية والقومية والديمقراطية اللبرالية.

هذه "الماركسيات" المختلفة الموجودة الآن في الصين تصطف من تلك التي تحد جذورها لتتحرى بدقة الأوضاع الاجتماعية الى أخرى تكاد تكون تجريدية بالكامل. إن الماركسية "الرسمية" التي تسود أوساط دوائر الحزب والدولة، على الخصوص، يُحرصُ في الغالب على إن تُركن الى مستوى عالٍ من التجريد لأنه يستحيل في الواقع أن تقرن مواقفها النظرية بأوضاع المجتمع الذي يحيط بها. من بين المواد المعروضة هنا، الموقف الذي يتخذه البروفسور جنهاي يانغ. ففي رأيه وهو يحشر "السوق" في الاشتراكية أن ذلك قد فتح عصراً جديداً كاملاً في التطور البشري ابتداءً من عام 1978، ليس للصين وحدها، وإنما للعالم بأسره. فيما تؤطر مناقشته بسطحية فيما يتعلق بتأريخ الماركسية، ويقدم ملاحظات مهلهلة حول الحاجة، مثلاً، الى الوحدة ما بين "الكفاية" و "المساواة" في النظام الاشتراكي، إلا أن تحليله يستند الى مجموعة من المفاهيم التي صيغت بمثالية عالية. والشيئ الرئيس هنا الزعم الشائع بأن "السوق" عامل محايد يمكن أن يتكامل مع الاشتراكية أو الرأسمالية. كما يوظف يانغ الأمر، أن هذا المفهوم يسمح بالتلاعب النظري ببراعة. فبالنسبة له، طالما كان كل ما يوجد في الصين اليوم هو "السوق"، وطالما كان بوسع هذه السوق أن تعمل، وتعمل بالتأكيد في خدمة النظام "الاشتراكي"، فلا حاجة إذن لمناقشة طابع السياسات الرأسمالية التي تقحم في النسيج الاقتصادي والاجتماعي، مهما كان السبيل الذي ستتخذه هذه المناقشة. ورغم أن يانغ يقر بان الرأسمالية يمكنها أن "تستقطب" و "تهاجم بوحشية" فان حجته خالية من أية مناقشة حول تطبيقها وظروف المجتمع الصيني اليوم. فطبقاً له، ليس هناك

مكان في اليوتوبيا الجديدة بشأن "اشتراكية السوق" لكلمات معينة مثل "الرأسماليين" و "البروليتاريا" و "الفلاحين" وبوجه خاص "الاستغلال" و "الصراع الطبقي".

إن الأعداد المتزايدة من الملياردية، والمستغِلين الاحتكاريين الأجانب، والعمال المهاجرين المستغَلين في سن قبل البلوغ الذين يعملون بوجبات عمل تصل الى 16 ساعة في مصانع التصدير، والملايين المفصولين من العمل في المشاريع التي تملكها الدولة، والفلاحين والمزارعين الذين يناضلون في قطع أرضهم الصغيرة في وجه المنافسة العالمية – ليس من هذه كلها ما يدخل في تجريده النظري. وبدلاً من ذلك، كل ما في الأمر قليل من السمكرة غير البارعة للإبقاء على التوازن ما بين "السوق" و "الاشتراكية" بحيث لاتستطيع لا "الفوارق" ولا "المساواة" أن تخرج عن الخط المرسوم. ولكن برغم انفصالها التام تقريباً عن المجتمع وإغفالها التناقضات المتفاقمة في الصين اليوم، فان لهذه الايدولوجيا استخدامها السياسي. هذا البناء "الرسمي" هو جزء من مشروع لايزال ناقصاً لتوفير قاعدة إيديولوجية متماسكة لانبثاق طبقة رأسمالية في الوقت الذي يرمي بالغلاف الماركسي الظاهري الذي يغلف النظام، خافياً أعماق الاستغلال والاستقطاب المتعاظم، ومدافعاً عن الشرعية الإيديولوجية للموظفين "الشيوعيين" الذين هم على ترابط مع شركائهم الأجانب والخواص، الذين هم المنتفعون الأوائل من النظام الاجتماعي الراهن.

مع جيتسيونغ يي، يتخذ تحليل "الإصلاحات" الصينية على أساس أكثر متانة. هنا لا مفر من مناقشة تخريبات الأوجه الرأسمالية للنظام الراهن – الاستغلال، الفساد، الدمار البيئي، وهلمجرا – ولا مفر أيضا من أن يضاف الى ذلك، الحاجة الى نقد الاوجه المختلفة لعهد ماو. تحليله يستند الى الماركسية، ليس لمجرد غطاء لنشاطات الحزب والدولة، وإنما كنقد لاذع لبعض النظريات والسياسات الرسمية لاسيما تلك التي تعود الى جيانغ زيمين. كذلك يزود يي عرضاً نافعاً لبعض الفروع الكثيرة لـ "اليسار" في الصين اليوم. في هذه وغيرها من الأوجه، فإنها مناقشة، بوجه عام، أكثر جدية. وهي محاولة في العمق أكثر من تلك التي جاء بها يانغ في الصراع مع التناقضات في النظام الصيني الراهن والمقاربات لحلها. رغم ذلك، هناك بعض التداخل في تحليلها برغم الاختلاف في التناول. يي يؤكد أن "ماركس ينسب دوراً ثميناً وضرورياً للرأسمالية في البروز النهائي للاشتراكية" – قول سليم، لكنه تحليل ذو تطبيقات مختلفة في مجتمع مر تواً بثورة اشتراكية، رغم أنها مؤقتة وغير تامة. ورغم أن هذه الوظيفة الرأسمالية قد تعتمت في الحال، إلا أن قوله بـ "أن يورط المرء نفسه في وقت واحد بالاشتراكية وباقتصاد السوق" يبدو وكأنه يعاني من الانفصام النفسي بالنسبة للبعض و"ديالكتيكي" بالنسبة لآخرين، ولكن في الحالين هناك حاجة للمسألة" ومع هذا الاستبدال، فان الرأسمالية تتحول مرة أخرى – كما هي الحال مع يانغ – الى ما هو أكثر من "تسويق" معتدل. وهنا كذلك، ينبغي الابقاء على الاستقطاب والاستغلال ولكن بـ "ضبط". وأفضل ما يمكن أن يؤمل من هذا، انه "يتوجب على الحزب أن يحاول ضمان العمال الصينيين بشكل أفضل لا أسوأ، أفضل، إن أمكن، من العمال في البلدان الرأسمالية المعروفة". ليست هناك أية إشارة للحاجة الى أن تطيح الطبقات العاملة في الدول الرأسمالية، ولتحديد الثورة الاشتراكية من أجل إنهاء الاستغلال كلية. تمتد جذور هكذا تحليل عميقاً، ولهذا، ففي محاولة الإضافة الى ماركس يجرى طرح مقاربة غير ثورية. وفي حال كهذا تنقلب الماركسية الى بحث عن تحرير "الإنسانية". يقول يي: لإزالة القيم الإنسانية الماركسية معناه إنكار الغرض الأساسي لماركس، أي التحرير.. إن هدف "الرأسمال" (مؤلف ماركس) هو تفسير النماذج الاجتماعية، للكشف عن قوانين التطور الاجتماعي، التي تتمثل في تكتيكات الصراع الطبقي، والثورة البروليتارية ودكتاتورية البروليتاريا، لكن التكتيكات ليست هي الهدف.

هذا، أيضاً أمر دقيق، كقولنا تماماً أن "غرض" الأكل هو توفير ما تحتاجه المعدة من غذاء. أو باستثناء الحالات النادرة كالتغذية بالأنابيب، نقول أن "التكتيكات" المكتشفة حتى الآن لتحقيق هذا الغرض هو وضع الغذاء في الفم ومضغه وبلعه. أي أن المجتمع لم يكتشف الى الآن طريقة للمرور مباشرة من الرأسمالية حتى الحدث النهائي الذي نادى به ماركس وهو "محو استغلال العمال وجميع المضطهدين في المسار نحو تحرير البشرية" بدلاً من اللجوء الى الثورة الاشتراكية. وفيما

يقترح ماركس، بالتأكيد، انه في ظروف استثنائية معينة في النضال من أجل الاشتراكية، من الممكن لأقطار معينة أن تتجاوز الحاجة الى أي انقلاب ثوري. وفي غير هذه الاستثناءات النادرة لم يجز مثل هذه المحاولات. وهكذا، فلاختزال "الثورة" الى مالا يزيد عن موقف "تكتيكي" هو تشويه كامل لها، ويجردها من محتواها الأساسي. إن النضال الطبقي الثوري، كما يراه ماركس، والاستيلاء على سلطة الدولة من جانب البروليتاريا، هما خطوتان جوهريتان في الانتقال الى الاشتراكية في الطريق الى الشيوعية. ولكن، مرة أخرى، مثل هذا التشويه يخدم غرضاً سياسياً. إن احتضان ماركسيةٍ ما قائمة على "إنسانية" غامضة، يمثل محاولة لإيجاد "ارض وسطية" في النضال الطبقي "تليين حواف" الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية. ومثلما لاحظ ماركس، فإن مثل هذه الجهود هو تعبير إيديولوجي للبورجوازية الصغيرة، أي التذبذب ما بين البروليتاريا والبورجوازية، التي ترغب في الهروب من الاصطدام العنف بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع الحديث، بل هنا بعض الأوجه من:

الاشتراكية المحافظة، أوالبورجوازية.. اقتصاديون يتعاطون أعمال الخير إنسانيون محسنون لتطور الأحوال الاجتماعية للطبقة العاملة، منظمو الإحسان (الذين) يرغبون في تقدم الظروف الاجتماعية الحديثة دون نضالات ومخاطر تنشأ عنها بالضرروة. هم يتوقون الى الحالة القائمة للمجتمع ناقصاً عناصرها الثورية وعناصرها المتحللة[2].

مع هذا، فان أنقى ممثلي آراء كهذه، كان البورجوازي الصغير برودون، الذي " بدلاً من الحروب المرعبة التي كان يجري التحضير لها بين مختلف الطبقات داخل كل أمة، وبين مختلف الأمم، وبدلاً من النشاط العملي والعنيف للجماهير، والذي بواسطته فقط يمكن أن تحل النزاعات " بدلاً من كل هذا يطرح هو تكويناته النظرية" [3].

هكذا الأمر أيضاً مع النداء الكونفشيوسي من أجل "الانسجام الاجتماعي". من السخرية أن تستخدم أفكار كونفشيوس التي تعود الى ما قبل 2500 سنة والمفاهيم التاوية والمفاهيم القانونية، كجزء من حملة لـ "التحديث" يبدو أنها، والى حد بعيد، تفر من تحليلات كثيرة، لكنها تمنح بامتياز "خصائص صينية خاصة" لأية نظرة أو سياسة. وبالنسبة للبعض، حتى من بين اليساريين هي جزء من عاطفة قومية جديدة. مثل هذه المفاهيم التقليدية تكاد تكون طيّعة بلا حدود، تعتمد على الأوجه التي يجري التأكيد عليها. فبالنسبة الى يي، فان الكونفشيوسية بعد أن تجرد من أبعادها الكهنوتية والمعادية للديمقراطية والمضادة للمساواة، تعير نفسها الى مفهوم إنساني ماركسي عن الانسجام"، وعلى هذا النحو تصبح واحدة من الوسائل التي يمكن أن يلين الصراع الطبقي بها.

نظريات كهذه، تعكس في الغالب، مصالح البورجوازية الصغيرة لـ"الطبقة الوسطى الجديدة" والكوادر من المستوى المتوسط والمالكين والمديرين "الذين يتأرجحون بين البروليتاريا والبورجوازية" الذين انتفعوا بشكل هائل من نظام "اشتراكية السوق" الرأسمالية، ولكن الذين تضطرب أوضاعهم أكثر فأكثر من نمو التناقضات التي تهدد مكاسبهم التي تولدت حديثاً. وبينما يتعاطف كثرة منهم مع الطبقة العاملة، فأنهم يخلفون من عودة الاضطرابات التي عرفتها سنوات ماو، وهم يرتعبون من ذكريات الثورة الثقافية. هم ينشدون الاستقرار الاجتماعي قبل كل شيئ، ويتوجسون خيفة من شبح عودة صراعات الطبقة العاملة. ولكونهم من النخبة التي تنال اكبر المنافع، فان قسماً منهم يدافع عن الإصلاحات السياسية، لكنهم يترددون بفعل الخوف الذي يطبق على "عشرات الملايين من الصينيين الأميين وظيفياً والذين يعوزهم الوعي الديمقراطي الى حد خطير". هكذا يقدم ممثلو هذه المرتبة الوسطية على هذا النحو وفرة من المفاهيم النظرية الجديدة التي يمكن أن تحتوى الماركسية بها، ولكن فقط بعد أن تتقلص الى سلبية ومدرسية "ومن دون عناصرها الثورية".

لدى شاوبو تسي وفينغزين وانغ، ترفض التجريدات وضبابيات الماركسية الصينية الرسمية. وهكذا أيضا الجهود التي تبنى على حسن التغير لاستبدال الرأسمالية "السوق". أو اللجوء الى الانسانوية الماركسية الطوباوية. وهذا يسمح لهما أن يقدما تفسيراً مختلفاً جداً لبعض ذات القدر من التحليل الذي يقدمه يانغ و يي. يناقش تسي "الغموض" النظري لمصطلح

"اشتراكية السوق" وانحرافاتها عن الموديل الاقتصادي "الحر" الغربي مؤكدا أن "لا الاشتراكية قد خسرت ولا الرأسمالية قد ربحت في الصين" بينما يعرض وانغ الأمل لـ "الاستقرار الاجتماعي"، بل وحتى أن الصين قد "تبتدع نظاماً جديداً". وهما لايزالان واضحين أن "الحقيقة التجريبية" للاقتصاد "ليست بعيدة عن الرأسمالية الناضجة، مع الاستغلال والنزاعات، "الفوضى والتفاوتات الطبقية المثيرة". يرى يي، وهو يأخذ بنظر الاعتبار ما ورد، ويستغيث بـ "الانسجام" ليس كخطة لانجاز النظام الاجتماعي، بل كقبول بالرأي القائل كم هو بعيد جداً النظام اليوم عن القاعدة، ومحاولة لتهدئة المشاعر الساخطة والوهم الاجتماعي" واحتواء الاستقرار. هكذا يؤكد وانغ أيضاً على "إجماع" الكونفشيوسية والبيئوية التاوية، التي تواجه الاستهلاكية الفردية الرأسمالية. بالنسبة لـ يي لم تعد الماركسية- اللينينية وفكر ماوتسي تونغ "الرسمي" اعتقاداً سياسياً، وإنما هو إستراتيجية، جزء من مزيج مطاطي للتعامل مع الأوضاع المتغيرة، بينما يؤكد وانغ "الانتقائية" التي تدرس بها المفاهيم الماركسية في الوقت الراهن، ويحذر من الاحتمال المفسد لقبول المزيد من الرأسماليين في صفوف الحزب. وهكذا، برغم مزايا معينة، وفوارق دقيقة بينهما، كلاهما يشدد على المزيد من الطبيعة الرأسمالية المتزايدة مستقبلاً في الصين، والانقسام الطبقي المتعاظم، والثمن الباهض الذي جلبه كل هذا للطبقات العاملة واغترابها ومقاومتها المتعاظمة.

إن يي و وانغ، وبرغم موقعهما الشخصي كموظفين في الحزب والدولة، وكونهما أكاديميين أو مثقفين.. الخ، يواصلان انحيازهما شخصياً الى جانب الطبقات العاملة، ويحاولان تأكيد ثقافتها وانخراطها. والأساس الطبقي لتحليلها ربما كان قد لحظه وانغ في نهاية حديثه: "أنا اعتقد أن القوة الحقيقية في كل مجتمع تكمن في الجماهير الواسعة للشعب. والمهمة الرئيسية لأي امرئ يرغب في تحقيق الشيوعية، هي، في الدرجة الأولى، الارتفاع بوعي الشعب بالشيوعية".

وهكذا، هما قادران على تثمين مئات الملايين من العمال والفلاحين. إن العهد الاشتراكي الثوري في ظل ماو أنجز قدراً عظيماً من التطور الاقتصادي الجماعي والتضامن السياسي، وفي النهاية، التعليم والرعاية الصحية والضمان الاجتماعي التي ضاعت جميعها الآن أو تكاد. ورغم أنهما يقران بالانجازات الاقتصادية الخام، وتعاظم فرص الحياة المتسعة للنظام الراهن، فإنهما يشددان على الثمن الذي يتوجب دفعه، في المقام الأول، الاستغلال للطبقات العاملة، وتعاظم الاستغلال وأوجه الاغتراب للثقافة التي تزداد خصوصيتها. كذلك يلاحظ وانغ أن التفسير التاريخي لهذين العهدين ينقسم وفق خطوط طبقية مع أولئك الذين كابدوا مباشرة أكثر من غيرهم إبان الثورة الثقافية، والذين يمسكون الآن بزمام الأمور، ويحملون وجهات نظر سلبية تجاه عهد ماو أكثر من الطبقات العاملة التي انتفعت من سياساته. هناك قلق يتزايد بين موظفي الدولة والحزب، وأكثر هؤلاء بين المراتب المثقفة والمهنية، وان النقد الذي قدمه ماو لـ "الطريق الرأسمالي" وتخديراته من تأثيره الكامن على الصين قد ثبتت صحتها، حاملاً معه تثميناً جديداً للأساس المنطقي الذي قامت علية حملاته الأخيرة.

هذا الإدراك يفتح فسحة جديدة لليسار الصيني. إذ لأول مرة منذ عقود يدرك أعضاء الحزب أنهم أكثر حرية في الحديث على المكشوف فيما تجاهد الأجيال الشابة للتعرف على الاشتراكية الثورية للماضي. وهذا ما يشعر به في طول النظام وعرضه، بما في ذلك المستويات العليا من المركز. هناك نقاش يتزايد في الصين اليوم ما إذا كانت "الإصلاحات ضمن الإصلاحات" والتي وضعت أسسها من جانب الرئيس هيوجنتاو والرئيس وين جياوباو ستكون عميقة ودائمة، وما علاقتها بالماضي الاشتراكي. مثل هذه السياسات، كالمحاولة لإعادة الرعاية الصحية الى الريف هي ولاشك، متأثرة بحملة "الأطباء الحفاة" في عهد ماو والتي جرى تفكيكها الآن. غير أن إصلاحات هيو – وين تمثل في الغالب محاولة جزئية فقط من نوع New Deal بالنسبة للصين والتي تجمع بين اهتمام شريف معين بأوضاع الطبقة العاملة مع الإدراك بأنه من دون تحسين هذه الأوضاع، فانه لا يمكن البقاء للسلطة الراهنة. فبينما جلب تحسينات الى بعض قطاعات سكان الريف، وتوسيع حماية العمال، فان القدرة على قرص النظام بما فيه الكفاية لإحداث خلل طويل الأمد أمر مثير للجدل. إن الصين بـ "انفتاحها على العالم" قد بيعت الى النظام الرأسمالي العالمي بطريقة. تكاد تؤدي الى اضطراب

حاد وانكماش تجاري ليس بعيد في المستقبل، ويخيم الآن تباطؤ حاد، وانحدارات شديدة في الاستثمارات والصادرات و "فقاعات" انفجارية في الرهون العقارية وأسواق الأسهم. ومع غلق الألوف من المصانع ودفع ملايين العمال الى البطالة، فلن يطول الوقت لدفع الاقتصاد الصيني الى ميدان جديد وغير مجرب، والى اضطرابات اجتماعية كبرى، وتجديد نشاطات منظمة قد تدفع الى تحركات ثورية من جانب الطبقات العاملة.

إن قابلية اليسار لمواجهة تحديات كهذه والإمساك بالفرصة التي توفرها لمساعدة العمال والفلاحين والمهجرين بل والمزيد من الأعضاء الذين يعانون من الاغتراب من الطبقة الوسطى للرد على هذه الأوضاع ستكون ذات تأثير رئيس في الاتجاه الذي ستسلكه الصين. والماركسية الرسمية التي يتبناها الحزب والدولة، ستكون في حالة كهذه، غامضة في الأساس، وتحجب أي تحليل صحيح للوضع، وإيجاد الحلول الايجابية. أما بالنسبة للجهود التي ستبذل لإيجاد سبيل ماركسي إنساني "منسجم" فإنها، هي الأخرى، يحتمل أن تسقط بسرعة على جانب الطريق في وجه أي تصعيد رئيسي في نضال الطبقة العاملة، وسيشرع أولئك الذين لايزالون يتمسكون بتقليد الثورة الاشتراكية في الصين، الذين يؤمنون في الغالب ويتحدون، حتى يخرجون بهدوء الماركسية "الرسمية" من أجل البحث عن السبيل الذي يدفع الى الأمام. لكن طريقهم سيكون وعراً للغاية، وستحدث انقسامات في صفوف اليساريين – أكثر مما هي علية اليوم، وسترد الدولة بفظاظة على أية محاولة لتنظيم صفوفهم، ناهيك عن محاولات تعبئة الطبقات العاملة، وجعلهم في وضع ضعيف عاجز عن أخذ الدور القيادي، حتى وان نما عددهم. وفي حالات نادرة استثنائية، ستجد الكوادر اليسارية والمثقفون سبلاً قليلة للاتصال بالاحتجاجات الكثيفة والتي تزداد عنفاً لملايين العمال والفلاحين والمهاجرين الذين لا يعودون يطيقون النظام القائم. إن فشل تسي في الإجابة على السؤال النهائي الذي طرحته بربارا فولي حول دور اليسار والجواب العمومي والقصير جداً من جانب وانغ، يوضح هذه القضية. في الصين، كما هو الشأن في كل مكان، سيتمكن اليساريون من تخطي انعزالهم عن نضالات الطبقة العاملة ومن أجل قيادة الدرب الى أمام، الى مرحلة جديدة من الاشتراكية.

- واحدة من عدة دراسات وأبحاث ستصدر قريبا عن مجلة (الثقافة الجديدة) ضمن كتاب بعنوان: ***الصين: الاشتراكية، الرأسمالية، السوق. ما هي الآن؟ والى أين تتجه؟***

الهوامش

(1) الكونفشيوسية: من المدارس الفلسفية في الصين، تأسست في القرن الخامس قبل الميلاد. في رأيها أن مصير الإنسان تحدده السماء والناس بشكل لا يقبل التغيير. وعلى الصغار أن يخضعوا في تواضع للكبار ولمن هم أعلى مقاماً. وهناك من عزا عدم المساواة الاجتماعية الى " اراد السماء ". وفي القرن الحادي عشر ظهرت الكونفشيوسية الجديدة التي تقول بوجود شيئين رئيسيين في الكون: لي، المبدأ العقلي وتشاي، اي المادة السالبة، التي تدفع الى الرذيلة بينما يدعو المبدأ العقلي الى الفضيلة. (نقلاً عن المؤسوعة الفلسفية) لروزنتال ويودين، ترجمة سمير كرم (ص 398).

(2) ماركس وانجلز، المؤلفات، طبعة 1962، ص56.

(3) من رسالة لماركس الى ب.ف. أننكوف، كانون الثاني،1846.

******

دولة الرفاه الاجتماعي وإفرازات العولمة الرأسمالية

ليو ماير
ترجمة رشيد غويلب

(ليو ماير) شخصية نقابية المانية معروفة، وهو نائب سكرتير الحزب الشيوعي الألماني وأحد العاملين في معهد البحوث الاقتصادية والبيئية في ميونخ. ، قدم هذه المساهمة في المنتدى الاجتماعي الأوربي الذي انعقد في مدينة (مالمو) السويدية في منتصف آب 2008 وضمن محور (النضال ضد العولمة الرأسمالية من خلال عولمة الحقوق الاجتماعية)

سأحاول في مساهمتي الإشارة إلى بعض الملاحظات وبشكل رؤوس أقلام حول موضوعة التطور المتبادل بين النضالات الاجتماعية وإشكال المؤسسات الضامنة و الحقوق الاجتماعية- الاقتصادية الأساسية، من خلال المقارنة بين دولة الرفاه التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية والأوضاع التي أفرزتها العولمة الرأسمالية السائدة اليوم.

لقد رأينا في العقود الأخيرة كيف جرى، رغم وجود مقاومة فاعلة، هدم عميق للمكتسبات الاجتماعية وكيف فككت سياسات الليبرالية الجديدة الكثير من المنجزات الاجتماعية أو جعلتها على الأقل ضمن دائرة التساؤلات في سياق مقاربة عكسية باتجاه الأسفل بعد أن عشنا فترات امتازت بضمان وأمن اجتماعي نسبي. أما ألان فان الأوضاع قد تراجعت إلى حالة نشعر فيها وبشكل مفاجئ بأننا خاسرون، ولا يمكن لأحد فينا أن يشعر بالاطمئنان ويدعي إن بإمكانه أن ينظر لحاضره ومستقبله بعين الرضا.

تجري محاولات للحفاظ على الضمانات القديمة المفترضة ولكن مصير هذه السياسات في زمن التحولات الحالية سيكون الفشل، حتى وان بدأت تلك المحاولات في الظاهر مفهومة لان رأس المال المعولم (العابر للقوميات) والمرتبط بسياسة الليبرالية الجديدة قد أزال الأرضية التي تقوم عليها دولة الرفاه الاجتماعي الوطنية .

إن المطلوب القيام بإصلاحات تقدمية لا تسعى للحفاظ على القديم (دولة الرفاه الاجتماعي بشكلها القديم) بل تعمل على التهيئة للجديد (نموذج لدولة الرفاه الاجتماعي أكثر تطورا وتقدما من سابقه)، فما يعتبره شيوخ اليوم والجيل الذي أعقبهم تدهورا للواقع الاجتماعي، نتيجة عملية لتدمير الحقوق المكتسبة وما تحقق عنها من ضمانات مادية تعيشها الأجيال الشابة باعتبارها واقعا طبيعيا ملازما للرأسمالية.

إن على جميع الحركات التواقة للتحرر من الرأسمالية التعامل مع واقعها المعاش لتطوير بدائل تؤشر الى إمكانية تجاوز الرأسمالية، من خلال التفكير بمستوى اعلى من الحقوق الاجتماعية بدلا من السعي لعودة وهمية إلى حالة سابقة مفقودة.

هناك أسئلة تطرح نفسها بقوة على بساط البحث، أهمها ما يدور حول ماهية المشروع الذي يمكن له تعبئة القوى الساعية لتجاوز الرأسمالية؟ لان الطبقات المضطهدة ستظل بحاجة الى مشروعها الخاص وتصوراتها المستقبلية وإذا لم تحقق ذلك فستبقى تهيئ الطريق لعملية التكيف مع أسلوب الإنتاج الرأسمالي والتحديات الجديدة التي يطرحها.

ما هي الأسس التي امتلكتها دولة الرفاه الاجتماعي ما بعد الحرب العالمية الثانية؟

لقد كانت دولة الرفاه حصيلة لفترة طويلة من صراع طبقي حاد كان هدفه الأساس إقامة الاشتراكية وليس نموذج لدولة الرفاه الاجتماعي. ولهذا يمكن اعتبار ذلك نجاح وهزيمة في الوقت نفسه للاشتراكيين والحركة العمالية، هزيمة بمعنى إن دولة الرفاه لم تكن حلا طبقيا وسطيا غير متناظر فقط، بل كانت عملية إعادة تنظيم محددة للرأسمالية تلبي مصالحها و تميل إلى جانبها.

لا تتناول آليات تنظيم دولة الرفاه الجانب السياسي فقط (نظام الضمان الاجتماعي) بل تتعداه إلى وظيفة اقتصادية مؤثره من خلال رفع القدرة الشرائية بالارتباط مع التقدم المضطرد للإنتاج، وكذلك من خلال تأمين الدخل لعموم الشعب حتى في فترات ضعف الدورة الاقتصادية وفي حالات المرض والشيخوخة لان ذلك يؤدي إلى دعم واستقرار الطلب في السوق دون الاعتماد على توظيف رأس المال. إن هناك ترابطاً بين تطور الإنتاج والتطور في الضمان الاجتماعي يستند الى نمو اقتصادي ديناميكي وقطاع دولة فاعل وقواعد لتنظيم الضمان الاجتماعي، ولم ينشأ هذا الترابط تلقائيا بل جاء نتيجة للقوانين المتحققة من خلال نضالات النقابات العمالية وكذلك تحت ضغط التنافس مع البلدان الاشتراكية .

لقد استطاعت أحزاب عمالية قوية أن تمثل مصالح العمال في مؤسسات الدولة البرجوازية ، وفي نفس الوقت كانت الدولة الوطنية مستقلة في إدارة الصراعات الطبقية سياسيا و اجتماعيا. وبهذا استطاعت النقابات تحقيق انجازات اجتماعية هامة والحصول على تنازلات من جانب الرأسمال تمثلت بشبكة واسعة لنظام تحديد الأجور يستند الى مشاركة أساسية للنقابات العمالية في عملية تحديد الأجور وزيادتها بشكل مضطرد، وإقرار آلية للنظام الاجتماعي وتثبيت ذلك بسلسلة من القوانين الضامنة للحقوق الاجتماعية كقانون دستور المصانع وقوانين أخرى. لقد أدى هذا كله للوصول إلى ضمانات مؤسسية حافظت على المساومة بين الطبقات وأدت إلى نزع فتيل الصراع الطبقي، في الوقت نفسه أدت هذه الآليات الى دمج الحركة العمالية في المجتمع والدولة البرجوازية وإضعافها - أي الحركة العمالية - نتيجة لاعترافها بالتنظيم الرأسمالي للإنتاج ونظام الملكية الرأسمالي و إيديولوجية الشراكة الاجتماعية التي قوضت قواعد سلطة دولة الرفاه الاجتماعي، وأدت الى خلق حدود فاصلة تمنع المس بجوهر و هيكلية سلطة الرأسمال والعمل على محاصرة استمرار تطور دولة الرفاه الاجتماعي إذا اقتربت من المساس بعمق وجوهر هذه السلطة . إذن فنحن إزاء حالة تاريخية وفرت إمكانية قيام دولة الرفاه على أساس المساومة الطبقية، حددت داخليا بشروط اقتصادية أما خارجيا فقد كان التنافس بين نظامين اقتصاديين اجتماعيين العامل الأهم في تكونها وهذه العوامل لا تحتفظ اليوم بصحتها.

لقد شهدت مرحلة التنافس مع بلدان المنظومة الاشتراكية اكتمال التغيرات الهيكلية عالميا فقد تكونت هيكلية لنظام رأسمالي عالمي عابر للدولة الوطنية أي نظام العولمة الرأسمالية تجسد أساسها في التطور العالمي لشبكة الإنتاج للاحتكارات فوق الوطنية وكذلك في تكون الاحتكارات المالية العابرة للدول الوطنية والتي امتازت بما يلي:

- تطور السوق العالية وتحولها الى حقل موحد للاحتكارات الرأسمالية.

- تشكل الاحتكارات فوق الوطنية التي حددت هيكلية العلاقات الرأسمالية، فالشركات متعددة الجنسيات أصبحت هي التي تحدد شروط الإنتاج والتجارة و الاستثمار والتكنولوجيا وطرائق وعادات الاستهلاك....الخ.
- بناء التنمية وشبكات الإنتاج المعولمة.
- تأثير التوزيع المعولم للأرباح و أولوية المنافسة وفق ما تحتاجه العولمة الرأسمالية.

لقد أدى ذلك الى تحطيم الترابط بين التطور في الإنتاج ونظام الضمانات الاجتماعية ومع انتهاء التنافس بين النظامين انتهت كذلك الضرورة السياسية لتقديم التنازلات . إن منطق وأسلوب تنظيم الرأسمالية المعولمة اليوم لا يتفق مع مبدأ تقديم التنازلات الاجتماعية والديمقراطية أو القيام بالإصلاحات. كما أن المساومة الاجتماعية تناقض منطقا يقوم على الوصول إلى أعلى الأرباح من خلال تخفيض التكاليف عالميا، ويؤدي إلى تدمير القدرة التصنيعية لمناطق وبلدان بأكملها. وفي الوقت نفسه يجري تحول في وظيفة الدولة التي تأخذ وبشكل تصاعدي سمات سلطة فوق وطنية وبهذا تميل الدولة الوطنية الى فقدان قدرتها على لعب دور الوسيط الأجتماعي، وتكتفي بإدارة سياسية مقره خارجها تلك التي تحددها مراكز و مؤسسات الاحتكارات فوق الوطنية للرأسمالية المعولمة. وفي ظل هذه الأوضاع يصبح " النموذج الاجتماعي الأوربي الجديد" في المقدمة مع وجود تفسيرات كثيرة متضاربة جدا حول محتواه.

- فالنقابات تفهمه على انه قاعدة أوسع لسياسة رفع الأجور و زيادة في الاستثمار العام وخلق فرص عمل أكثر و أفضل وخطوة باتجاه تحقيق يوم عمل كامل و بظروف إنسانية وتحقيق الضمان والتماسك الاجتماعي و إعادة هيكلة المشاريع التي تهتم بأعمار الطبيعة.
- و من جانبهم تعامل الليبراليون الجدد مع النموذج الاجتماعي الأوربي الجديد ولكنهم حولوه إلى نقيضه .

مع "إستراتجية لشبونه" الرامية لجعل أوربا حتى عام 2010، المنطقة الأكثر قدرة على التنافس الاقتصادي في العالم، ولتحقيق هذا الهدف أخضعت جميع سياسات المنافسة له أو وظفت لغرض تحقيقه. عند تنقيح إستراتيجية لشبونة تم التركيز على تغيير وظائف الدولة الوطنية، وقد شمل ذلك على سبيل المثال:

- تحويل أنظمة الصحة و التقاعد الى سوق رأس المال أي خصخصتها؛
- رفع حدود سن التقاعد؛
- إفراغ قوانين العمل من محتواها وإعطاء الرأسمال مرونة اكبر في تعيين العمالة و بأجور متدنية.

في الوقت الذي تتزايد فيه أهمية الإجراءات التي تتخذها الدول الأعضاء من اجل تنفيذ برامج التكيف يجري تعزيز الإطار الأوربي على حساب الدول الأعضاء منفردة التي تتعرض لضغوط متصاعدة. ومن خلال "أسلوب التنسيق المفتوح" و المراجعة الدائمة لتدابير الإصلاح يجري خلق ديناميكية للمنافسة بين الدول الأعضاء لتحقيق إعادة تشكيل متطرفة لأنظمة الضمان الاجتماعي على أسس أليبرالية الجديدة.

يتطابق " النموذج الاجتماعي الأوربي الجديد" بخط مستقيم مع ما جاءت به إستراتيجية لشبونة بخصوص تحديد سياسات المنافسة في المنطقة الاقتصادية الأوربية و يركز بالدرجة الأولى على تحسين ظروف العرض للشركات من خلال تطوير تأهيل العاملين وتحسين أوضاعهم الصحية والسرعة في توظيف العاطلين منهم ولتحقيق أوسع قاعدة لقطاع الأجور المنخفضة .

رسميا تحتفظ الدول الأعضاء باستقلاليتها فيما يخص تطوير السياسة الاجتماعية، أما في الواقع فان الاتحاد الأوربي يقوم بتنسيق و تنفيذ التحولات الليبرالية الجديدة المتسارعة، وهذا مثال على الكيفية التي تجري بها أوربا حقولاً سياسية هامة بالكامل من خلال نظام يعتمد الأكثرية السياسية على مستويات متعددة. وبهذا تضمن سيطرة الليبرالية الجديدة على الصعيد ما فوق الوطني في مواجهة سلطة الدول الأعضاء.

إن موافقة الحكومات والبرلمانات الوطنية على سياسات تقر بدرجة كبيرة خارج سيادتها يحول هذه الدول و بمديات واسعة الى مجرد إدارات منفذه لهذه السياسات. في الوقت الذي تنمو فيه أوربا فإنها تفقد الكثير من الحضارة والثقافة من خلال تدمير النسيج الديمقراطي و نظام الضمانات الاجتماعية فكلما تصاعد بناء الاتحاد الأوربي كدولة وطنية متفوقة كلما أصبح اقل "أوربية".

بالرغم أن الدولة الوطنية لا تزال هي الإطار الذي يجري فيه الحصول على السلطة والذي تجري داخله الصراعات السياسية والاجتماعية، فإن الكتلة المسيطرة داخل الدولة الوطنية هي كتلة فوق وطنية تتمحور حول الرأسمال العابر للدولة الوطنية الذي يسيطر بدوره على الاقتصاد العالمي.

لقد أصبحت الدولة الوطنية تحت تأثير تحول وظيفي فيها، فهي اليوم جزء من سلطة عابرة للدول الوطنية ميكانيكية السلطة فيها مليئة بالتناقضات، وهذا هو حال الاتحاد الأوربي الذي تحول الى قوى محركة في إطار الرأسمالية العالمية.

بودي الإشارة إلى ما قالته الشخصية الهندية المعروفة (فاندانا شيفاز) في مؤتمر منظمة المدكو انترنشنال في (2009/8/30) معرفّة الاتحاد الأوربي بأنه " سياسة من الاحتكارات لصالح الاحتكارات تنفذ من قبل الاحتكارات". و هذا لا يعني سوى أن الاتحاد الأوربي سياسة تضعها الشركات متعددة الجنسية لصالح الشركات متعددة الجنسية وتنفذ من قبل الشركات متعددة الجنسية بمنأى عن أي تأثير للديمقراطية.

بالإضافة إلى ذلك فان الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي وعن طريق المساهمة والتبادل والتغلغل المتبادل لرأس المال أصبحت تأخذ و بمديات واسعة طابع منطقة اقتصادية عابرة للمحيط الأطلسي ويمكن تلمس ذلك من خلال ما يلي:

- الشركات الأوربية الكبيرة تستثمر سنويا في الولايات المتحدة أكثر مما تستثمره في بلدانها الأصلية.
- البنوك وصناديق الاستثمار الأمريكية تكاد تكون مساهمة في جميع الشركات الأوربية الكبيرة والاحتكارات الصناعية والمالية الأمريكية، حتى أصبحت تشكل جزأً أساسيا مكونا لسلطة الرأسمال في ألمانيا و أوربا.
- البضائع المصدرة من بلدان الاتحاد الأوربي الى الولايات المتحدة والبالغة 23% من صادرات الاتحاد اكبر من مجموع ما يصدره الاتحاد الى البلدان الأسيوية.

الاستنتاجات

1. استنادا لمبدأ أن اقتصادا معينا يشترط وجود سياسة معينة وان احدهما يشترط الآخر، ولذا فان العولمة الرأسمالية والليبرالية الجديدة يشترط احدهما الآخر، أي إن السلطة السياسية تستند إلى السلطة الاقتصادية و تولد منها. لذا فان **الليبرالية الجديدة ليست سياسة يفضلها الماسكون بزمام السلطة والتي يمكننا التصويت أو عدم التصويت لهم، بل هي ضرورة داخلية للعولمة الرأسمالية في عالم اليوم.**

2. **لا يمكن إن يوجد " تعايش" مستقر بين منطق المنافسة المعولمة من جهة وسياسة معايير الخدمات في دولة الرفاه الاجتماعي من جهة أخرى** وسيحل التناقض بين هذين المستويين في النهاية لصالح التشكيلة الاقتصادية الحاكمة، إذا لم ننجح في تحقيق تغير كبير وأساسي في علاقات الملكية. وهذا ما يؤكد الاستنتاج إن منطق الاقتصاد السياسي سيفرض على السياسة و المجتمع. ومن هنا يمكننا إن نستنتج ما يلي : لا تكفي لبناء " النموذج الاجتماعي الأوربي الجديد" (رقابة ديمقراطية واجتماعية واسعة) كما يقول السيد (بيشوف) في كراس: (تجديد دولة الرفاه الاجتماعي في أوربا، ص 36) الصادر عن مؤسسة روزا لوكسمبورغ، لان المشكلة الجوهرية تدور حول إستراتجية بديلة تستند الى ما يلي:

• لا يمكن تحقيق إصلاحات تقدمية إلا بالنضال ضد الرأسمال العابر للدول الوطنية، ووجوب التدخل لإجراء تغيرات أساسية في الهيكلية الاقتصادية بما في ذلك علاقات الملكية.

• وجوب فك ارتباط الاتحاد الأوربي بالرأسمالية المعولمة .

• في النموذج الاجتماعي الجديد يجب أن نجعل من موضوعة السلطة و الملكية موضوعة مركزية.

3. **من المهم جدا التعبئة للمقاومة السياسية ضد تفكيك دول الرفاه الاجتماعي الوطنية.** ولكن القدرة على التعبئة و التنظيم بمفردها لا تكفي بل يحتاج الأمر إلى:

• **اعتماد سياسات فعلية للدفاع عن الحقوق الاجتماعية بالارتباط مع نقد جذري للرأسمالية** و تطوير بدائل قادرة على تجاوز الحدود الوطنية و تشجع على نشوء أشكال للتضامن على الصعيد العالمي.

• **على النقابات العمالية والقوى الاجتماعية و السياسية اليسارية تطوير رؤيتها الخاصة لمستقبل أوربا** وعليها أن تعمل في السياسة الاجتماعية من اجل تحقيق ضمان التقاعد ومن اجل تطوير سوق العمل ومن اجل الخدمات والعناية الصحية و من اجل نظام ديمقراطي تضامني للتعليم، أي عليها تطوير منظور للإصلاح يمكن من خلاله التعرف على أوربا أخرى ، أوربا الرفاه الاجتماعي.

• **إن تغيرا هيكليا بهذا الاتجاه لا يمكن توقعه من الأحزاب المحافظة أو أحزاب الاشتراكية الدولية أو الخضر كما لا يمكن توقعه من مؤسسات الاتحاد الأوربي كالمفوضية الأوربية أو البرلمان الأوربي.**

• **لا يمكن الوصول الى تغير هيكلي للاتحاد الأوربي إلا كنتيجة لحركة من الأسفل** ونضال من اجل دمقرطة أساسية لمؤسسات الاتحاد الأوربي.

4. إن أي بديل تقدمي عليه أن يأخذ بالاعتبار أن هناك أكثر من 6 مليار إنسان على وجه البسيطة يجب أن يعيشوا بحقوق متساوية، وان النضال من اجل حقوق اجتماعية متساوية للجميع يعتبر مساهمة هامة للوصول إلى تعريف جديد للعلاقة بين أوربا وبلدان أسيا و أفريقيا و أمريكا اللاتينية، وأن يؤكد على التنسيق و التعاون كبديل للمنافسة وحرية التجارة ويجب أن يساهم في خلق بديل متطور للتعاون. إن النضال من اجل حقوق اجتماعية متساوية للجميع يجب أن يشتمل على تغيير في السياسة المتبعة تجاه المهاجرين فبدلا من ممارسة أساليب عسكرية ضد طالبي اللجوء والقمع والتمييز ضد المهاجرين يجب البدء بسياسة مفتوحة للهجرة.

5. في المراحل السابقة كان وجود وتحرك النقابات العمالية على صعيد الدولة الوطنية كافيا، أما **في زمن العولمة الرأسمالية حيث لا تعرف حركة الرأسمال حدود تقف عندها أو تعترف بها لذا يجب على القوى المضادة للعولمة تجاوز حدود دولها الوطنية أيضا**. لقد كانت الحركة العمالية منذ القرن التاسع عشر جزءً من حركات سياسية واجتماعية واسعة وكان العمل المشترك مع فئات و حركات اجتماعية أخرى في السنوات التي أعقبت الحرب سهلا وممكنا نتيجة لقوة واتساع الحركة العمالية آنذاك. أما اليوم فان العمل المشترك مع القوى الأخرى يعتبر شرطا لبناء حركة عمالية متجددة و قوية قادرة على قيادة المجاميع المختلفة للطبقة العاملة و قادرة على الاتحاد مع الفئات و الشرائح الاجتماعية الأخرى، فبتحالف النقابات العمالية مع الحركة المضادة للعولمة وحركات الدفاع عن البيئة والحركات النسوية والحركات المضادة للعنصرية وحركات المثقفين والحركات الكنسية وحركات و مبادرات أخرى تستطيع الحركة العمالية الخروج من حالة الضعف التي تعيشها وهذا يعني أن تجميع القوى التي تسعى الليبرالية الجديدة لتفرقتها مهمة صعبة ولكنها ضرورية جدا.

لقد أكدت تجربة الأحداث الأخيرة في فرنسا و ايطاليا عدم إمكانية تحول الاحتجاجات الاجتماعية تلقائيا الى فعل مباشر على المستوى السياسي، وعلى نفس المنوال فان إمكانيات تحول نضالات ومطالب حركات مختلفة تلقائيا الى مشروع اجتماعي تبقى ضئيلة هي الأخرى. لذا نحن بحاجة لبناء جسور تؤدي لربط هذه الحركات مع بعضها البعض لتستطيع سوية التوصل وبوعي إلى مشروعها المشترك لاشتراكية القرن الحادي و العشرين . إن مشتركات هذه الحركات المختلفة تتجسد بشكل محدود في مصالحها المنفردة والمباشرة لان هذه المصالح متنوعة جدا فمثلا ما يشغل بال حركة اللجوء غير الشرعي هو غير اهتمامات الملاكات العمالية الدائمة في الاحتكارات العابرة للدولة الوطنية وكذلك هو حال مصالح العمال المؤقتين بالمقارنة مع اهتمامات المدافعين عن البيئة، لكن ما هو مشترك بين هذه الحركات يتجسد في أن لها خصم مشترك هو الرأسمال العابر للدول الوطنية و الشركات متعددة الجنسية.

عندما نتمكن من جعل هذه المشتركات في مركز اهتمامنا عندها يمكن أن تتحول الموضوعات المختلفة الى قضية طبقية، بتعبير أدق أن نجعل القضية الطبقية في مركز اهتمام جميع الحركات مع الحفاظ على تنوعها.

حوار مع الفنان سعد الطائي

احتفالية الألوان بالحياة

قاسم العزاوي

الفنان سعد الطائي من مواليد مدينة الحلة عام 1935، حاصل على شهادة الماجستير في فن الرسم من أكاديمية الفنون الجميلة في روما عام 1957، وهو عضو جماعة الانطباعيين العراقيين من 1957-1968. أقام الفنان الطائي العديد من المعارض الشخصية في العراق وخارجه، وهو رئيس قسم الفنون التشكيلية في كلية الفنون الجميلة، كما تمت ترقيته إلى مرتبة (أستاذ فن)، ومنح وسام (فارس) من رئاسة الجمهورية الايطالية. تمتاز أعماله الفنية بانحيازها للإنسان والبيئة بأسلوب تعبيري واقعي، يزاوج ما بين العالمية والمحلية لمعالجة موضوعة التشكيلي.

كان قد سبقني لمكان موعد الحوار وهذه ميزة يتصف بها من هو مبدع وكبير، استقبلني بابتسامة بشوشة،وقبل أن اجلس كان (استكان الشاي) قد سبقني أيضاً..

قدمت له باقة ورد بأسم هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) ... وسلمته كلمة الترحيب التي خطها السيد رئيس تحرير المجلة الثقافة الجديدة الدكتور صالح ياسر وهذا نصها:

(الأستاذ الفاضل سعد الطائي المحترم

نهديك أطيب التحايا مقرونة بصادق الأماني بموفور الصحة والعطاء المثمر وأنت تواصل بناء منجزك الإبداعي الممتد منذ خمسة عقود ونيف.

يسر مجلة (*الثقافة الجديدة*) أن تحتفي بك.. بفنان مبدع كبير كرس حياته لخدمة الفن والعلم والمعرفة.. واحتفاؤنا هذا إنما هو احتفاء بأحد قامات جيل الرواد الذين وضعوا اللبنات الأولى للفن

العراقي المعاصر، وبأستاذ ومعلم تخرجت على يديه أجيال من المبدعين واصلت جهدها لصياغة المشهد التشكيلي.

إن من يتابع تجربتك الإبداعية يلاحظ أنها متعددة الأبعاد.. تجمع بين الدرس الأكاديمي وريشة الفنان الذي تمرد دوما على الرتابة فتنقل بين مختلف الاتجاهات والمدارس الفنية ليؤسس لعمارته الإبداعية ويرسم معالمها الخاصة حجرا فوق حجر وهي تجمع بين المحلية والعالمية دون أن يجد أي تعارض بين الجانبين.

لقد كانت أعمالك الفنية ثرية في تعبيراتها عن حركة الواقع، كما أن مضامين لوحاتك المبهرة عكست حراك المجتمع وحكايات ناسه وفرحهم ومعاناتهم. ولعل ما يجمع تلك اللوحات هو عذوبتها وجمال ألوانها وفسيح فضاءاتها. والاهم من ذلك كله - وكما قلتم في إحدى المقابلات - فان الإنسان هو محور لوحاتك.. لذا يلاحظ أن شخوص تلك اللوحات تبحث دوما عن الخلاص والخروج من العتمة نحو فضاءات الأمل والشمس المشرقة.. إنها لا تستكين للركود.. تعاند الرتابة ومتسلحة بالأمل في آن.

ختاما، نتمنى لك العمر المديد و المزيد من العطاء.. ونطمح أن تظل ريشتك وألوانك المبهرة دوما تزرع الأمل والبهجة.

مع صادق المودة والاعتزاز

د. صالح ياسر

رئيس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)
2010/3/4

*****

قال: اشكره نيابة عني، على هذه الكلمات الصادقة وعلى حفاوة الترحيب.. ونتمنى لهذه المجلة العريقة، الدوام والاستمرار والعطاء، بما يخدم المشهد الثقافي في جميع مفاصله.
لقد نشرت لي هذه المجلة على غلافها لوحة عن الاهوار في السبعينيات، حينها كنت في المغرب ، لقد اقتنيتها وكنت فرحاً ..
يقول الشاعر(موفق محمد) في غزل حلي:
ولدتُ على بعد موجتين من نهرها فجراً
فسمتني الحبوبة موفقاً...

- هل أسمتك (الحبوبة) سعداً ..؟ وأنت تسكن في محلة (الوردية) وتطل على نهر الحلة من شناشيل بيتك الحلي المشرف على النهر.. وهل ساهم النهر في تشكلاتك تشكيلياً في المستقبل؟

- لقد أضاف لي النهر الكثير والكثير.. كنت مولعاً بالسباحة وتأمل مويجاته .. وعملت قارباً من الصفيح المضلع، كنت أطفو مبهوراً بجمال النهر، اراقب النساء وهن يغسلن الحاجات على ضفتيه، أتجول بقاربي وأراقب الناس والبيوت المطلة عليه ودائماً ما أتذكر نادي الموظفين المطل هو الأخر على النهر.. عشقي للماء كان وما يزال كبيراً (ريح الحلة تختلف عن باقي الرياح) كنت

أنا وصديقي (عبد الأمير طاهر وهو الآن أستاذ باللغة الانكليزية)، نذهب إلى جنوب الحلة.. السفن هناك كانت محملة بقصب السكر.
لقد رسمت العديد من التخطيطات للأشجار والبيوت والسفن والأنهار، اغترف من الطبيعة المنهل الأول لكل الفنانين.. كنت في الأول المتوسط حينها.

- وبعـد...

- مازلت مخلصاً للطبيعة ولموجوداتها وللانتماء المكاني.. اذكر حين رجعت من ايطاليا عام 1957، كنت أحن بشدة إلى الطبيعة والى المنظر الطبيعي.. الطبيعة منظور واسع ورحب تتعامل معها بشكل عفوي وحميمي.. كنا نذهب إلى الاهوار ونصطحب الطلاب معنا إلى الناصرية والعمارة ..نتأمل عالم الأهوار الخلاب ، حقاً أن الاهوار أجمل مشتى للعالم كله بما بها من جمالٍ خلاب وأنت ترى أوراق البردي الخضر تتأرجح مع المويجات المرتعشة. تراها مثلما ترى الأسماك بأصنافها وألوانها المتعددة، ترى الامتداد اللانهائي للخضرة تتصل مع الأفق.. كل هذا العالم الجميل يصلح مادة للكثير من التخطيطات واللوحات، لقد رسمنا القصب ورسمنا صانعي (البواري) وصيادي الأسماك والفالات والمشاحيف الرشيقة. رسمت في فترة الستينيات الكثير من هذه المواضيع..

- أنت عضو في جماعة (الانطباعيين) التي سميت فيما بعد (جماعة الانطباعيين العراقيين) وكانت بقيادة (حافظ الدروبي) عام 1953.. ترى ما الذي أضافة الفنان سعد الطائي لهذه الجماعة؟

- حين رجعت من ايطاليا انتميت إلى هذه الجماعة من خلال معرفتي بالفنان حافظ الدروبي عن طريق ابن عمي (كاظم إبراهيم). حافظ الدروبي إنسان فنان وكيِّس، درس أيضاً في ايطاليا، وحين كنت ادرس هناك كان يزورني باستمرار، انه بارع بالرسم المائي.. علاقتي به كأخ أكبر.. انتميت إلى جماعة الانطباعيين المتكونة من حافظ الدروبي ومظفر النواب وضياء العزاوي وعلاء بشير الذي تعرفت عليه من خلال هذه الجماعة وكان يدرس في السنة الاخيرة (كلية الطب) علاقتي به حميمة لأنه إنسان طيب ولطيف.. لقد ساهمت في جميع معارض هذه الجماعة خلال الفترة 1957-1968.

- أرى أن جماعة الانطباعيين، لا يجمعهم سوى الهاجس الانطباعي، وكل يشتغل في منطقة اشتغاله حداثوياً بخلاف حافظ ألدروبي، وبقية الأعضاء.

- بالحقيقة هذه الجماعة سببت لنا الأذى .. كلهم كانوا يسألون " وين الانطباعيين".. كنا نحاول تغيير الاسم مثلاً إلى جماعة المرسم أو غيرها وكان آخر معرض لهذه الجماعة عام 1968، لكن الفنان حافظ الدروبي وفي عام 1990 أراد أن يعيد الجماعة، رغم انفراط عقد الجماعات والتجمعات، وعرض حافظ الدروبي هذا كان هذا آخر عرض له قبل أن يغادرنا إلى عالم الأبدية..

- حين تخرجت من الثانوية كان معدلك يؤهلك الدخول إلى كلية الهندسة أو الطب.. لكنك فضلت دراسة الفن رغم النظرة المجتمعية في الخمسينيات للفن على انه خروج عن المألوف.. أكنت متمرداً حينها؟

- بالعكس.. أبي كان يشجعني ويفتخر بي بل يتباهى أمام أصدقائه كوني رساماً، كنت دائماً ما احصد الجائزة الأولى وأنا في الصف السادس الابتدائي، وقد حصلت على الكثير من الجوائز القيمة ليس فقط قلم (باندان) بل حصلت على كتاب (الفن في عصر النهضة) وكذلك (تاريخ الفن الأوربي الحديث).. كما حصلت على ثلاثة أجزاء من هامش السيرة لطه حسين.. تصور كل هذه الهدايا وأنا في الصف السادس الابتدائي ! واذكر أن كل عام كان يقام مهرجان الحلة الثقافي في المدرسة الشرقية للبنين بعد أن تفرغ من محتوياتها وتكون صالحة لإقامة هذه الأنشطة الفنية والثقافية ..

الحلة أنجبت طه باقر وجواد علي الطاهر والكثير من الأدباء والفنانين لأنها تستند على مرجعيات حضارية تمتد لأكثر من 7000 سنة قبل الميلاد.

- هل تتذكر اللوحة الأولى التي اشعرتك بالزهو والاعتزاز، مثلما يعتز الشاعر والقاص بالقصيدة الأولى والقصة الاولى المنشورة له؟

- نعم شعرت بالزهو والاعتزاز، وأنا احصد أولى ثمار أنتاجي، اذ حصلت على (دينارين) وثلاثة دنانير كمبيع للوحاتي وكان هذا المبلغ كبيراً في ذلك الوقت، كنت في الثانوية حين عرضت لوحاتي.. ومما زادني افتخاراً أن (أبي) رحمه الله، كان يهدي من لوحاتي لكبار الشخصيات والأصدقاء.. وكان يريد أن ادرس في معهد الفنون الجميلة، حينها قلت لنفسي: لماذا لم اذهب إلى ايطاليا واكمل دراستي في الفن، لان أساتذة المعهد معظمهم درس الفن خارج العراق ؟ إذاً لأذهب إلى ايطاليا وحين عودتي قد اكون مدرساً في معهد الفنون الجميلة.. هذا أولاً.. وثانياً كان والد الشاعر حميد سعيد صديقاً لأبي فنصحه أن يرسلني إلى ايطاليا على حسابي الخاص، والسنة الدراسية الثانية ستتحول نفقات الدراسة على حساب الحكومة العراقية. وبما اني قبلت مباشرة في المرحلة الثانية لذا تحولت نفقات دراستي على حساب الحكومة العراقية.. وبذا لم ادفع شيئاً من حسابي الخاص.

- درست في روما على يد الأساتذة: الفنان (سفيرو) والفنان (بارتولي)، ترى هل بصمة هذين الاستاذين واضحة في أعمالك؟

- درست على يد الفنان (سفيرو) ثلاث سنوات ودرس على يديه الفنان حافظ الدروبي عام(1938-1939) سنة واحدة .. كان عمره 71 سنة، توفى بعد ذلك .. والفنان سفيرو صارم في تدريسه الأكاديمي، وكان كلاسيكياً في كل شيء، حتى في ملبسه، كان يمسك العصا ويؤشر على اللوحة، وسرت على سيرته. تبلور نهجي الفني بكل تأكيد تحت تأثير بارتولي، وأسلوب سفيرو الصارم، اتخذ الانطباعية التي تعمل على تبسيط المساحات الشكلية، إضافة إلى الأسلوب التعبيري والانطباع عن الشيء وليست محاكاته.. بارتولي كان انطباعياً ويرسم أيضا الكاركتير، ينظر إلى الأشكال بكاملها ويبسط الشكل واختزاله والتصرف عليه بحرية وهذا ما سرت عليه...

- في السبعينيات من القرن المنصرم نحت أعمالك نحو انفتاح الأفق، صحراء مترامية، اهوار متصلة بالأفق.. كل شيء مفتوح لا يحده حدود .. ترى ما الذي أردت أن تبوح به في هذا الانفتاح؟

- كنت أفكر في إنتاج عمل فني يثير الدهشة والتساؤل لدى المتلقي.. كل شيء يحقق الإندماج. إن امتداد السماء مع الماء يشكل تواصلاً روحياً، وكذلك الصحراء مع السماء ليس لهما نهاية.. حتى الإنسان والموجودات الأخرى متداخلة في هذا الامتداد اللانهائي.. هناك ترابط بين الموجودات لا يمكن الإمساك بها ، إلا من خلال الانتماء اليها.

- في الثمانينيات، جاء معرضك تحت عنوان: (الصخور تنطق بصمتها).. تميزت أعمالك بانزياحات الكتلية النحتية وجعلها تتساوق مع حرية الرسم... إنها تذكرني بقبور متجمعة وقبور متناثرة .. او نساء نادبات بوجوه منزوعة الملامح، ماذا أراد الفنان الطائي أن يقوله في الصخور وهي تنطق بصمتها؟

- انت قرأتها هكذا، والآخر يقرأها قراءة أخرى ، وهذا يعني انها حققت عدة قراءات. بالحقيقة إنني أحفر في الصخر، وربما قصدت أن الفن الأصيل يجب أن يكون مرآة لدواخل لا مرئية للنفس والروح وتوقها للحب والأرض والوطن، انه الحب بكلمة شاملة.. اي الحفر في الصخر لا يمحي أثره أبداً...

- انها تميل إلى النحت كثيراً، ولكنها معالجة بالرسم، هل جربت النحت..؟

- لم أجرب النحت، فقط عملت المداليات النحت النصفي (الرليف).. لم استمر طويلاً لأن اللوحة تثيرني أكثر..

- كذلك عالجت رسم العمارة، القباب، المنائر، الأقواس بتكوينات عمرانية، مثلما استلهمت الحرف العربي في بعض هذه التكوينات العمرانية، كيف ينظر سعد الطائي إلى العمارة كرسم؟

- العمارة الإسلامية والتراثية جميلة تثير الدهشة وتحفز الذاكرة ومخزوناتها، لقد تنبهت إلى فن العمارة من زمان حين زارني عميد كلية الفنون في روما وزرنا القصر العباسي، كان الجدار عالٍ جداً ومزين بالطابوق المحفور بنقوش جميلة جداً .. وانه آية من الجمال.. أعجبت حين انحنى عميد كلية روما للفنون وقبل الحائط.. حين دعوت إلى برنامج تلفزيوني من قبل مجيد السامرائي أن نقدم برنامجاً عن القباب المخروطية، رسمت قبة زمرد خاتون، كانت تبهرني العمارة الإسلامية منذ الصغر، وخاصة الاضرحة المقدسة وأعمدتها العملاقة. كنت أتأمل الزائرين وانعكاساتهم في المرايا التي تزين السقوف.. رسمت التكوينات العمرانية والمتلقي يستطيع أن يراها بمنظورات متعددة وبعدة اتجاهات.

- نصيحتك لطلابك في أكاديمية الفنون ولمن هو مهتم بالفن التشكيلي...؟

- أن يمارس كثيراً ويبدأ بتشذيب ألوانه، وأن لا يتأثر بالآخرين وإنما يجعلهم قدوته في الفن.. أن لا يقلدهم بل يحفر اسمه عميقاً في المشهد التشكيلي من خلال أسلوبيته الخاصة، حتى تصبح لوحته متميزة تعرف من بين آلاف اللوحات، وأن لا يقفز سريعاً إلى المدارس الأسلوبية الحديثة إلا بعد أن يشبع منطقة اشتغاله.. ويتميز مثلما تميز جواد سليم وفائق حسن وغيرهم من كبار الفنانين.

- ما لم يقله النقاد عن جواد سليم..؟

- لقد قيل الكثير عن الفنان الرائد جواد سليم بشكل واسع بحثاً ودراسة، كان رئيس جمعية الفنانين التشكيليين العراقيين، وكنت أنا أميناً للصندوق وكنا نعد معرضاً للطلبة في المعهد.. وطلب من احد الطلاب أن (يصبغ البارتشنات) لغرض العرض ولما لم يعجبه اللون.. أمره أن يتوقف عن العمل ويتركها بلونها القديم.. الفنان الرائد كان عنده " شطحات " يوظفها إبداعيا.

- وعن النقد التشكيلي في العراق ماذا يقول الفنان سعد الطائي؟

- أرى أن الناقد إن كان تشكيلياً أو موسيقياً أو أدبيا .. عليه أن يعرف حدود إبداعه أي المهتم بالنقد التشكيلي يجب أن يكون رساماً أو نحاتاً أو يشتغل بالفن التشكيلي، مثل شوكت الربيعي ونوري الراوي وشاكر حسن آل سعيد وصلاح عباس وقاسم العزاوي و عادل كامل، وغيرهم وبذا يعرف منطقة اشتغاله بكل يسر..

- ولكن برتون وغارودي وغيرهم لم يمارسوا فن الرسم؟

- هم أصحاب مدارس أدبية، دادائية أو سريالية وغيرها، التشكيليون انظموا إلى تجمعاتهم وليس العكس.

- سؤال أخير لم اسئلك إياه؟

- أتمنى للفنان العراقي أن يوضع في مكانه الصحيح، ويكون متفرغاً للفن، مثلما أتمنى أن تقتني الدولة بعض أعمالهم من خلال وزارتها، كي تعين الفنان مادياً. وعلى النقد الفني أن يبحث عن الفن الأصيل (مو كل واحد يكتبون عنه) وأنا أتساءل: لماذا لا يدخل الفنان العراقي بمنهاج التدريس؟.. إذ أنتج المشهد التشكيلي العراقي المعاصر الكثير من الفنانين الذين لهم بصمتهم حتى في الفن العربي مثل جواد سليم، فائق حسن، حافظ الدروبي، شاكر حسن ال سعيد وغيرهم. لماذا لم يُعتمدوا في المناهج الدراسية ؟

قلت له أنت محق سيدي الفنان، فلماذا يعتمد فقط على الفنانين في الخارج.. بيكاسو وماتيس ومانيه وفان خوخ ... وغيرهم.
لقد كان اللقاء حميماً مع فنان كبير ووظف فنه لخدمة الإنسان والبيئة كان ومازال مخلصاً لهما.

من تخطيطات الفنان سعد الطائي

١٩٦٤

أدب وفـــــن

المثقفون العراقيون يهيبون بالمواطنين أن يشتركوا بوعي ومسؤولية في الانتخابات

بيان المثقفين العراقيين

يتوجه ملايين العراقيين في السابع من آذار 2010 إلى صناديق الاقتراع في أضخم تظاهرة ديمقراطية تمثيلية لاختيار ممثلي الشعب العراقي في مجلس النواب القادم. وتلقي هذه الممارسة الديمقراطية مسؤوليات جسيمة على عاتق المثقفين العراقيين الذين يتعين عليهم أن يلعبوا دورا اكبر في توعية الناس وإرشادهم وتحفيزهم على المشاركة الفاعلة في الانتخابات. وفي الوقت ذاته دفع الناخبين إلى الاحتكام لخياراتهم الخاصة في اختيار نوابهم بصورة حرة واعية وعدم الرضوخ إلى التهديد والإغراء أو الانصياع إلى دوافع عرقية وطائفية وشوفينية. وأن يكون منطلق الناخب نابعا من الحرص على روح المواطنة والتمسك بالهوية الوطنية.

وإدراكا من مثقفي العراق لحجم التحديات الثقافية المنتجة للعنف والجريمة، ومحاولات إلغاء الآخر المختلف، وإعادة إنتاج الاستبداد بديكور جديد، وبذرائع مكشوفة النوايا، تحاول التحكم بمستقبل الوطن، وخلق توجهات ثقافية مشوهة تفقد أجيال اليوم والغد فرصة استثمار التحولات الكبرى بما يخدم البناء الديمقراطي للإنسان العراقي، ويحافظ على قيمة التضحيات الجسمية التي قدمها، فان مثقفي العراق لا يرون أن الخيارات التي أنتجتها التجربة السياسية لما بعد 9 نيسان 2003 قد أعطت البناء الثقافي ما يستحق من عناية، بوصفه أهم مرتكزات البناء المستقبلي لهذا الوطن والتجربة الديمقراطية فيه. حتى بات الاعتقاد راسخا بان الإهمال متعمد لدور المثقف والثقافة في قرارات ذات مساس مباشر بحياة الإنسان العراقي .

ولغرض الوصول إلى قناعات مشتركة ورؤية واضحة لطبيعة الاحتياجات الفعلية الواجب توافرها في هذه المرحلة والضرورية لتفعيل دور الثقافة عبر المؤسسة التشريعية في دورتها الانتخابية القادمة، فإننا نسعى من خلال إصدار هذا البيان إلى:

1. إطلاق صوت المثقف للتأثير الايجابي في خيارات المرشحين والناخبين معاً، وبما ينسجم معه.
2. معرفة موقف القوى السياسية المشتركة في التنافس الانتخابي من هذا الصوت، ومدى تبنيها له.
3. التشجيع على اعتماد صوت المثقف هذا ضمن برامج القوى السياسية والمرشحين المستقلين، بوصفه ضرورة لازمة لمرحلة تتسم بالاضطراب والتداخل الثقافي.

من هنا فان موقف المثقفين العراقيين، بالتأييد أو الرفض، من الكتل والأحزاب السياسية المشاركة في التنافس الانتخابي، يعتمد على حجم تبنيها للمشروع الثقافي وعلى مدى قربها أو بعدها عنه. فمن الضروري الوصول إلى برلمان جديد يعنى بالشأن الثقافي ويمنحه ما يستحق من اهتمام، عبر العناية برسم إستراتيجية ثقافية تشترك فيها أطراف عدة، حكومية وغير حكومية، بما يخدم الأهداف بعيدة المدى في خلق بيئات ثقافية قادرة على مواجهة تحديات التراجع المحتملة في التجربة الديمقراطية العراقية الوليدة. ولا بدّ في هذا السياق من العناية بالمؤشرين الرئيسين التاليين:

1. إن الثقافة العراقية هي ثقافة الدولة الديمقراطية الاتحادية الموحدة، ثقافة التنوع الثقافي الممثل لثقافات العرب والكرد والتركمان والسريان والصابئة والايزيديين وكل مكونات الشعب العراقي، ولها ميادين عمل تختلف عن مهيمنات الدولة الدينية والقومية أو الطائفية.

2. التأكيد على الشخصية العراقية في بنائها الثقافي الإنساني، الشخصية صاحبة الهوية الوطنية، من خلال رفض النزعات المتطرفة التي تتضمنها الثقافات الحزبية الضيقة.

وإزاء هذين المؤشرين فان مشروعنا يؤكد الآتي:

1. ضرورة إدارة المؤسسات الثقافية الرسمية (خاصة وزارة الثقافة) من قبل المثقفين أنفسهم، وإخراجها من المحاصصة بأنواعها ومن التوافقات المبنية على مصالح حزبية ضيقة.

2. إنشاء مجلس (أو مفوضية) للثقافة والفنون والآداب مماثل للهيئات المستقلة المرتبطة بمجلس النواب، ويتسم بالاستقلالية ويعنى بشؤون الإبداع والتنظيم والتخطيط الثقافيين.

3. تمويل منظمات المجتمع المدني الثقافية عبر تشريعات ملائمة تسهم الدولة فيها.

4. تنظيم العلاقة بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية في ميادين إنتاج وحفظ وتنظيم الثقافة.
5. العناية بالبنية التحتية الأساسية للإنتاج الثقافي والفني والأدبي، مثل: المطابع والمسارح ودور العرض وغيرها، وإيلاء عناية بالغة لمقومات ثقافة الطفل.

6. زيادة التخصيصات المالية الممنوحة للقطاع الثقافي في ميزانية الدولة، بما يلبي احتياجاته الحقيقية.
7. العناية بالمثقفين، عبر منح المستحقين منهم حقوقا تقاعدية ومنحا ومعونات مالية للتأليف والتفرغ للإبداع، وتسهيل السفر للحصول على مصادر المعرفة، ووضع برامج سنوية أو لمدد أطول، والعناية باختيار القدرات الثقافية وترشيحها لتمثيل العراق في المحافل الخارجية أو في الداخل.

8. حماية حقوق الملكية الفكرية، واقتراح التشريعات الملائمة والعمل على إقرارها، لتحمي هذا الحق من أي تجاوز.

9. العناية القصوى بحق التعبير وإصدار التشريعات الملائمة لضمانه، وبما يؤمن حق المواطن والمثقف في حرية التعبير عن أفكاره و رؤاه، من دون قيد يدفع به إلى الكتمان، ويعيد مهيمنات القسر ويقود إلى ثقافة الخوف.

10. تشريع قانون للارتقاء بالثقافة العراقية واحترامها، بتأسيس مشروع جائزة الدولة التقديرية وجائزة الدولة التشجيعية.. تمنحان كل عام: التقديرية لأبرز مثقف أو مفكر أو مختص لمن فوق الأربعين من العمر، والتشجيعية لأبرز مثقف أو مفكر أو مختص لمن تحت الأربعين من العمر.

إننا إذ نعّبر تعبيرا حقيقيا وأمينا عن وجدان المثقف العراقي في كل مكان، نأمل أن تتحقق أمانيه من اجل الارتقاء بالثقافة العراقية في العالم كله، واسترجاع أدوارها الناصعة في التاريخ، والأخذ بيد الأجيال الجديدة لإثرائها بالمزيد من الإبداعات المتميزة التي كان العالم ولم يزل ينتظرها منّا نحن العراقيين.

الصوفية في الرسم الحديث
(التجريدية أنموذجا)

د.جواد الزيدي

الدكتور جواد الزيدي / مواليد الشطرة عام 1966 ، حصل على بكالوريوس الفنون الجميلة / بغداد 1997 وماجستير فنون جميلة عام 2000 ونال دراسة الدكتوراه / رسم بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف عام 2005، وهو الآن تدريسي في كلية الفنون الجميلة / بغداد ورئيس قسم الخط والزخرفة ، وعضوا في العديد من الاتحادات والجمعيات الثقافية منها عضو جمعية الفنانين العراقيين وعضو نقابة الفنانين العراقيين وعضو في اتحاد الأدباء والكتاب في العراق وغيرها.... ناقد تشكيلي كتب في الصحف والمجلات العربية والمحلية وألف أكثر من كتاب بالفن التشكيلي ..

يعد الفن الحديث من أكثر الفنون إثارة للجدل والأسئلة، في ضوء تمترسه خلف مقولات فلسفية ورؤى فكرية رافقت منجزه العياني منذ البداية، بوصفها محركات نظرية وموجهات يتحرك من خلالها وعلى أساسها الشكل المتحقق عبر سلسلته الزمنية. ولعل فعل مقولات (أفلاطون وديكارت وكانت وبرجسون) ماثلة بقوة في هذا المنجز، الذي يحتفي بالكثير بما يمكن تأويله والانفتاح على مرجعياته القرائية المتعددة. وتعد الصوفية مساراً فكرياً وروحياً بعيداً عن سياقها الديني والتاريخي، فيما يخص الإنسان المسكون بهاجس التحرر من عالم مادي يشعر أنه يقيده، هي تجربة تصله بذاته العميقة، وبما يتجاوز الواقع الذي يحجبه عن هذه الذات، والنظر إليها على أنها تجسيد لرؤية فنية؛ لا تنفي العالم المادي، بل تنفيه بوصفه حجاباً يحجب الواقع الحقيقي والفعلي، إذ ستكون لتجربتها الفريدة أهمية تجعل من هذه الدراسة ممكنة.
أما التجريدية فإنها موازية للتجربة الصوفية، أو كأنها نوع من التصوف، وقد نعتها البعض (بصوفية الفن)، لاسيما أنها ممارسة للغة متميزة تؤسس مجالات ودلالات ومناخات تتشابه جميعاً مع ما تؤسسه الصوفية بحدود التجربة العملية، فضلاً عن مقولات التجريديين أنفسهم الداعية إلى العودة إلى جوهر الديانات الشرقية، بوصفها منبعاً للصورة ومرافقتهم الثيوصوفيين ومشاطرتهم التفكير العلوي للوصول إلى صورة مجردة.

وللتحقق من أنساق هذه الصورة المجردة وكيفية تجليها في الصوفية والرسم التجريدي تتحدد مشكلة البحث بالسؤال حول أوجه العلاقة والتماثل الصوري بين كلا الاتجاهين.

اختلف الدارسون بشأن الصوفية، بوصفها مفهوماً معرفياً أو فرقة إسلاميةً، شأنها شأن الفرق والحركات التي تحرك الساكن في الفكر والرؤية. وقد كثرت التأويلات حولها وتعددت الآراء. إذ جاء نعتها من لباس الصوف، الذي ترتديه جماعة تزعمها الحسن البصري في القرن الثاني الهجري؛ اقترنت بالزهد والبحث عن الخفي والغيبي. وذهب آخر إلى أنها ترسخت من أصول بوذية أو غنوصية يهودية، أو هرمسية مسيحية، وقيل إنها أخذت من كلمة (Sofia) اليونانية، التي تعني الحكمة[1]. وعلى الرغم من كل ما قيل عن الصوفية فإنها تتجلى في الدعوة إلى الاستبطان والتأمل في الطبيعة

التماساً للحقيقة، والقول بوحدة الكون ورفض الثنائيات والتناقضات، إذ لا يفصح الشيء عن ذاته إلا في نقيضه، إلا أنها، في مجمل بحثها، تدير ظهرها للعالم المادي المحسوس نزوعاً نحو عالم روحي لا مرئي يتصل بالغيب، وما الوقوف عند المرئي إلا وقوفٌ عند السطح والقشرة، أي الظاهر المتجلي، بمعنى أن الظواهر المرئية تجليات لموضوعات غير مرئية ومجهولة.

ومن خلال رفضها للذات الإنسانية فإنها تجد انصهارها بالذات الإلهية حقيقة يجب إدراكها وإيجاد الكيفية التي يتم بها ذلك، وبهذا تتحدد العلاقة بين الأنا والوجود، وبين الذات والموضوع من جهة أخرى، التي ستكون في دلالتها العميقة والأساسية، علاقة معرفة واتحاد بين الذات العارفة والشيء المعروف، وبحسب أهمية المعرفة وحجمها ستتضاءل المسافة بينهما وتصغر فإن " الوجود في الرؤية الصوفية ليس موضوعاً خارجياً، يدرك بأداة من خارج، كالعقل أو المنطق. إن مقاربة الوجود بوساطة العقل التحليلي المنطقي لا تزيد الإنسان إلا حيرة وضياعاً "[2]

وحين تغادر الصوفية الواقع المعيش وتدفع باتجاه الغيبي، فإنها تحاول مغادرة الوعي وزواله من دائرة البحث، وهذا الزوال، أو ما تدعوه بالفناء، يرمز للبقاء في أبهى درجاته وأغناها. "والفناء هنا زوال العائق ومحو الحجاب، وبه يفقد الوجود تعيناته وتحديداته وقيوده، ويعود إلى أصله (اللاتحديد، واللاتعيين) ويتم التطابق عبره بين الحالة الذاتية للعارف والبنية الموضوعية للعالم المعروف، وأن الأشياء الخارجية، بوصفها تعيينات الوجود ماهي إلا روابط وعلائق قائمة على التوهم. وبالفناء يتمزق حجاب الوهم، ويكون الفناء بدءاً من هذا التمزق، وتسقط الأوصاف المذمومة وتتمظهر الأوصاف المحدودة "[3] تلك التي يبحث عنها الرسم التجريدي، حيث نزوعه نحو الخلاص من شوائب الواقع وعوالقه وتشييد واقع آخر يبتعد عن ذلك الذي تم تقويضه.

والفناء، بوصفه معرفة للمطلق، له ثلاث مراحل أو درجات هي: (المكاشفة، التجلي، المشاهدة) تعني المكاشفة، أن المطلق خفي، محجوب بالأشياء ولا يعرف إلا بزوال هذه الحجب، حيث تتم معرفة جمال المطلق (الله) وجلاله، الذي لا يعرف في ذاته، وإنما صور تؤول وتبنى على هذه الصورة. وفي التجلي يكون الحجاب قد زال، حيث يبدو النور الإلهي، ويحدث التجلي إمّا عن طريق التأمل أو مباشرة بهبة من الله، ففي الأولى يخترق هذا النور الجسد ويدخل الروح ولا يستطيع الجسد أن يحركه، والثانية تهيمن الطمأنينة والراحة، وبهذا التجلي تتبدد الظلمات، التي تعتم المسار السري للانخطاف. أما المشاهدة فتفترض أن الحجب، التي تخفي الإلهي زالت، وأن الروح أضيئت بالتجلي، فلا تبقى غير الرؤية، فالمشاهدة معرفة مباشرة، حاصلة بشهادة عينية وحضورية، ولئن كانت تكمن في كشف الغطاء، الذي يحجب النور الإلهي، فإنها انعكاس أو حضور هذه الأنوار في القلب.

إن الصوفية تتمثل في رؤية إشراقية للإمساك بحقيقة الأشياء، وحين يتجلى المطلق لا ينقطع ولا يكرر ذاته، فإن قلب العارف الذي يوازي الذات العارفة الخلاقة لدى الرسام، يخلق كل لحظة كذلك الشأن في الوجود. فالعالم الذي نراه هذه اللحظة أمامنا ليس العالم نفسه، الذي رأيناه في لحظة سابقة، إذ إنه يتغير باستمرار طبقاً لفعل تجلي الصورة، التي تحاصر المخيلة لدى المتصوف أو الرسام على السواء. وما يصح على العالم يصح على قلب العارف، وعلى الإنسان، إذ لا ماهية ثابتة، العالم تحول دائم، وشأن الجماد في ذلك شأن ما هو حي.

تشيُّؤ الصورة بين الصوفية والتجريدية

تلج الصوفية الروحي والصوري بقوة في بحثها عن المطلق عبر طريق معرفي تجريبي، غير عقلي منطقي، وقد أغنت طروحات المتصوفة هذا الحقل، إذ "تمثل الصورة واحدة من المسائل الأساسية المطروحة في التصوف، كما يمكن التعبير عن الغيبي المتجاوز، وبحسب أية معايير نترجم بمفردات المرئي، تجربة يقيم أفقها في الغيب الغائب، وهذا يحيلنا إلى تجربة الرؤية ونشاط المخيلة ودخول الصورة العقلية في المشهد[4]، هذا كله يجد مداه في الموقف الجمالي والكيفية التي نقدم بها شيئاً غير قابل للتمثل برجوعنا إلى أدوات المحاكاة، الرسم والنحت، هذه الحوامل،التي تستقبل

الصورة المحسوسة، وأن سؤالاً أساسياً يسكن اللاهوت: شرعية التعبير عن الله من خلال هذه الحوامل أو انعدام شرعية ذلك، وهذا يقودنا إلى البحث عن الصورة الغيبية المماثلة لنصنع شبهاً وتأويل ما هو خارج المنال بالمفردات التي تقع في المتناول وتفسر الغائب بمفردات حسية وكل شيء مرتبط بالمطلق (الله).

وبما أن الله لا شكل له ولا صورة يمكن للذاكرة أن تدركهما ينتج عن هذا أنه حين تكون الروح متحدة بالله، فهي أيضاً لاشكل لها ولا صورة، ويظل الخيال ضائعاً والذاكرة غارقة، من دون ذكرى عن أي شيء، لأن هذه الوحدة الإلهية تفرغ الروح من وهمها، تنظفها من جميع الأشكال والمعارف وترفعها إلى الغيبي، أو ما فوق الطبيعي. ويميز (ابن عربي) بين الخيال المتصل والخيال المنفصل "فالأول يقود إلى الرؤية الطبيعية، والثاني يمكن من دخول مجال الرؤية الغيبية"[5]. ومن هذا يبدو أنه محبٌ للصورة، لأن تجربته تدعوه إلى الذهاب بعيداً في اختراق الممنوع، الذي يصوغه الشرع المنتمي هو إليه. ويعلل ذلك بوصفه للخيال بأنه أوسع الحضرات، لأن الله نفسه لايقبل الصورة ، وقد يتجلى بالصورة في حضرة الخيال، الذي يصور ما ينفي العقل إمكان تصوره، ولاتوجد واسطة بين الخيال والمطلق، أو بينه وبين المحسوس، إنه نقطة لقاء، يهبط المطلق، ويصعد المحسوس، وإن الخيال في هذه الحالة هو الحضرة، التي يتجلى فيها المطلق، أو هو حضرة التجسد " وإن الحقيقة الكونية بالنسبة إلى ابن عربي، ثلاث مراتب: علوية وهي مرتبة التجريد أو المعقولات، وسفلية وهي مرتبة الحس والمحسوس، وبرزخية وهي الجامعة الواصلة بين هاتين المرتبتين، أي أنها معقولة – محسوسة في آن، وتلك هي مرتبة الخيال والمتخيلات"[6].

وتعد الصورة وسيلة انتشار يسهل حضورها في العالم؛ ثقافة تنتقل من خلال وفرة الصور، يتوسع المذهب الذي تمثله، نرى إليه مدفوعاً بفعل منطق نظامه هو، والضرورة الوجودية لتجربته، إلى اتخاذ موقف معادٍ للصورة موضوعياً، والمعرفة الحقيقية هي معرفة الشيء من داخل، ذلك أنها تلغي المسافة بينه وبين العارف وتتيح للعارف تحقيق ذاته، فلا نعرف الوجود إلاّ بالشهود وفقاً للمصطلح الصوفي، أي (بالحضور أو الذوق، أو الإشراق). لذلك تتيح لنا الصوفية والتجريدية في جميع الحالات أن نقرأ في ضوء الآخر غياباً-حضوراً. غياب الإنسان وحضور الإله، غياب القلب وحضور العقل، غياب الطبيعة وحضور الصناعة. ولكن هل تصل التجريدية إلى هدفها الأساس، بوصفه هدف الصوفية نفسه، أي وحدة التناقضات ، أو وحدة الوجود، بمعنى التوحيد بين الذات والموضوع، العالم الخارجي والمعرفة الداخلية، وأن المؤالفة بين المطلق والأشياء، بين الباطن والظاهر، بين الشعور واللاشعور، هي التي توسع حدود الوعي والمعرفة، وبالإشراق تتحدد هذه المؤالفة، لهذا كانت المعرفة الإشراقية أعلى درجات المعرفة.

تعلمنا التجربة الصوفية أن الذات تعبر عن الحقيقة، أو ما نظنه أنه الحقيقة، لا يستنفدها، بل إنه لا يقولها، وإنما يشير إليها أو يرمز. فالحقيقة ليست في ما يقال، في ما يمكن قوله، وإنما هي في ما لا يقال، فيما يتعذر قوله، إنها في الغامض والخفي اللامتناهي، أي حين نفصح عن شيء ما تشكيلياً، أن نصوره، هو أن نقدم عنه صورة تغاير صورته العينية الظاهرة، وأن نقلب صورته. " فالحس فنياً بالأشياء لا يبدأ إلا بنشوء مسافة بينه وبين واقعها الظاهر المباشر، لأن العالم فنياً ليس موجوداً في العالم بل في ما وراءه، هو بالضرورة نوع من التجريد، كأن المصور المبدع يصور لكي يمحو (الصورة)، وبهذا المحو يخلق حضور نسيج شفاف لا يحيل إلى الواقع المباشر، بل إلى معناه ودلالته"[7]. وبما أن الصوفية موقف لتشويش نظام العالم الظاهر وأدوات معرفته، فإن الصوفي لا يقيم علاقات عقلية مع الطبيعة وأشيائها، وتصبح لديه مجمع للرموز والصور والإشارات، وهذا ما ينطبق على فهم التجريدية للواقع المعيش، الذي تراه إشارات ورموزاً مجردة تتحرك دلالتها في ضوء العلاقات الباطنية المدركة والمعبرة ، حين تكون العلاماتية مبدءاً تستأثر به لإنتاج المعنى.

إن اللوحة التجريدية تعد كينونة بحد ذاتها، لا تحتاج إلى شيء خارجي، كما أن المعنى محمول على الشكل، بوصفه لحظة من لحظات تجلي المعنى ناتجة عن طريق سلطة الحدس، بما يهيّئ قدرة على الإدراك الفني، الذي يفتح الباب واسعاً على معاني الحياة العميقة، مما قاد التجريدية إلى تمجيد الذات وجعلها الشكل يتماهى مع المتخيل من خلال

العلاقات التي تثيرنا دون الموضوع المباشر، وإقصاء العالم الخارجي والدعوة إلى تكريس الأشكال الكونية على هيأة ألوان وأشكال. وحين يلجأ الفنان إلى التجريد، فإنه يستبدل المعالم المميزة لحقائق الأشياء بأخرى تدعونا إلى تأملها على هيأة مجموعة من الألوان، لأن التجريدية تتقصد البحث عن جوهر الأشياء، لذلك سميت (صوفية الفن) وبإمكانها أن تنشيء واقعاً آخر في بحثها عن الحقيقة لإيمانها بزيف الواقع الفعلي. ويقول (برانكوزي)* بهذا الصدد " إن الجمال هو عدالة خالصة "ولا جميل إلا الحقيقة " إذ يبدأ باختزال أشكاله المنحوتة، ليصل إلى أشكال هندسية لتكون حقيقته الجوهرية" [8] . ويعتقد جميع التجريديين، بأن في الفن التجريدي إمكانات للتعبير عن الانفعالات الباطنية العميقة أكثر مما في الفن ذي الموضوع، تدعو الفنان إلى الانسحاب إلى داخل الذات بعيداً عن صخب العالم. "ويقرن البعض ذلك بالخوف الميتافيزيقي للشعوب؛ مما يجعل الفنان فيها يتجاوز أو يحاول أن يتجاوزحدود الطبيعة والواقع المادي، سعياً وراء اللامتناهي، المطلق، الأبدي [9] .

ولأن المطلق هنا فكرة سامية، اتجهوا نحو المجرد والقصي والغيبي بدلاً من الواقع الفعلي، بما ينعكس من خلال التطور الكلي للفعالية الذهنية، التي تبدأ من الإدراك إلى إعادة التمثيل، وذلك يعني الموازنة بين تحويل ما هو بعيد من الحقائق إلى أفعال ثابتة وإعادة تشكيلها كحقائق ذهنية. في إشارة إلى أن الواقع المجرد الوهمي يمكن أن يتحول إلى شيء من الحقيقة، حينما يمارس الذهن فعاليته التحليلية عليه، إذ يستحضر التفكير صوراً، والصور تحتوي على فكر. ويعتقد (بول كلي 1879-1940) أن الفن يلعب في الأشياء العلوية، وقد ينتهي به الأمر إلى بلوغها أحياناً، وما الأشياء المرئية إلاّ أمثلة جزئية في الوجود الكلي، " وإن الحقائق لاتدرك بفعل الحواس، وعلى الإنسان أن ينمي قدراته لاستخدام وسائل أخرى للمعرفة انطلاقاً من فعل الروح، التي تتخذ شكلين، فتصير مادة مرئية، الفضاء روح، والشكل المعتم روح"[10]. ويتحول الفن التجريدي عندها إلى علامات شكلية، طبقاً لانتماء الإمكانية المجردة إلى عالم الذات، وتُصبح ممارسة عبادية كما يفعل الصوفي حين يطهر جسده أولاً ويكبح رغباته في محاولة للصعود مع الروح إلى مكان الجمال المثالي أو فيه نوع من التماهي مع الحرية الفردية، والسعي إلى اكتشاف الحقائق بمعناها السامي. والفن التجريدي سعيٌ إلى وضع فاصلة بين التيارات الموضوعية التي انتهت إلى تكريس الشيئية، في حين انفتح هو إلى ما لا نهاية على الشيئية.

ملامح الصوفية في الرسم التجريدي

وبتحريك مسار الصورة وتحولاتها، نجد أن هناك أوجه شبه بين التجربتين الصوفية والجمالية، تلفت النظر إليها، لا في أهدافها، بل في طرق التفكير الفعلية حين تدخل مرحلة العمل، وكذلك في بعض آثارهما، وتفسر هذه التقابلات دليلاً واضحاً على الترابط التشابهي بين التجريدية والصوفية، وأن الأنا البسيطة، بوصفها مركزاً للوجود الروحي، هي التي يحدث اختطافها ووضعها موضع الحركة، على أن هذا التمييز بين نوعي الأنا هو القاعدة الأساسية للسيكولوجيا الصوفية، وهذا ما يلغي الحدود الفاصلة بين الأنبياء والشعراء لدى أفلاطون " أنه ما من إنسان بقادر على قرض الشعر الجميل، إن لم يكن الإله أمسك به"[11].

وعلى الرغم من أن الفن الحديث أعلن قطيعته مع كل ما هو خارجي، فإنّه أعلى، في الجانب الآخر، من شأن الذاتي والجوهري والخالص، مما جعل تلك المفاهيم تلتقي مع المقدس والديني، فقد دعا التجريديون إلى العودة للديانات الشرقية القديمة لاستخلاص إنموذج فني جديد. وكانت مقولة (رودان)** "عندما يضيع الدين يضيع كل شيء" خلاصة البحث وهاجساً يفتح الباب أمام قراءات جديدة. فالدين لديه (الشعور بالمجهول) وهو ما بحث عنه الفن التجريدي عبر تمرحلاته الزمنية. ويتحدث (هنري ماتيس 1869-1954) في موضع آخر عن العاطفة الدينية التي يمتلكها ويأخذها من الحياة وعن الصفة المقدسة لكل شيء حي "ها نحن أولاء بعيدون عن الله أو عن الآلهة، عن كل مذهب وعقيدة وطقوس، وبالاختصار نحن بعيدون عما يفهم عادة من حكمة الدين"[12].

وقد اجاب "ماتيس" عن سؤال ألقاه عليه مصور آخر "نعم أؤدي صلاتي وأنت كذلك، وتعلم هذا تماماً عندما تسوء الأمور ونلقي بأنفسنا في الصلاة لنجد جو الاتصال بالله.. وأنت تفعل هذا أيضاً"[13]. ولكن التجريديين المتأخرين جسدوا مع ماتيس مفاهيم دينية صوفية وكان أبرزهم (كاندنسكي وموندريان ومالفتش وبرانكوزي)، إذ أنجز (فاسيلي كاندنسكي 1866-1944) عمله الكبير (تكوين رقم 7) في أواخر عام 1913م مستثمراً مادة البقاء في موضوعاته، التي بلغت الذروة في سلسلة لوحاته (يوم الدينونة، والطوفان، وعيد القديسين) وتكوينات أخرى مماثلة، ليطرق معنى الرسم من زاويتين (نفسية وروحية)، إذ ناقش طويلاً التأثيرات التي تخلقها الألوان فنياً، داعياً إلى ما يشبه الإجماع على اقتراحه القائل: "إن اللون الأزرق لون سماوي"، ولكونه مسيحياً أرثوذوكسياً ذا قناعة دينية راسخة آمن، مثل العديد من أبناء جيله، بالحاجة إلى انبعاث روحي في الغرب، الذي سيطرت عليه النزعة المادية، وذهب أبعد من ذلك بإزاء إعتقاده بأن في الإمكان تحقيق ذلك بدراسة تعاليم الديانات الشرقية القديمة***، التي تقبلت التمازج المادي والروحي، " وحظيت محاولة كاندنسكي بالتخلي عن التشبيه في رسمه أهمية بالغة كان مقدراً لها أن تكون سبيلاً إلى نوع جديد من الفن الديني، له مغزى إنساني عظيم بكثير مما تحقق حتى ذلك الحين " [14].

لهذا تكتسب الأشياء حياة روحية لا شعورية لدى (كاندنسكي)، ويعد ذلك من محمولات الفن التجريدي، الذي تتحكم بمنتجه قوة عظمى أسماها "الضرورة الداخلية" بعدما كانت الأشكال الطبيعية موضع اهتمام الفن الكلاسيكي، التي تقيم عوائق أمام التعبير الحر عن هذه الضرورة، إذ يجد لها الفنان تكوينات إنشائية تتساوق مع ذلك الدفع الداخلي، وإن المهم في الفن هو الشكل الذي يخفي مضمونه النصي وراءه، ويكون هذا المخفي أقل جاذبية للعين، ولكنه يتجه نحو الروح، بما يعكس حضور المعاني المخفية، بالرغم من غيابها الخارجي، حيث تتضح لعبة الحضور والغياب وارتباط كل منهما بالآخر ضمن ثنائية جدلية، أي إن " لكل رائعة من روائع الفن مغزًى روحيًا، فهي جميعاً دونما استثناء صادرة عن ذرى التجربة"[15]. ولتأكيد هدفه الروحي وعلاقته مع الواقع الخارجي يشير إلى علاقة الكون وموسيقى الأجرام في مغزى التعبير عن الروح السرية، وحينما تخلى عن الرسم التماثلي، لم يحلم بأن يدير ظهره للطبيعة، بل سعى للتوحد معها، "إذ إن الفنان التجريدي لا يمارس أسلوبه بمنأى عن العالم المعيش، وأنه لا يعبر عن شيء سواء نفى أو رفض العالم. وأن اللوحة تحمل دائماً شيئاً ما للوصول إلى معنى أو التعبير عن حقيقة، لا أن يقدم تمثيلاً صادقاً للأشياء، ولكنه يقدم نظاماً جديداً من المعادلات؛ يحكم العلاقات التقليدية بين الأشياء ويدخلها في علاقات جديدة تبدو له أكثر صدقاً، ولذلك فإن الحقيقة في التصوير صدق باطني يمكن اتساقها مع ذاتها"[16].

وتأثر (كازيمير ماليفتش 1878-1935) بالنظرة الصوفية للفن، وتعلق بها كثيراً، إذ استوحت رسومه شكل الصليب ونقاء اللون الأبيض، وأدرك أن الموضوع لا معنى له، كما أن الأفكار القادمة من الفكر المدرك لا قيمة لها، والشعور هو العامل الحاسم، لذلك فإن الرسم التجريدي يصل أعلى قيمة في السوبرماتزم Supermatism ****أو التفوقية ليغادر الواقع وعوالقه بحثاً عن جمال خالص يبلغ من الصفاء درجة قصوى، ويرى أن لا شيء له واقعية سوى الحساسية، لا الحساسية بالنسبة للإنسان، بل بالنسبة للأشياء، مثل لوحته مربع أبيض فوق مربع أسود، حيث يصفها بصورة الليل البهيم الذي شعر به في أعماق نفسه، مشيراً إلى أن الحقيقة في الفن ليست شيئاً آخر سوى فعل اللون على الحواس، وأن المعرفة النقية بدون أشياء تبعد التواردات والتأثرات ولا تعترف بغير المطلق، وهو سعي لاختزال كلي للعالم التمثيلي، جاعلاً من المربع شكلاً نقياً يصفه بقوله (المربع طفل ملكي وحي) إشارة إلى تكاملية المربع ورمزيته وقدرته التوليدية لأشكال جديدة.

وليس ببعيد عن هذا كانت صلة (بيت موندريان 1872-1944) بالثيوصوفيين ومشاطرتهم الاهتمام بالديانة الشرقية واعتقادهم بأن هذا النبع، وحده، كفيل بأن يجد الانبعاث الروحي العظيم، ذلك البناء الثلاثي السحري جسده بثلاثية التطور المرسومة عام 1911م وهي (صورة مذبح ثيوصوفي)، فضلاً عن تأكيده اللون الأزرق السماوي، لذا عبر عن قناعاته الشكلية، لأنها تأخذ الفن إلى أبعد مما هو شخصي" أنها تهدف إلى إلغاء الأنا في الفن، وهذا الإلغاء بات هدفاً

رئيساً لموندريان، على الفن أن يعنى بالقوة الشاملة فنياً، يردد أفعالنا العميقة غير الواعية بالعالم الذي نسكن فيه، إن التشكيلة الجديدة تسعى إلى تحقيق التوازن والانسجام" [17] وهذا ما يفسر نظرته إلى القيم المتعادلة (المادية والروحية) المنسجم بعضها مع بعض فتكون كلاً موحداً غير منفصل عن بعضه، وأمضى عامين يطبق أنساقاً جديدة عن (التصوف الايجابي) أو (الرياضيات الشكلية)، التي تعمد إلى اختزال الكون إلى أشكال هندسية أفقية وعمودية تلك التي تعلمها من صديقه القس (شونميكوز)، فيصبح الفن وسائل مدركة كالرياضيات تماماً؛ يستطيع فيها تقديم الصفات الأساسية للكون، وفي بحثه عن صفة التعامد بين الخطوط الطولية والأفقية يعكس الحقيقة الرمزية لصفة السلطان والهيبة لإسلوب الخلق الإلهي، مما يعني إظهار التوافق من حيث الرؤية الجمالية الإلهية مع التجريدات الهندسية.

* نحات فرنسي رافق تأملات كاندنسكي الأولى في الفن الروحي.
**نحات فرنسي حداثي.
***يعتقد الباحث أن حيرة كاندنسكي بإزاء هذا الموضوع تلقفها شاكر حسن آل سعيد وأجاب عنها باستثماره جوهر الفكر الصوفي ليشيد على أساسه نصه البصري.
****وتعني أولوية الاحساس الصرف، وقد بدأ برسم مربعات سوداء على أرضية بيضاء وبلغ الصفاء برسم مربع أبيض على أرضية بيضاء.

الهوامش

1. للمزيد عن التسمية والنشوء، ينظر: النشار، علي سامي، المصدر السابق، ص122.
2. أدونيس: الصوفية والسريالية، دار الساقي، بيروت، ط2، 1995، ص39.
3. بتصرف عن أدونيس: المصدر السابق نفسه، ، ص41.
4. المؤدب: عبد الوهاب الصورة والغيب، مجلة الكرمل، دار الكرمل، ع13، 1984، ص137.
5. المصدر نفسه، ص147.
6. أدونيس: المصدر السابق نفسه، ص75.
7. ينظر، إبن عربي، محيي الدين: فصوص الحكم، نشر الدكتور أبو العلا عفيفي، القاهرة، 1946، ص41
8. ريد، هربرت: الموجز في تاريخ الرسم الحديث، ت لمعان البكري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989، ص 58.
9. ينظر: هيث، أدرين، الفن التجريدي ، أصله ومعناه، ت محمد علي الطائي، مكتبة اليقظة، بغداد، ص8.
10. عطية، نعيم: خمسة فنانين كبار، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968، ص56.
11. باونيس، آلان: الفن الأوربي الحديث، ت. فخري خليل، دار المأمون للترجمة، بغداد، 1990، ص201.
12. برتليمي، جان: بحث في علم الجمال، ت. أنور عبدالعزيز، دار نهضة مصر، 1970، ص574.
13. برتليمي، جان المصدر السابق نفسه، ص577.
14. باونيس، آلان: المصدر السابق، ص204.
15. أليوت، الكسندر: آفاق الفن، ت. جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1979، ص39.
16. ينظر: توفيق سعيد: الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص230.
17. كورك، جاكوب: اللغة في الأدب الحديث، ت. ليون يوسف وعزيز عمانوئيل، دار المأمون للترجمة، بغداد، 1989، ص202.

المصادر

1. آل سعيد، شاكر حسن: الأصول الحضارية والجمالية للخط العربي، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط1، 1988.
2. أدونيس: الصوفية والسريالية، دار الساقي، بيروت، ط2، 1995.
3. أليوت، الكسندر: آفاق الفن، ت. جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1979.
4. باونيس، آلان: الفن الأوربي الحديث، ت. فخري خليل، دار المأمون للترجمة، بغداد، 1990.
5. برتليمي، جان: بحث في علم الجمال، ت. أنور عبدالعزيز، دار نهضة مصر، 1970.
6. بعلبكي، منير: المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1996.
7. إبن عربي، محيي الدين: فصوص الحكم، نشر الدكتور أبو العلا عفيفي، القاهرة، 1946.
8. توفيق سعيد: الخبرة الجمالية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1992.
9. ريد، هربرت: الموجز في تاريخ الرسم الحديث، ت لمعان البكري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989.
10. الصراف، عباس: آفاق النقد التشكيلي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1979.

11. عطية، نعيم: خمسة فنانين كبار، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968.
12. كورك، جاكوب: اللغة في الأدب الحديث، ت. ليون يوسف وعزيز عمانوئيل، دار المأمون للترجمة، بغداد، 1989.
13. المؤدب: عبد الوهاب الصورة والغيب، مجلة الكرمل، ع13، دار الكرمل ، 1984.
14. النشار، علي سامي: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج3، دار المعارف، مصر، 1978.
15. هيث، أدرين، الفن التجريدي ، أصله ومعناه، ت محمد علي الطائي، مكتبة اليقظة، بغداد.

****

انحسار النقد المتخصص في الموسيقى العربية
أسباب ومعالجات

ســامي نسـيم عـداي

سامي نسيم عداي عضو اتحاد الموسيقيين العراقيين، عضو اللجنة الوطنية العراقية للموسيقى وأستاذ العود في معهد الدراسات الموسيقية، وهو مؤسس ومدير فرقة منير بشير للعود. حاز السيد سامي نسيم عداي على عدة جوائز منها الجائزة الأولى بمسابقة العود الدولية التي أقامها المجمع العربي للموسيقى /بيروت عام 2000. كما له مشاركات في مؤتمر ومهرجان الموسيقى العربية في القاهرة للأعوام 1997 و2005 و2006 ، إضافة الى مشاركات عالمية وعربية في محافل دولية موسيقية/ موسكو /فينا /صوفيا /كركاس/ مصر/تونس /لبنان /الأردن /السعودية.

مدخل:

لو كنا أكثر تجرداً وحيادية، وعقدنا مقارنة موضوعية بين واقع النقد الموسيقي العربي المتخصص ومستوى تطوره مع الفنون العربية الأخرى وفي مقدمتها الفن الشعري والمسرحي والتشكيلي والسينمائي. لوجدنا أنفسنا أمام هول صدمة كبيرة على أثر المقارنة من حيث الكثير من النكوص من قبل الناقد الموسيقي المتخصص بالموسيقى عامة والعربية على

وجه الخصوص. ويكمن ذلك في قلة المنجز النقدي، وقيمته الفنية وجدواه على أرض الواقع، ومواكبته لركب التطوير في هذا المجال الحيوي والهام. كذلك اقتصار النقد الموسيقي على مؤتمرات الموسيقى وندواتها وليس كونه مشروعا دائما يسير جنباً الى جنب مع الحالة الموسيقية في أرجاء الوطن العربي والعالم .

ولأهمية النقد والنقاد يجب الوقوف على معوقات العمل ومسببات تدهوره في الوقت الراهن. وكذلك تشخيص السبل لمعالجته وتطويره بشكل علمي معتمدين على الأسس العالمية في هذا المجال. إن التقدم الحاصل في النقد الموسيقي في العالم وترديه عندنا بمقارنته بالفنون العربية الأخرى كما أسلفنا يعد ظاهرة خطيرة تعطل مسيرة وتقويم الموسيقى العربية الرصينة، لاسيما وأن النقد الموسيقي التخصصي الملتزم بقضايا الموسيقى ومنهجيتها وثوابتها ومدارسها هو صمام الأمان الأكبر للحد من انتشار هبوط الوعي الموسيقي وعبثيته الحاصلة. وكذلك الوقوف بوجه التردي الموسيقي عن طريق الانجرار وراء الغث والسمين والغريب على جسم الموسيقى العربية. والنقد هو الذي يفتح آفاق تطويرها بما يرتقي بها، عبر تسليط الضوء على منجز أجيال من عباقرة الموسيقى العربية الجادة الذي حاولت أجيال معاصرة هجينه ضربه عرض الحائط لتنسفه من الجذور عبر سياسة التسطيح والتبسيط والأضواء الخادعة الصورية. ونقصد هنا بالتسطيح والتبسيط هو سوقية كلام الأغاني وسذاجة اللحن. فلقد أضحى التقدم الحاصل بالأجهزة السمعية والمرئية كارثة وعاصفة تفتك بروح الموسيقى العربية عن طريق الإبهار بالمؤثر الصوتي والضوئي والجسدي عبر القنوات الفضائية التجارية وشبكة الانترنت وأجهزة الهاتف المحمولة المتلفزة وغيرها. فما أحوجنا للنقد المتخصص والنقاد في هذه المرحلة الحرجة من حياة موسيقانا العربية. فلابد أذن من وقفة حقيقية لمعرفة المعوقات أمام النقد الموسيقي المتخصص وتذليلها.. ليقوم بدوره التربوي والفني وينهض بمهامه الجليلة .لاسيما وأن تلك التطويرات التقنية لها سلبياتها. وايجابياتها في ذات الوقت. نحاول تسليط الضوء عليها في بحثنا النقدي هذا من مسببات، ومعالجات وتوصيات.

المسببات:

بدءاًُ لعل أبرز المسببات بشكل عام وليس بشكل خاص بالموسيقى تحديدا هو ظاهرة عامة وليست خاصة، وهي الابتعاد والعزوف عن عالم (الكتاب والمطالعة) حيث نتفق جميعا مع الباحثين في هذا المجال أن عصر المعلوماتية والتقنيات الرقمية وصناعة البرامجيات soft ware والتطوير الحاصل بأجهزة التوصيل يشكل منعطفا كبيرا. لاسيما وأن خزينة وزينة العصور الماضية هو الكتاب الصديق الأقدم للإنسان، حيث عرفنا أن ظاهرة حمل الكتاب حتى للذي لا يقرأه زينة ومفخرة مقبولة لا بأس بها.تعود عليه بالنظرة المحترمة. وكذلك مكتبات المنازل الكتبية والصوتية فهي ترفع من قدر البيت وقيمته الاعتبارية. والتغيير الحاصل من حولنا أنه أصبح (اللابتوب) والبث الرقمي digital Brodcating و(الهاتف المحمول التلفزيوني) هو بديل للكتاب وزينة الإنسان المعاصر، متباهيا بآخر صيحاتها وتقنياتها. كذلك الاتصال الصوري المباشر مع الآخر عبر هذه الأجهزة الدائمة التطوير تحول دون التواصل مع أفكارهم بالكتب والمقالات. ويعد هذا هو أحد المسببات الرئيسية لتدهور المجال النقدي بنسبة معينة ومؤثرة بشكل كبير، على الموسيقى وكذلك الفنون الأخرى التي أصبحت ذاتية مثل الشعر والرواية والمسرح والسينما. لابد إذن من تطويع هذه التقنيات والبرامجيات للنقد الموسيقي المتخصص المعاصر ليواكب التطوير الجارف من حولنا وتفعيل دور النقد والنقاد ليركبوا الموجة وليس الغرق تحتها وعدم انكفائهم لكون لغة العصر وأسباب توصيلها قد اختلفت وتغيرت معالمها وأشكالها تحت وطأة المتغير، فأصبح النفور من طرفي المعادلة واضحا بين الناقد التخصصي والمتلقي، وهو غياب القارئ المتتبع وتوقف وقنوط النقد المتخصص لكونه يرى عمله ضرباً من العبث أمام هذه التيارات العارمة. ماورد هو سبب واحد من أسباب أخرى ، ومنها الأعمال الموسيقية والغنائية التي لا تخضع لمعايير فنية وعلمية بنسبة كبيرة.

وبذلك تكون عملية قراءتها نقديا مغامرة خيالية...فهذه الأعمال تبنى وفق أمزجة خاصة لا تعتمد على الأشكال المتعارف عليها بالموسيقى العربية، بل هي إثارات صورية ليزيرية ودهشة بهلوانية ليس لها قيمة موسيقية تذكر، وهي بعيدة كل البعد عن أسباب بناء الموسيقى التي تعتمد على الأصول الفنية ذات القيمة الفنية التراثية والتربوية القائمة على أسس علمية. وبذلك فقد النقد الموسيقي التخصصي أهم أسباب وجوده وهي المتابعة العلمية وتشخيص مواطن الإيجاب والسلب ومكامن الإبداع و الابتكار في العمل الفني، حيث أن الكثير من الأعمال الرديئة لاتحتاج ناقدا حذقا يشخص أسباب ترديها بل أن أبسط ذائقة تلفظها وتنفر منها، مما حدى بالناقد الموسيقي أن يعيش حالة من الاغتراب والتشاؤم ولايريد أن يقحم نفسه في عالم من المجاملات والدعاية المجانية لأشباه الفنانين. ويظهر في حال تصديه لها بموقف المدافع عن أصول راقية انحسرت من ذاكرة الناس المعاصرين. لو أخذنا على سبيل المثال أن نقد أي عمل موسيقي من التراث الخالد للموسيقيين العرب محمد عبدا لوهاب.. رياض السنباطي..محمد القصبجي..بليغ حمدي..أحمد فؤاد حسن..عبدو داغر..عمر خيرت وحتى جميل بشير..ناظم الغزالي.. والأخوين رحباني وصباح فخري وقامات موسيقية

كبيرة أخرى، كلها تخضع لمنهجية علمية موسيقية مشتركة أساسها تعدد المقامات العربية وتداخلاتها وإيقاعاتها البسيطة والمركبة وابتكاراتها وكذلك القصائد لشعراء كبار، بحيث أن الأعمال تكون مستوفية لكل شروط العمل الفني الجاد الرصين، فيجد الناقد مبتغاه بالإشارة الى قيمة العمل وثرائه من مقدماته الى نهاياته. ولكن الأعمال الحداثوية غير مبنية على أي تقاليد وأصول فنية حقيقية، فهي خليط من ضجيج وجمل مقتضبة هجينة هندية وتركية ومما لا ندري .. يقف النقد عاجزا أمامها لاتساع مساحة الجهل والتخلف فيها ولا تستحق أي جهد لقراءتها، بنقد متخصص لفقدانها عناصر الفن الموسيقي الأساسية الخاضعة لمدارس وأساليب لحنية راسخة. ولا يعبر عنها بسوى كونها (عمل رديء فاقد للخواص الفنية). ونذكر هنا رأي للناقد المتخصص (آر.أج ولنسكي) حيث يقول: " أن المسؤولية الخاصة بالخدمة التي تقدم للنقد الفني تقع على عاتق الفنان وليس على النقد".

في ظل الصراعات الحضارية والصرعات الحداثوية وغياب المقاييس ونحن أمة تتلقف كل جديد وغريب دون وعي. وأغلب الثقافات الوافدة تجد صداها عندنا ونكتشف بعد حين أن المقصود بها لدينا هو غير المقصود به في بيئتها وظروفها التي ولدت بها..فالنقد الموسيقي العربي المتخصص والموسيقى الأصيلة تمر بسنوات عجاف. وماهو مطروح على الساحة ليس بمستوى التصدي له نقديا ..وإذا كانت هناك شذرات إبداعية من أنشطة موسيقية ذات قيمة أبداعية عالية لم يسلط الناقد الموسيقي مصباحه النقدي عليها فالأمر عائد للأسباب الأولى التي ذكرناها. ولكون أن الناقد أصبح بمنظور عالمي جديد هو منتج عمل فني فيه كل عناصر المتعة الفنية التي تحظى بالمتابعة من متذوقي الموسيقى الجادة، ودوره يُعَدُّ جهاديا وتربويا، يكاد يكون موازيا لدور الفنان الملتزم المنتج . فالناقد الموسيقي المتمرس تربت ذائقته النقدية على منجز فني راقي المستوى يستمد قيمته من أساطين الموسيقى العربية والعالمية ويبني أفكاره وفق تجربته وثقافته التي نهلت من كنوز فنية ذات قيمة عالية. ولابد من الإشارة الى أن الكثير من النقاد أصحاب التجربة الطويلة في مجال النقد الموسيقي المتخصص قد أرسوا مفاهيم نقدية معتبرة لجيل الشباب. ولكن الفجوة كبيرة بين ما هو خلاّق ومبدع وماهو يحمل معول الهدم والتدمير لكل ما بناه الرواد من صروح موسيقية يعجز عنها جميع المتحاذقين، فآثروا السهل الفارغ من القيمة الفنية، والذي يعتمد على البهرجة والإعلان الضوئي والصوري.

أن الموسيقى فن وعلم ولابد من نقد ومعالجة مواضيعها بفن نقدي متطور أيضا، وليس بالسخط والنفور من توقف مجال حيوي هام مثل النقد وتحميله المسؤولية كاملة بكل مايحصل على الساحة الموسيقية من تردِ وتدهور وتبرئة ساحة الأطراف العابثة الأخرى. فالذين يسرقون الآثار القديمة بقصد المتاجرة يحاسبهم القانون أشد حساب. وكذلك العابثين بالممتلكات العامة، ولكن الذين يشوهون ويضرون بالذوق الموسيقي والفني العام، ويعبثون بتراثنا القومي.. يصفق لهم وينالون التكريم والأموال والشهرة من قنوات فضائية شاركتهم العبث ذاته. فما حيلة الناقد أمام هذه المافيات التي تسيء للذوق الموسيقي والفني العام . ومسبب آخر لغياب النقد المتخصص وديموته هو ندرة الكوادر الموسيقية التي تمارس العملية النقدية من الشباب وتكاد تكون معدومة في كثير من البلدان العربية ومرد ذلك لقلة الدعم والتشجيع لهذه الكوادر الفتية. وعدم التواصل من جيل الرواد في تهيئة قابليات شابة للمستقبل في مجال النقد الموسيقي مما خلق فراغا نقديا تخصصيا سيكون له أثر سلبي كبـــير في المستقبل القريب للموسيقى العربية الجادة.

وبناء على ماتقدم يمكننا تلخيص معوقات النقد الموسيقي المتخصص كما يلي:

1. التطوير التقني الحديث بأجهزة التوصيل بكافة أشكالها وابتعاد الإنسان المعاصر عن عالم الكتاب والمقالات.
2. انحسار الأعمال الموسيقية الجادة ذات القيمة النقدية العالية من الناحية الفنية والابتكارية التي تضيف للموسيقى العربية الجديد .
3. دور القنوات الفضائية الكثيرة في التسويق والترويج للأعمال الموسيقية الرديئة بشكل مكثف وضعف أدوات التوصيل النقدي التخصصية .
4. إنكفاء النقاد المتخصصين عن ممارسة عملهم وعدم وجود بديل لهم من نقاد شباب مؤهلين بالمعرفة النقدية الشاملة في الموسيقى العربية .
5. قلة الدعم في الصحافة للأعمال النقدية الموسيقية وتهميشها في الغالب من الصحف المتخصصة بالإعلان و السياسة والدعايات التجارية.

المعالجات:

بينما تجيء الحداثة البعدية على أرض واضحة لا تطالب بالقطيعة لأن الجديد لم يعد محتاجا الى الثورة وابتكار ساحة الصراع في كل مكان فقد ساح الجديد في كل مكان وصار في متناول الجميع. وغدت ديمقراطية الذوق والإبداع

المتاحين للجميع، وكسر الفن حدود الأجناس والأنواع بعد أن نزل من عليائه وفارق نخبويته أنه كالهواء يتنفسه إنسان الحضارة الاستهلاكية. وتصير الجمالية مرافقة للأشياء كلها من هندسة البناء وأثاثه والى السيارات والواجهات وشوارع البضائع والألوان والتفنن بطرق المعيشة والتمتع بكل الفنون في كـل مـجال. فالمـوسيقى لا حـدود لألوانها ومراكز عزفها وبثها.. وغدت الأشياء الجميلة تملأ فراغ الحس والمكان معا. والمتع لم تعد تقتصر على الميسورين وإقطاعيات الأنظمة القديمة المعرفية والاجتماعية. لقد استطاعت وسائل الإعلام والاتصال هدم الجدران. والكرة الأرضية أضحت قرية رقمية صغيرة و لكل حقبة زمنية أزماتها ومشاكلها والتقدم في مجال ما ربما يأكل من جرف مجال حيوي آخر دون قصد أو بقصد.

ومثلما قلنا أن التقدم الحاصل في مجال المعلومات وأجهزة التوصيل المعاصرة وكوننا أبناء عصر السرعة والأضواء في مجال الصورة والصوت المضغوطين، أثر بشكل وآخر على الاسترخاء والتأمل الفكري من ناحية القراءة والإنصات والتحليل. إن تطويع اللغة التوصيلية المعاصرة للنقد والقضايا الموسيقية ضرورة ملحة، وذلك عبر تشخيصنا للأسباب والمعالجات ولكون الموسيقى أحد أهم الثروات القومية لكل شعب في العالم، يتحتم على النقاد والموسيقيين من مؤلفين وعازفين ومنتجين الالتزام الموضوعي وترسيخ القيم الراقية للموسيقى القومية. وبما أن الانفتاح على حضارات الشعوب هو سيف ذو حدين أما أن يقتلع فننا الموسيقي من الجذور وأما أن يكون عنصر تقوية له ويفتح له مقومات نجاح أخرى دون المساس بقيمته التراثية وأصالته. وفي كلتا الحالتين لابد من دور للناقد الموسيقي والنقد المختص في ترسيم حدود ومعالم المرحلة الموسيقية لتتوقف خسارات واقعة ومحتملة لموسيقانا العربية.

لابد أذن من الإشارة الى أن هناك الكثير من المواقع الفنية على شبكة الانترنت تستحق الدراسة النقدية، لما لها من دور أعلامي وتوثيقي كبير للموسيقى العربية وتطرح تجارب نقدية مهمة. وهناك مواقع ترفيهية تقوم بدور معاكس لها وهي الأكثر، وبذلك يكون على الناقد الموسيقي العربي التسلح بلغة العصر اللغة الرقمية بالإضافة لطريقته القديمة والتوثيقية.

إذن وضعنا في بحثنا الإصبع على الجرح في النقد الموسيقي العربي التخصصي. ولعل مؤتمرات ومهرجانات الموسيقى العربية هي الأكثر نشاطا وتخصصا في إغناء هذا المجال بالجديد من خلال الحث الجاد والمستمر لتفعيل دوره في المؤسسات الموسيقية إدراكا منها لقيمته الحضارية وأهمية الانتقال به الى جدل مستفيض داعم لكل ماهو مثري يعود بالنفع لتطوير موسيقانا وبحوثها ومعالجاتها. ولقد سعت المؤتمرات منذ بداية انعقادها الى التأكيد على هذا المجال الحيوي وأفردت له بحوثاً قيمة وجلسات عقدتها لتطوير العملية النقدية للموسيقى العربية، سعيا منها للوصول الى غاية أدركت مبكرا أهميتها بتقويم الطرح الفني الجاد للفن الموسيقي الملتزم بقضايا أمته. ونورد هنا قول الموسيقي الراحل منير بشير حيث يقول: " أن لقاءات المجمع العربي للموسيقى ..ليست مناسبات تعارف ومجاملة.ومآدب أنس وحفلات طرب..أنها مواعيد ثابتة محددة مسبقا ومنظمة وجداول أعمال وتبادل للرأي والخبرة وبحث ونقاش في قضايا جوهرية وجادة تتصل بالموسيقى والتربية الموسيقية والتراث والحركة الموسيقية وتطورها وسبل النهوض بها دونما تفريط بهويتها وأصالتها ".

ومن هذه المحاور يأتي النقد المتخصص في أولوياتها، لـذا وعلى ضوء ما تقدم نخرج بالتوصيات التالية:

التوصيات:

1. تكثيف دور النقد الموسيقي الأكاديمي وليس الدعائي والإعلاني من خلال برامج على القنوات الفضائية والصحافة والكتب.
2. تفعيل مواقع وصفحات خاصة للنقد الموسيقي على شبكة الانترنت وتقوية دورها التوجيهي للشباب والمحترفين.
3. رصد جوائز وشهادات للأعمال النقدية الموسيقية التخصصية المتميزة والحث على تحفيزها بطباعتها وتوزيعها.
4. تكريم رواد النقد الموسيقي المتخصص الذين ساهموا في تطوير النقد الموسيقي العربي .
5. إلزام المؤسسات الفنية والثقافية التابعة للدولة والمدارس والمعاهد والكليات الموسيقية بالأخذ بمناهج النقد وتوجيهات النقاد الموسيقيين لخلق جيل ملتزم بتراث أمته الأصيل .

إننا أمام متغير كبير وتقاطع طرق والتباس شديد بين ذائقة سمعية انحرفت عن مساراتها الأصيلة وأنساق ورائها جمع من مريديها غير المدركين لخوائها.. والناقد المتخصص ورث عبئاً كبيرا ينوء به لشدة سلبيته وصعوبة معالجته وكارثية تركه يستشري ليخمد آخر أنفاس الفن الموسيقي العربي الحقيقي. انحسر الموشح منذ حقب وانـــزوى في ركن الرعاية المركزة بدار الأوبرا والنادر من المراكز الثقافية والدراسية ،واستسلمت القصيدة الغنائية الطويلة بكل هيبتها الشعرية

واللحنية أمام الأغان المقزمة لحنا وكلاما سطحيا. وهكذا استفقنا على إيقاعات غريبة وأنغام مبتورة ليس لها رائحة وطعم المناخ العربي، بل هي أنغام ترتــدي (الجينز) وهاربة على ظهر دراجة بخارية نسمع صوتها مخلوطا مع نغماتها في عالم (الفيديو كليب). ومابقي للنقد والنقاد سوى الحسرات على القامات الكبيرة للموسيقى العربية وعمق تجاربها وأهمية القيمة الفنية المكنونة بمنجزها في متحف ذاكرة الخلود. هل يستطيع النقد تغيير مالايغير؟. والحياة أخذت شكلا آخر لها، محسوباً وغير محسوب وهل نطلب من الفنان المعاصر أن يعيش بعصر غير عصره، وزمان غير زمانه. طلب صعب ومعادلة صعبة.. كيف لا، وأولادنا خلقوا لزمان غير زماننا ..وليس من خياراتنا أن نعيد زمانا نطلق عليه نحن ذهبيا وأغاني الزمن الجميل وهذا من وجهة نظرنا وليس من وجهة نظرهم التي لا نقدرها لسطحيتها. وهم يعيشون زمن التسطيح والشرود. هل الفنان مرآة عصره؟ وتتطابق هذه الأطروحة مع ما يحصل حولنا.هل عبر الفنانون الرواد عن عصرهم حقيقة. وأتبعوا الأصيل مما ورثوه من أجدادهم؟. وتمت القطيعة مع الجيل الحالي، ليقول كلمته التي هي غير كلمتنا وأن لم تعجبنا. وطبعا تراجع النقد المتخصص ولم يتعد أطاريح الطلبة في الدراسات المتقدمة لنيل الشهادات دون ممارسة عملية له فيما بعد. إن المعطيات الجديدة تدق ناقوس خطر داهم بدق آخر المسامير في نعش الموسيقى العربية الرصينة، حيث أن التراجع أصبح جليا في تحديث وتفعيل المدارس النقدية التخصصية، ومنها للأسباب آنفة الذكر. ونستشهد بقول للقائد الموسيقي سليم سحاب حيث يقول: " أن أجيالا من الشباب العربي تنقطع صلتها تدريجيا بالموسيقى العربية، وأن بعض هذه الأجيال يؤدي بها هذا الانقطاع الى البحث عن المتعة الوجدانية والروحية خارج إطارات شخصيته الحضارية الطبيعية. لقد وصلنا في هذا المجال الى الخط الدفاعي الأخير، وفي المجال الثقافي والموسيقي بالذات فأنني أرى((كما في المجالات الأخرى)) أن اخطر حلفاء الغزو الثقافي من الخارج هو التبعية الثقافية من الداخل التي تتضافر فيها عقد النقص أمام الأجنبي مع ظروف التخلف الداخلي حتى يصل الأمر الى حد قد لا تعود معه القوة الخارجية بحاجة الى أي مجهود أضافي لفرض سيطرتها الثقافية (أو غير الثقافية)، بل تكتفي في مرحلة ما بالتبعية الثقافية التــي تكون دائرتها قد أحكم إغلاقها تماما ". وفي ظل غياب للنقد الموسيقي المتخصص يصبح هذا الكلام واقعا ملموسا سوف يفرض مفاهيمه وأفكاره بصورة تدريجية وربما سريعة كما يحصل الآن من غزو موسيقى وافدة مثل (الراب) و(الفرانكوعرب) و(العود اللاتيني). و(البوب). إننا في عصر الانتقائية eclecticism أي التمتع بالقائمة المطروحة بلا حدود. ولكي نكون منصفين في طرحنا فأن التقدم الحاصل في البرامجيات من صوتيات وطرق توصيل موسيقية عبر الانترنت لكل العالم وبكل الظروف له ايجابيات ومنافع مادام الانتشار والتعريف بموسيقانا وثقافتنا هو في صلب العملية الموسيقية كلغة شعور إنسانية تقوي روابط التعايش والسلام، وتنبذ العنف والحروب. ولكن تحدثنا عن الجانب السلبي وذلك لمواجهته وإدراك المفيد منه لتشكيل وعينا الموسيقي وكما يقول غاندي (افتح جميع نوافذ بيتي على كل ثقافات العالم ولكن لا أترك لأي منها أن تقتلعني من جذوري)..فنحن كموسيقيين عرب ونقاد متخصصين وجمهور أصبحنا أمام أتساع بالخيارات والاطلاعات المفتوحة على الجديد العالمي من موسيقى معاصرة وابتكارات فور صدورها من منشأها الأم. ولكن يجب توفير الإمكانيات الذاتية لاحتواء مراميها أن كانت سلبية أو ايجابية. ولا يوجد موسيقي عربي جاد ومحصن بتراث أمته تغويه الصرعات الجديدة مبتعدا عن أصالته وعمقه الحضاري المتغلغل بوجدانه وروحه دون أرادة منه. ويتحتم على الحكومات متمثلة بوزارات ثقافتها وقنواتها الإعلامية دعم الموسيقي الملتزم والناقد المتخصص ليرفد الساحة الموسيقية بكل تطوير وداعم للوعي الفني الثقافي العام. ومثال لذلك أن أغاني وموسيقى هجينة ظهرت بالسنوات العشر الأخيرة. قد صدأت وذهبت أدراج الرياح لرداءة معدنها وصياغتها المقلدة بشكل أعمى للموسيقى الوافدة .وهذا مابشر به جميع النقاد المتخصصون بأن هذه الأعمال فقاعات وسراب سرعان ماتتلاشى وحتى القائمون عليها من ملحنين ومغنين قد أدركوا خواءها مبكرا بالرغم من انتشارها الوقتي المحدود فهي قد ولدت خالية من روح المبدع العربي وممسوخة الهوية. لذا يجب تفعيل دور النقد الموسيقي المتخصص ورعايته ليأخذ دوره في الحياة الموسيقية العربية من جديد وعبر منابر وطرق توصيل معاصرة وبمستوى قيمته الفنية التي تؤكد هوية الموسيقى العربية .ويتناسب مع ما مطروح عالميا بكون النقد المتخصص قد أصبح منجزاً وعملاً فنياً راسخاً.

النقد الموسيقي المتخصص وايجابيات وسلبيات العولمة:

إذا كانت العولمة من وجهة نظر اقتصادية وسياسية هي سيطرة الحيتان الكبيرة في السوق والفكر أيضا. ولكنها بالوقت ذاته أكثر اعتدالا مع الموسيقى لكون عولمة الموسيقى قد سبقت هذا المفهوم بقرون ولو أنها أي العولمة وثورتها المعلوماتية تسعى لتكون بمتناول الجميع فهذا سبيل كل الثقافات ومسعى قديم لها ومنها الموسيقى. أي تحقيق حضور معرفي لدى الإنسان الآخر في الركن القصي من العالم، عبر الكتاب أو الأسطوانة أو شريط الكاسيت أو عبر CD وDVD لاحقا أو عبر شبكة الانترنت وجميع أجهزة الاتصال وهي أحدى ايجابيات العولمة وآلياتها التي تقدم خدماتها

بصورة متساوية للجميع دون استثناء للأصدقاء والأعداء. فالجميع شركاء في أدق المعلومات التي تخدم تطوير المناهج والدراسات بكل أنواعها، ومدعوون للمشاركة بالنقد والتحليل والإضافة أو الاكتفاء بالإطلاع. وكذلك توفر سهولة انتشار الموسيقى ونوتاتها رقميا ..وتحميل الموسيقى من أية بقعة في العالم شرقية وغربية. ولكن هناك سلبيات يمكن التغلب عليها ومنها ضياع حقوق المؤلف والمؤدي، يصعب السيطرة عليها وحتى التدخل بتوزيع الأعمال الموسيقية وتغيير ثيمتها وإعادة صياغتها يكون متاحا للآخرين مما يفقدها كينونتها وهويتها الأصلية. في حين يرى البعض أن هذا هو تلاقح للأفكار بين الشعوب والأفراد حيث يقول (سايمون ماندي) الكاتب الانكليزي في كتابه: (الموسيقى والعولمة حول النقد الموسيقي) وبترجمة د.سمحة الخولى " الموسيقى الوحيدة التي تسوء سمعتها هي التي يراها النقد غير وافية بغرضها وسوف يصبح الذوق هو معيار الحكم وليس المكانة الاجتماعية ولا الموضة السياسية فأن الديمقراطية للتعبير الموسيقي يجب أن تكون تحسينا له مذاق محسوس للموقف ". إن عين وسمع الناقد المتخصص معيار حقيقي دائما ينحاز بشكل طوعي للإبداع ويقف معه ضد كل أشكال التردي وصناعة الهبوط في الوعي الثقافي والحضاري. ولابد من مواكبة للأكاديميين في هذا المجال الهام ليأخذوا دورهم بالنقد المتخصص لاسيما وأنهم تركوا الساحة لغير المتخصص والدعائي في الصحف يأخذ مكانهم بطرق ملتوية أحد أهم أسبابها غياب النقد المتخصص وما يطرحه مؤتمر الموسيقى العربية كل عام هو نوع آخر من الالتزام المبدئي والثابت تجاه هذا العنصر القيم لموسيقانا العربية والدعوة الى إغنائه بكل جديد ونير خدمة للأجيال التي هدفها حماية تراث الأجداد من التقهقر والاندثار أمام موجات التخلف الجديدة أو الغزو الثقافي المقصودة أو غير المقصودة .

أهم مصادر البحث :

(1) مجلة الموسيقى العربية.

(2) دراسة الفن .آر.أج ويلنسكي.

(3) مقالات ولقاءات د.رتيبة الحفني .

(4) كتاب الموسيقى والعولمة /سايمون ماندي ترجمة د. سمحة الخولى.

(5) بحوث للناقد الموسيقي المتخصص الراحل عبد الوهاب الشيخلي.

(6) مقالات الأستاذ منذر جميل حافظ.

(7) كتاب الشريف محيي الدين حيدر/الأستاذ حبيب ظاهر العباس

(8) كتاب للناقد مزاحم حسين/النص في ضوء المتغير.

(9) مقالات مترجمة مجلة القيثارة /سامي نسيم عداي.

****

(ما حدث في حلبجة..)

محي الدين زه نكه نه

ولد محي الدين زه نكه نه في عام 1940 في محلة (شاطرلو بكركوك) و تخرج في كلية الآداب/ جامعة بغداد قسم اللغة العربية عام 1962. في عام 1968 كتب قصته البكر (الجراد) التي تحولت لاحقا الى عمل درامي مهم. ومن جهة اخرى فان مسرحيته (السؤال) نقلته، مباشرة، من المسرح العراقي الى المسرح العربي حيث تم اخراجها في العديد من البلدان العربية. ومنذ بواكير حياته الابداعية انحاز محي الدين زه نكه نه الى الفقراء والكادحين والمضطهدين فكتب العديد من النصوص الابداعية التي تمجد هؤلاء، و من بينها مسرحية (اليمامة) التي استطاع من خلالها ان يجسد الصراع الاجتماعي بين الفقراء ومالكي السلطة والثروة وادوات القمع. والمنجز الابداعي للاستاذ محي الدين زه نكه نه ثري بما يحتويه من المجموعات القصصية والنصوص المسرحية، كما ان مسرحياته حازت على جوائز كثيرة داخل العراق وخارجه. وفي النص التالي يكتب الاستاذ محي الدين عن حلبجة التي بقيت شامخة رغم محنتها.. تلعن القتلة..وتتسلح بالامل رغم توشحها بالسواد.

من هذا العنوان البارد، الأبرد من الصقيع انطلق. وعبر هذه البوابة الجليدية، أريد العبور.. والدخول، عفوا، الاقتراب، ما أستطيع، لو استطعت.. من جحيم حلبجة، وملامسة نيرانها البركانية المندلقة، التي لاتخمد ولا تهمد.. ولكن عن بعد!! و.. معذرة سلفا.. إذا أخفقت ولم استطع.. واني لمخفق قطعا.. وغير مستطيع أكيدا.. ومع ذلك.. لابد من المحاولة..

ابتداء أرى أن الحديث عن حلبجة.. وعن (ماحدث في حلبجة..) أقول الحديث حسب.. ولا أقول إنشاء خطاب صداح.. ولا تدبيج مقالة محكمة.. ناهيك عن إبداع قصيدة فريدة.. أو ملحمة خارقة.. في إطار خلاق.. وتحت شكل بتول اعذر.. لم يحرث أرضها قلم.. وفي صياغة خاصة باهرة، فائقة الجمال و الروعة تليق بقامة حلبجة الشامخة..الشامخة على الرغم من سائر محنها.. ورغم انف كل القتلة.. وتحديا لكل ما جرى ووقع وحدث فيها..

لابد أن اعترف بأن حديثا كهذا.. يتطلب ويستوجب لغة جديدة و مبتكرة .. لغة تنحت مفرداتها من خصوصية حلبجة نفسها.. التي لاتضاهيها ولا تدانيها ولا تشبهها.. أية لغة أخرى.. في كارثيتها وفاجعيتها

إني ودون الخوف من السقوط في المبالغة.. أقول:

أن اللغة، أية لغة، أو على الأقل.. لأقُل لغتي انأ، تحديدا وتخصيصا، وبعيدا كل البعد عن التواضع.. عاجزة عجزا تاما وأكيدا.. عن بلوغ ذلك السمو ... وسيلتف حولها الشلل، في أحسن الأحوال وأفضل احتمال.. لا في مفاصلها وأجزائها و وشائج ارتباطها يبعضها.. أو في القدرة على صهرها وسبكها في قالب فني.. و عقلاني حسب. ولا في حروفها وكلماتها التي تنبني منهما بالضرورة.. وتتخلق منها وتتكون بهما.. فقط. وإنما وبالقوة نفسها. في روحها وفي نسغ حياتها وفي فتحات تنفسها ومسامات جلدها.. وأيضا في عروقها.. في أوردتها وشراييها وشعيراتها التي تمدها بالدم والدفء والحرارة والديمومة..

وكل ذلك ليس بسبب سموم الخردل وسائر أنواع السموم الفتاكة المتنوعة الأخرى.. التي تفتقت عنها وأباحت استخدامها حفنة عقول مريضة شريرة . وطنية ! (بالمعنى الجغرافي فقط) وغير وطنية وخائبة بالمعاني كلها ... لكي تخترق أحشاء أرضنا الحنون المعطاء.. فنزلت الى أعمق أعماقها.. بعد أن جالت وتنزهت بأبشع صورة، بأسنانها المنشارية التي تنز بالحقد و الكراهية في أرجائها الساكنة الآمنة، سيولا من الرصاص المصهور.. وتأخبطت حول جذورها وفتنتها لتبذر فيها العقم والجدب والمحل ... وتحيل ترتبها السخية الكريمة.. الى صخور متيبسة وأحجار صلدة ، وكتل مدببة .. هي في الأحوال كلها ارق وانعم وأرحم من تصحر قلوب تلك المخلوقات المشوهة الشاذة التي زرعتها في رحم الأرض والزرع والنسل.. وأكثر إحساسا ورأفة من مشاعرها.. إن كانت تملك، افتراضا، قلوبا ومشاعر وأحاسيس، بين ضلوعها.. وإنما أيضا بسبب تلك الصورة الحيوانية - مع الاعتذار الشديد لكل حيوانات الدنيا.. حتى أشدها وحشية وافتراسا.. ولسائر الديناصورات والماموثات المنقرضة.. والأفاعي والعقارب السامة - التي تتموضع في أطرها، مخلوقات متوحشة فتاكة منحرفة.. تدعي زورا وبهتانا، انتسابها الى الإنسان.. بلا خجل وبوقاحة ما بعدها وقاحة، وهي تتنفس، أو بالأحرى تختلس وتسرق هواء عصرنا.. وتطفو على السطح.. وتبحلق بصفاقة بعيون لاتستحي الى عيون الأزهار والأطفال.. والينابيع والجمال.. لا لكي تتمعن فيها وتبتهج بها.. وإنما لكي تفقأها وتطفئها.. في محاجرها..

كلما تعلقت بأجنحة ذاكرتي المتكسرة.. وحلقت بها الى الوراء، الى يوم السادس عشر من آذار – عام ألف وتسعمائة وثمانية وثمانين، وجدت نفسي أعيش يوما دمويا آخر بكل شعرة من شعرات جسمي.. وما تزال ترشح به كل مسامة من مسامات جلدي.. وتحيا فيه كل خلية من خلايا ذاكرتي.. يوما اسود آخر من أيام الممارسات البعثية السود الطوال.. العديدة التي لاتعد ولا تحصى والتي أتخمت بها ذاكرة التاريخ المعاصر حد الامتلاء والتقيوء.. أيام البعث.. ذي الرسالة.. الدموية الخالدة.. الأبدية في القتل والفتك والوأد.. انه يوم الثامن شباط الأسود الدامي من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين، الذي عشته وعشت فواجعه حتى النخاع.. وكاد يقضي عليّ كما قضى على عشرات الألوف من رفاقي وأخوتي وأحبتي.. لولا كردستان التي ضمتني واحتضنتني.. فأنقذتني من موت محقق.. يفترش الشوارع والأزقة ويقتحم البيوت والغرف ..ويختبئ ، بكل جبن وخسة ، في تلافيف الهواء ..

إن يوم السادس عشر من آذار.. قد خرج من رحم الثامن من شباط النتن الموبوء.. الذي أطلقوا عليه، من شدة تعلقهم به "عروس الثورات!!!" العروس التي واقعها كل زناة الليل والنهار.. فلم تلد إلا الشواذ والمنحرفين والمشوهين.. من أعتى أنواع القتلة والمجرمين.

من المؤكد أن كلمات من قبيل، فاجعة، مأساة، كارثة، جينوسايد. وسواها وسواها من المفردات والألفاظ والعبارات والتعابير التي تزخر بها قواميس المترعين بالحقد والكراهية والبغض.. والعداء لكل ماهو إنساني وجميل، ويفرزها سلوكهم الواقعي اليوم ، تغدو كائنات أو بالأحرى أشياء، بلا روح ولا دم ولا خجل.. وفي برودة.. الصقيع والجليد والموتى.. بلا قدرة على التحليق في فضاءات الكون.. لتتحدث وتتكلم.. وتعلن الأقل من القليل.. من. (ماحدث في حلبجة) أو قد جرى و وقع في "شباط" الأسود. العار على جبين تاريخ الإنسان . و.. والحيوان أيضا.

وهي جازما.. مبتورة الأرجل.. لا تستطيع أن تدب في دروب الدنيا وأزقتها.. وفي طرقها ومسالكها.. لتبث في هوائها رائحة التفاح المتعفن.. الموبوء والمجرثم حتى النوى. ولا قادرة أن تروي للعالم بعضاً من الحقائق والوقائع الدامية عن الإنسان الكردي الذي يذوي واقفا.. ويتجوف من كل ماتحت الجلد من لحم وعظم.. ويغدو كيسا مفرغا من الهواء ثم لا يلبث الكيس أن يحترق.. ليتلاشى هذا الإنسان الذي كان قبل هنيهات حسب مليئا بالآمال والأحلام ومشاريع الحياة الزاهرة.. ولا يعود سوى اثر بعد عين.. شاهدا على إنسانية هذه الحيوانات المفترسة، المنتصبة على ساقين. ويروي حكايات عن الشجر الذي يتداعى على عرشه.. والعصفور الذي يتفحم في عشه.. بين أفراخه.. والعشب الأخضر الطري.. المبلول بعرق الجد والكد.. والمنقوع بدموع عذابات السنوات الطوال وأوجاعها.. تتغير ألوانه المتعددة الزاهية.. ليجلله لون واحد.. مستقى من أحقاد القلوب السود..

لكن العشب.. المكلل بالسواد.. يبقى أكثر طراوة وأوفر جمالا.. واشد إشعاعا.. وإشراقا.. وأبهى رونقا.. من "هم" أصحاب الوجوه السود.. والأرواح السوداء والأنفاس الشريرة الشوهاء.

تتردد اللغة.. لغتي.. وتراوح في مكانها.. بل وترتد الى الجوف.. أو تختنق. وهي في طريقها الى حلبجة.. وإذ تبلغها تحترق في سعير (ماحدث في حلبجة..) حالها حال عصافير كردستان وأعشاب كردستان ومياه كردستان.. فلا تقوى على البوح.. بـ.. (ماحدث في حلبجة..) إذ تخفق في الانتظام في قلائد تعانق جيد حلبجة.. أو تتحرك عبر أفعال تحريضية.. وتتسلسل في حروف من نار.. و.. نور.. لتطوف الدنيا تتخطى الزمان وتتجاوز المكان.. الى كل زمان وكل مكان.. وتحقق وجودها في زمان حلبجة.. وكون حلبجة .. وتسكن في سويداء حلبجة.. وتخاطب العالم والوجود.. عن.. (ماحدث في حلبجة..)

إن المقارنة بين (ماحدث في حلبجة..) وما حصل في أي مكان من الأمكنة وفي أي زمان من الأزمنة.. منذ زمان نياندرتال وقابيل الذي قتل أخاه هابيل. و حتى ساعة داست قدم آخر إنسان وجه القمر... تعد نوعا من الفكاهة السمجة إن لم اقل الوقحة.. لأنه ببساطة شديدة لأوجه للمقارنة..

في تلك الأيام الاذارية الصافية ولياليها البيض.. الأكثر صفاء و ألقا .. بنجومها المعلقة في السماء.. وأضوائها المرشوشة على الأرض.. التي تهفو فيها القلوب وتتعانق.. وتنطلق الأرواح وتتداخل.. في محبة ووئام وسلام.. وحيث الطبيعة كلها تشارك الإنسان الكردي الأفراح.. وتصلي.. وتترقب العام الجديد.. تجدد ذكرى كاوه الحداد.. الإنسان البسيط.. الشجاع.. الذي تمثلت في مطرقته.. إرادة الشعب.. والتاريخ.... أن تغني.. وتنشد.. أنشودة انتصار الإنسان القادر على خلق قدره.. و وجوده.. وغده.. هرع أحفاد ضحاك الذين لايروق لهم الغناء. ولا الرقص ولا الفرح . فعمدوا الى إسكاته بسمومهم وحقدهم الأسود..

ولكن هيهات: ستغني حلبجة.. أغنيتها.. للحياة.. للحرية.. لكردستان.. وسيظل غناؤها.. يعلو ويعلو.. يوما بعد يوم.. وعاما بعد عام.. مادام.. ثمة زمان.

لسنا من دعاة الثأر.. ولا من طلاب الانتقام.. ولم نكن يوما كذلك.. ولن نكون ولكن ينبغي أن لا ندع الجريمة تمر بلا عقاب.. فأتعس الأزمنة زمان.. ترى فيه الجريمة.. ولا ترى فيه العقاب..

وبعد ...

لايقولن احد .. عن . (ماحدث في حلبجة ..)

لم اسمع .. لم أدرِ .. لم أرَ..

الكل قد سمع .. الكل قد درى .. الكل قد رأى ..

إزاء (ماحدث في حلبجة) كلنا مسؤولون بهذا القدر أو ذاك

أمام (ماحدث في حلبجة) كلنا مدانون بهذا القدر أو ذاك

فلينقَ كل واحد منا ضميره ..

وليطهر كل واحد منا روحه..

بالشكل الذي يريد.. وبالطريقة التي يختار.

2009/3/2

السليمانية

****

فايق حسين: طائر جنوبي حلق في أسبانيا حتى أصبح واحداً من فنانيها

كاظم السيد علي

الرسام العراقي فايق حسين المولود عام 1944 في الناصرية، خريج معهد الفنون الجميلة ببغداد عام 1963، وهو من فناني جيل الستينات العراقي.. ساهم في تأسيس جماعة " المجددين " وساهم في معرضهم الأول في أواخر الستينات قبل أن يهاجر الى اسبانيا ليواصل دراسته هناك ويتخرج من قسم الكرافيك في مدرسة (سان فرنا ندو) ويحوز على الجائزة الأولى في هذا الاختصاص. أقام حوالي ثمانية عشر معرضاً في بغداد ولبنان وأسبانيا وايطاليا وبيرو وفنزويلا والإكوادور وغيرها. توفي في مدينة ميشيغان الأمريكية في 14 تموز 2003 بعد إصابته بجلطة دماغية نقل على أثرها الى المستشفى.

من لا يعرف (فايق حسين – 1944م – الناصرية) ذلك الطائر الجنوب الذي غادر البلاد ليحلق في السماء ليختار عشه ويستقر في ((أسبانيا)) حتى أصبح واحداً من خمسة وثلاثين فناناً يمثلون الفن الأسباني المعاصر رغم عراقيته، وذلك في

معرض أقيم في كاليفورنيا. وان أسمه قد دخل الموسوعة التشكيلية الأسبانية. من خلال إنتاجاته والتي أخذت مكانتها المرموقة وزينت جدران المتاحف والمعارض الأوربية فكانت أعماله بحق خير سفير للإبداع الفني والمبدعين العراقيين. لقد حصد (فايق) عشرات الجوائز من جامعة (سان فرانا ندو) بفن الكرافيك وحاز على الجائز الأولى في هذا الاختصاص. فيما بعد أصبح من كبار مبدعي هذا الفن في (مدريد).

وفي عام 1980م التحق بجامعة (مشيكان) في أمريكا ولم تختصر تجربته الفنية بالرسم بل أبدع في مجال (الفوتوغراف) حتى أسسوا مجموعة (إيانا يورا) في كويتو – الأكوادور – فقد كان هذا الفنان المبدع رائداً للحداثة. وتكمن قيمته في تواجده مع المجموعة الفوتوغرافية أنفة الذكر. وكذلك في مجال فن (الكرافيك) الذي تخصص فيه بعد دراسته له. لقد أثبت قدرته الفنية والعالية في المشهد الفني الأسباني من خلال تسجيله لهذا العطاء عن فكر ثاقب ملتزم ووعي عميق ومسؤولية عالية بالفن الملتزم بقضايانا الاجتماعية والإنسانية. ووقف موقفا فنيا وأيدلوجيا في رؤيته للإنسان في العالم ، وهذا انطلاقا من اهتمام الفنان العراقي بالاتجاهات والأساليب الفنية في أوربا وارتباطات البدايات الفنية العراقية بالفكر العالمي. عن طريق اهتمام الفنان (فايق) بالأساليب الفنية الجديدة في أسبانيا فترك كل تجاربه الفنية بعد أن أنجزها في نهاية عام 1964م بعد تخرجه في معهد الفنون الجميلة في بغداد فبعد هذه التجربة استغنى الفنان (فايق حسين) عن الأساليب الفنية التي تأثر بها هناك أي (الفنتازيا) وقدم فيها بعد أعمال تعبيرية تتضمن كثيراً من الرموز التشكيلية، لكنها متفاعلة ومتعايشة مع الأحداث والتطورات والتغيرات لمواقع إنساننا العربي المعاصر لما يحمله من مفاهيم جديدة. فالرمز عنده لا ينفصل عن تجربته الواقعية وضمن توجهه الفني والذي أتخذ فيه الإنسان أساساً لها، ونلاحظ فيها الشكل البشري مقاوماً متماسكاً في حالته التعبيرية بالتقنية الجيدة والرؤى الواضحة لمضامين أعماله التي قدمها قبل رحيله فكان (فايق) يستمد مادته من هذه المفاهيم وهذه هي هوية الفن الجديد لأن الفن مستمر في جميع مرافق الحياة.

كان الفنان الراحل (حسين) مؤثراً في الساحة الأوربية من خلال معارضه الشخصية التي تقدر أكثر من ثلاثة عشر معرضاً ، عرضت في كل من أمريكا اللاتينية وأوربا وأسبانيا ، ومشاركته في معارض جماعة المجددين ومشاركته في معارض عديدة في أسبانيا وأمريكا وإيطاليا من خلال نقطتين مهمتين: تتلخص الأولى في حرية التعبير عن نفسه بالشكل الذي يراه وبالطريقة التي يرتئيها، والثانية انه كان يشعر أن عليه واجب تجاه وطنه وشعبه هذا الذي كان يحلم به في غربته القاتلة ... رغم أنها تبتعد عن المباشرة لكون أن له الأسلوب الذي يميزه عن غيره من الفنانين داخل البلاد وخارجها. يقول الفنان والناقد عادل كامل، في أحد مقالاته التي كتبها عنه في معرضه الذي أقيم في العاصمة بغداد الموسوم (العالم الداخلي): (لقد كتبت ذات مرة عن أعمال فايق حسين. بأنها ذات طابع سايكولوجي، والآن يتأكد لي هذا في أعماله جملة، دون استثناء. ففايق يجسد لنا عالماً علينا أن نحل رموزه الكثيرة، عالماً علينا أن لا نهرب منه باعتباره (لغزاً) وإنما باعتباره حالة قابلة للتفسير والامتداد، وبشكل آخر: علينا أن نواجه الأزمة المجسدة بأعمال متقنة الصنع، أزمة ليست مقفلة، وعلل ونتائج تتحول إلى وحدات في بناء روائي ، أي هذا البناء الذي يصح أن تدعوه به، ملحمة تعبيرية عن الإنسان المعاصر، ويمكن لو استثنينا بعض الرموز، وبعض الأعمال. أن تجد صياد السمك الجنوبي، أي ساكن (الهور) بشكل أدق، هو المتجسد، أي لو رفعنا الصليب، وهيئه لشخص ذات الطابع العربي المعروف، لتوضحت لنا بجلاء هيئة صياد السمك، ومناخ الهور – وهذا الإحساس الحاد إزاء الطبيعة. أن فايق حسين، رغم الأزمة الكبيرة، المحلة مضامين كثيرة، ليكاد يعبر عن واقع إنساننا العربي بالذات).

ولابد من القول: لقد حاول فايق حسين أن يعطي للمشاهد الأوربي الوجه الناصع للفن العراقي المعاصر، من خلال اللغة الفنية الجديدة ... ساهمت فيما بعد في خلق فلسفة جمالية ذات بعد إنساني وشخصية متميزة استطاع أن يبلور أسلوبه بوعي فني متقدم بين الفنانين العالميين. إن تراث الفنان الراحل فايق حسين المتمثل في العشرات من المعارض والأعمال النادرة، تشكل ثروة فنية ووطنية للبلاد، مهمتنا الحرص عليها وحفظها من الضياع لا تجرد منها ... واعتقد أن بإمكان

وزارة الثقافة أن تضطلع بمهمة توثيق أعمال فايق حسين وان تنظم معرضا يضم أعمال الفنان الراحل داخل الوطن الذي استشهد بناره الكاوية بعيداً عنه وعن أحبائه وأهله وأصدقائه ومدينته (الناصرية) التي نشأ وتربى وترعرع فيها ... ووفاء لفنان مبدع عاش بيننا وعشنا معه في أعماله وأحب الإنسان في هذا الوطن وأبدع له... ورفع أسمه من خلال أعماله التي جعلته أحد كبار الفنانين في العالم.

من إعمال الفنان فايق حسين

****

قصة قصيرة:

في شرخ المشروح..

أحمد ضحية

وأنت تحدق في المرآة، تكتشف للمرة الأولى، أنك أصبحت طاعنا في السن.. لقد بلغت سن النبوّة، دون أي إنجاز أو شعور بالرضا، سوى الإحساس المزمن بـ "الاصطكاك".. ولهذا السبب بالذات أنت رجل كئيب، وما يزيد إحساسك العميق بالكآبة هم الآخرون، خاصة عندما يحاولون تفسير الماء بالماء ! لظنهم أنك لا تفهم أن الماء إنما هو الماء الغني عن التعريف ذاته !..

لكن ماذا تعني بـ "الاصطكاك".. قطعا أنك لا تعني احتكاك الركبتين إحداهما في الأخرى، من شدة البرد، دون أن يكون هناك ما بدفيء، ليجنبك هذا الإحساس المقيت بـ "الاصطكاك"! وربما أنك تعني معنى أكثر عمقا من معنى هذه الكلمة في الإنجليزية، و التي تكتب كما تقرأ. إذن أنت تبحث عن معنى، يتخطى حدود ما تعنيه كلمة "ستوك" من التصاق، إلى الانحشار في مأزق لا تألو جهدا في الإفلات منه، فلا تعود من الغنيمة سوى بالإياب!.. وأياً يكن معنى "الاصطكاك" بالنسبة لك، فأنت في الواقع لا تعدو أن تكون سوى رجل "مصطك"، ومع ذلك اسمح لي أن أشرح لك شيئا بديهيا حول الاصطكاك أؤكد به ظني فيك، بأنك : لا تفهم ما أعنيه .. فأرجو ألا تنزعج من هذا الظن !الذي يحيق بك كرجل "مصطك"!..

إذن سأمارس هواية الآخرين في الإسهاب في الشرح.. أعني تخيل نفسك الفتى "فلورنتينو آزورو" عاشق العذراء الجميلة " فرمينا" في :(الحب في زمن الكوليرا).. تخيل أن فرمينا، في لحظة تجلي نادرة وخارقة وسريعة كالبرهة الخاطفة، رفضت علاقتك بها، لاكتشافها في اللحظة البرقية هذه أنك مجرد طيف أو وهم، أي أنك مجرد "معنى" رومانسي حالم، غير متجسد "ماديا" !.. ثم تخيل أنك ابتداء من لحظة رفضها لك، ستنفق أكثر من نصف قرن من

عمرك منتظرا رحيل زوجها إلى العالم الآخر، حتى تتمكن من إقناعها بالزواج منك، أي أنك كـ "معنى" تنطوي على تجسيد "مادي"، بربك أليس هذا هو "الاصطكاك" بشحمه ولحمه ؟!!..

أو تخيل انك ذلك الرجل البائس في قصة ديسوفيسكي "حلم رجل مضحك"، والذي يستمد قدرته في ممارسة البؤس من حياة ديستوفيسكي البائسة نفسها، هذا الرجل المضحك يشتد به الحزن، لإدراكه الحقيقة – كما يظن – التي يجهلها كل الناس !، وفي الوقت نفسه لا يدركون أنه يعرفها! .. حقيقة أصل الخطايا "الكذب"، منذ غشت الحيّة حواء، حتى آخر دم سفكته قوى الطبيعة وعناصر الكون المدمرة، أو إصطكاكات البشر في الأحلام الإمبراطورية المروعة عبر التاريخ!!..هذه الحقيقة التي يدركها رجل ديستوفيسكي المضحك، فيما يشبه الإسراء والمعراج، أو رحلة أبي العلاء "رسالة الغفران"، أو حتى جحيم دانتي وكوميديته الإلهية، هذا المزيج في إسراء الرجل المضحك، بما ينطوي عليه من تداخل السحر والخرافات، في النزعة التقدمية – بمعنى أن تمد رأسك لقدام - المزعومة هذه الاصطكاكة سمحت له بالتعرف على شكل من أشكال التفكير المنظم، وما يتيحه من فلسفة وعلوم مضحكة، خلص عبر تأملها إلى الحاجة للعلم كمصدر للحكمة التي تفضي للحقيقة، وهي الخلاصة ذاتها التي توصل إليها دانتي وديستوفيسكي وفيكتور هوجو وغيرهم، من أنبياء معلنين رسميا أو لم يتبناهم أحد..فما هي المحصلة النهائية لهذا التقنين الصوفي لـ: العلم فالحكمة فالشعور بالرضا الذي هو نقيض الإحساس بالاصطكاك..المحصلة النهائية يا صديقي، أن كل ذلك يؤكد على شيء واحد: أننا مصطكون في كون مصطك، وليس ثمة مخرج لنا من هذا الاصطكاك الكوني !..ولذلك لن يصدق أحد "حلم رجل مضحك" بل سيتطوع الجميع ليشرحوا له كم هو مضحك، تماما كاجتهادي الآن في محاولة شرحي لك: كم أنت مصطك، بين هؤلاء الناس المصطكين في حكاياتهم المحشوة بالأكاذيب وأمجادهم الزائفة !..

ولتدرك مدى فداحة هذا الإحساس المزمن بالاصطكاك تخيل أنك أنا.. وأنك أي "أنا" كثير الشكوى، نتذمر دائما، لا شيء يرضيك، وتشك في كل الكلام الذي يدور حولك، فأنت لاتصدق الناس ، بل أن رأيك فيهم سيء للغاية، للدرجة التي تتصور أن الكون سيكون أفضل دونهم، بما فيهم أنت طبعا!!- لاتقل لي تعميم وأستروتايب وكذا، فهذا كلام يستهلكه المثقفون والميديا في محاولة السيطرة علي وعليك وتوجيه أفكارنا، وتصميم احتياجاتنا ورغباتنا- وإلا ستنسف فرضية الاصطكاك من أساسها الأمر الذي سيعيدنا إلى نقطة البداية لنشرح من أول وجديد ..

إذن تخيل أنك أنا، صحوت للتو من نوم متقطع كالعادة لا يخلو من الكوابيس والأوهام، وها أنت – أنا .تصنع كوبا ضخما من القهوة الأمريكية، كل الدور الذي تؤديه بالنسبة لك، هو أنها تهيج طعم البن الحبشي فيطفو على سطح ذاكرتك، مبددا نوستالجيا القهوة ..و هب يا أنا أنك استرخيت مع قهوتك، إلى أن انتبهت أن الساعة الآن الثانية عشرة ظهرا، فخرجت لتتفقد البريد، ثم خطر على بالك، أن تتصل برئيسك الفيتنامي الضئيل في العمل، وتعتذر عن قدومك اليوم لأنك مريض - وفي الحقيقة أنت غير راغب في العمل من أساسه وتعتقد أنه اختراع كريه - بالطبع الفيتنامي الضئيل لم يرد عليك، وأنت الآن تتخيل وجهه يحمر ويصفر، عندما يجد الرسالة الصوتية التي تركتها له، فهو لا يريد لأي من موظفيه أن يتغيب، خاصة في ظروف الطوارئ الحالية، بسبب العواصف الثلجية التي روعت الساحل الشرقي، وهمت بأن تعيده إلى عصر الجليد..

وهب أنك كالمعتاد جلست إلى الكومبيوتر، اطلعت على الأخبار في سرعة مريعة، ثم فتحت الإيميل، حاولت أن ترد على بعض الرسائل -على الأقل- فلم تستطع كالعادة، إذ بمجرد أن تصل إلى هذه المرحلة تشعر بفقدان القدرة على الاستمرار، فتنهض لتقعي في الصالة.. نعم تقعي، ماذا في ذلك.. إنها مفردة تعبر بدقة عن حالتك، فأنت محتار ولطالما تخيلت الإقعاء مرادفا للإحتيار، وليس الذل وعلى كل حال: كل شيء في هذا العالم يحاول إزالة كل شيء، وإياك أن تقول أن هذه نزعة سايكوباتية !!..

لنقل أنك فتحت وأغلقت التلفزيون مرارا وتكرارا، إلى أن استقر مزاجك على الإقعاء لمشاهدة فيلم سيمون أو "سيموليشن ون" الذي يلعب فيه آل بتشينو دور مخرج سينمائي (فيكتور تارانسكي)، الذي هو في الحقيقة مخرج فاشل، يحاول إنقاذ مهنته، فيهديه أحد المبرمجين برنامجاً رقمياً، لفتاة جميلة وجذابة قادرة على تمثيل كل الأدوار، والتأثير في مشاهديها، هذه السوبر ستار المذهلة تمكنت من فتح ممرات النفس البشرية، ليتدفق كل المخزون الأزلي للتراجيديا الرومانسية، والبؤس الاجتماعي في نفوس مشاهدين يتآكلهم ترف الحلم الأمريكي، انتزعت إعجاب هؤلاء الذين تعبر حياتهم اليومية في الواقع، عن الفشل الإنساني الكبير، فيمثل لهم الاصطكاك في الإعجاب بسيمون تعويضا عن حياتهم الفعلية الكئيبة! ..

كل أنواع الميديا تريد إجراء حوار مع السوبر ستار سيمون، بل نسجوا حول علاقتها بالمخرج تارانسكي من الحكايات ما يكفي لإشعال نيران الغيرة في القارات السبعة، لا في زوجته فقط !.. وهكذا أصبح تارانسكي المغمور حديث العالم، وهنا يكتشف تارانسكي حقيقة وضعه الوجودي كشخصية مصطكة، باكتشافه أن سيمون صنعته وليس العكس، فيحاول استرداد ذاته بإتلاف برنامج سيمون الرقمي. لكن الذين أدمنوا مشاهدة أفلامها يشكّون في اختفائها الغامض، وهكذا توجه له رسميا تهمة قتل سيمون، ولا يخرج من السجن إلا بعد أن تنجح ابنته في استعادة البرنامج "سيموليشن ون" من براثن التلف، صحيح أن بعث الحياة في سيمون من جديد، أنقذ تارانسكي من السجن الرسمي لكن لم ينقذه من اصطكاكته الرهيبة، هذا السجن غير المرئي، فلا أحد مستعد أن يتقبل فكرة أن سيمون محض برنامج رقمي، وهي لا تختلف كثيرا عن (فرمينا) كما أن معضلة فيكتور تارانسكي أسوأ من اصطكاكة فلورنتينو آزورو ..الناس ينزعجون من معرفة الحقيقة، ولذلك يتوارون خلف الأكاذيب ..وهذا هو جوهر الاصطكاك..

أنت مثلا علاقتك بمسؤولك الفيتنامي الضئيل معقدة، إذ ليس مقبولا أن يتلقى شخص طويل عريض مرتفع الخ.. الأوامر من شخص ضئيل .. رجاء لاحظ مفرداتي قلت :"ليس مقبولا".. تماما كتلك المفردة الفقهية "جائزا"..المهم، أنك لم تصرح له بحقيقة شعورك تجاهه، لكنك كنت تدرك أنه يدرك ذلك، وإمعانا في تغذيته لهذا الشعور داخلك، يحكي لك حكايات غريبة، عن كيف هزم شعبه الأمريكان في فيتنام، بل ويزعم أنه شخصيا شارك في تلك الحرب الرهيبة، وأنه كأمريكي صالح، راض عن نفسه تماما، فأبناؤه تخرجوا جميعهم من هارفارد، ويعملون في وظائف رفيعة، حتى أن أحدهم قنصل بسفارة أميركا في فيتنام، وانه وانه .. أنت بالطبع لا يعنيك أي شيء من هذا الهراء الكثيف، ولذلك بعد مرور تسعة أشهر من الإصغاء اليومي للحكايات الفيتنامية الضئيلة و المروعة، قررت الخروج عن صمتك وانفجرت..تركت العنان لغضبك فقلت كل ما لست معتادا على قوله، من شتائم وبذاءات بأكثر من لغة – بالطبع أنت لا تعرف الفيتنامية- ورميت بكل هذه البذاءات في وجه الفيتنامي الضئيل.. بماذا شعرت لحظتها وأنت ترى زملاءك الأمريكان، ينحسرون داخل ذواتهم، والفيتنامي المروع يحدق فيك ببلاهة غير مصدق!!..تناولت زجاجة مياه باردة وجلست على أقرب كرسي و"خلفت" رجلك..ثم لم يسألك أحد .. كنت بانتظار أن "يرفدونك" ..لكن لم يرفدك أحد، ولم يسألك أحد ولم تسأل أحد!!الجميع في الواقع اصطك أمام هذه المشكلة العابرة!..

لم تكن هذه الثورة المباغتة في الواقع ضد الفيتنامي، كانت ثورة ضد نفسك، لأسباب تبدو لك غامضة فما خلفته هذه الثورة المباغتة، كان مزيجا غريبا من الشعور المنحسر بقوة داخلية، لكن ليس بأي حال من الأحوال ما يسمى بالارتياح، ما يؤكد أن المعارك ..أي معارك هي نفسها شكل بدائي جدا، من أشكال الاصطكاك العنيف..تماما كعالم الأقوياء في العالم أو حتى الضعفاء: هم مصطكون في حروبهم الخاسرة ومغامراتهم الفاشلة، التي هي الوجه الآخر لكوارث وأوبئة العالم ..والأسوأ من كل ذلك الأحلام الإمبراطورية الكونية، التي عبر التاريخ تتحطم إزاء حجم الإنفاق الخارجي على الجيوش، التي تحرس هذه المستعمرات، مقابل حجم الموارد الوطنية الفعلية، وهي موارد لا يمكن أن تكون كنتاكي أو مكدونالدز أو بيتزا هت أو حقول نفط تكساس و ألسكا، وتجارة المعلومات معادلا يسد فجوتها..اكتشفت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ذلك، فانسحبت وتسحبت إلى حدودها الوطنية، وحجمها الفعلي كجزيرة معزولة في المحيط

المجنون، الذي مثلما أشعل أحلام الرحالة والمكتشفين على ساحليه، أشعل أحلام الأباطرة والأنبياء، فيما يشبه الاصطكاك الكوني، الذي حملته الخرافات والأحاجي والأساطير والسحر، فالديانات والفلسفة فالعلم، هذا الاصطكاك في حلم وحيد يعذب العالم، اكتشف الاسكندر لا جدواه بعد فوات الأوان، مثلما أكتشف قيصر ذلك في الرمق الأخير:"حتى أنت يا بروتس!"هو الحلم نفسه يعاد إنتاجه فيتكون إتحاد السوفيات، ليتجلى الحلم في الكاوبوي الأمريكي، ويتنامى ملقيا بظلاله على أحلام متنامية في أجزاء أخرى من هذا الكون الحزين، كالحلم الصيني .. هذه الأحلام جميعها عبر التاريخ هي أوجه لاصطكاك الإنسان في الكون، لذلك انعتاقه منها دائما ما يكون مدويا، لكن بقاياها سرعان ما تتلاقى، ليتشكل الحلم من الشظايا التي خلفها الانعتاق المدوي- هذه الشظايا هي الحقيقة المتناثرة- لتبدأ حلقة جديدة في مسيرة الاصطكاك الذي يبدو بالضبط كحلقة جهنمية لا تنتهي ..

في ظني أن هذا الإسهاب في الشرح – أنا غير مهتم البتة إن كان قد أزعجك أو لا – ربما جعلك تقترب من معنى الاصطكاك، وماذا أعني بأنني مصطك في عالم اصطكاكي..وعليه أتصور أنك بدأت تدرك لماذا ظللت كل حياتي منزعجا، من ثرثرات الآخرين وحكاياتهم المملة وإدمانهم شرح البديهيات، أو تبنيهم وجهات نظر " يظنون أنها الحقيقة التي لا ريب فيها وليست مجرد وجهات نظر قابلة للفحص والتلف، مثل هؤلاء يعمقون داخلك الإحساس بالاصطكاك، ...ستقول لي لماذا لا ترد عليهم . وسأرد عليك، لأنني أعرف ماذا سيكون ردهم على ردي. وفي الحقيقة ربما لا أعرف وفي الحالتين أنهم كطواغيت صغار، يضيقون بأن يناقش مصطك مثلي آراءهم، ولذلك يسهبون في الشرح، الأمر الذي يزعجني كثيرا..

برينسس آن – ميريلاند
2010-18-02

****

شعر

على مشارف الستين

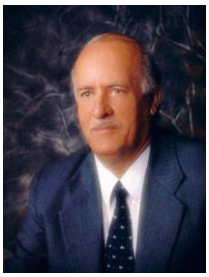

يحيى السماوي

الشاعر **يحيى السماوي** من مواليد السماوة في عام 1949 ويقيم حاليا في استراليا، تخرج في الجامعة المستنصرية / كلية الآداب / بغداد عام 1974، وعمل في التدريس والصحافة والإعلام. صدرت له 17 ديوان شعري، وحازت مجاميعه الشعرية على جوائز عديدة منها جائزة البابطين لأفضل ديوان شعر عربي عام 2008 . كما نال " **درع ديوان الشعر العربي** " عام 2007 .. واختاره تجمع " **شعراء بلا حدود** " كأحد أفضل عشرة شعراء عرب للعام 2008.. كما حظي شعر السماوي بعدد من الدراسات الجامعية.

نشرت قصائده في العديد من الصحف والمجلات الأدبية العراقية والعربية والأسترالية، وترجم له الى الانكليزية والاسبانية والفرنسية أدباء عديدون. شارك في العديد من المهرجانات الأدبية العربية والعالمية. وكتب عنه الكثير من النقاد العرب والأجانب.

(كتبت عشية تشييعي جثمان الشجرة التاسعة والخمسين من أشجار بستان العمر)

ستـون.. في ركضٍ ولـمْ أصِـلِ
نـهرَ الأمــانِ.. وواحـةَ الأمَــلِ

ستونَ.. تحسَـبُ يـومَـهـا سنـةً
ضـوئـيَّـةً.. مــوؤودةَ الشُّــعَـلِ

عشرون منهـا: خـيـمتي قلـقٌ
بـيـن الـمـنـافـي عـاثـرُ السُّــبُـلِ

والـباقـياتُ ؟ رهـيـنُ مَـسْـغَـبَـةٍ
حيناً .. وحيناً رهنُ مُـعْـتَـقَـلِ

شـاخَ الطريقُ وخطوتي اكتهلتْ
ودَجَتْ شموسُ الصبحِ في مُقلي

يعدو المكانُ مُفارقـاً قدمـي
أمّـا الـزمانُ فخطوُ ذي كسَـلِ

مــا إنْ أُصـادِح شـدوَ فـاخِـتَـةٍ
حـتى أُنـاوِحَ دمـعَ مُـنْـثَـكِـلِ

حَـيـرانُ.. لا أدري أمِنْ بَـطَـرٍ
غـادرتُ أرض الـنخلِ أمْ خَـبَـلِ ؟

تـلـك الـديـارُ علامَ أعـبـدُهـا ؟
لا نـاقَتي فـيهـا .. ولا جَـمَـلي !

أما الـطـيـورُ فـغـيـرُ سـابِـحـةٍ
فـكـأنَّـهـا شُـــدَّتْ إلـــى جَـبَـلِ !

لـطـمَـتْ نـوافِـذُهـا سـتـائِـرَهـا
جَزَعـاً من الأسْحارِ والأصُـلِ !

سـتونَ .. حيناً لـهْـوُ ذي نَـزَقٍ
عـاةٍ .. وحيناً صَمْتُ مُـعْـتـزِلِ !

بعضي يُـريـدُ الـدّهْـرَ يـلـبَـسُـهُ
ثـوباً .. وبعضي يشتهي أجَـلـي !

سـتون .. مَـرّتْ غـيـرَ مُـمطِرةٍ
مـرَّ الـطـيـوفِ بجـفـنِ مُـكـتَـحِـلِ

سـتون.. لا أهـلاً بـقـافِـلـةٍ
تُـدْني ذِئـابَ الحَتْفِ من حَمَـلي !

**

ستونَ بين الجِلفِ والجَفَلِ
مُسْتَوحَشُ الإشراقِ والطَفَلِ !(1)

جيشانِ يشتَجرانِ في جسدي :
نَزَقُ الشبابِ وهَدْيُ مُبْتَهِلِ !

قَدَّ الحَبيبُ القلبَ من دُبُرٍ
والأصدقاءُ الزّورُ منْ قِبَلِ !(2)

يا صَبْرُ: كم أطْمَعْتَ فاجعةً
بتجَلُّدي وسَخَرتَ من حِيَلي ؟

دالتْ بيَ الأشواقُ واحتَطبَتْ
صرحي فما أبقَتْ سوى طللِ

أفأشْتكي غدرَ الهوى وأنا
قَيدي وسَجّاني ومُعْتَقلي ؟

ستون عاماً في مجَرَّتِهِ
ليلي .. وبدري غيرُ مُكْتَمِلِ !

خمري نزيفُ دمي .. ومائدتي
كهفُ الهمومِ..وعلقَمٌ عَسَلي !

جسدي طريدةُ خنجري.. ويـدي
ما اسْـتَجْلَبَتْ غيرَ الرزيئةِ لـيْ !

لـم يـبـقَ في بـسـتانِ عـافـيـتي
إلآ هشـيـمُ العشـبِ والـدَّغَـلِ !

جَفَّتْ يـنابـيـعـي سـوى ثَـمَـدٍ (3)
أمـتـارُهُ مـن غَـيْـمَـةِ المَـلـلِ

لـم أدّخِـرْ جمراً لـخـبـزِ مُـنـىً
في العِشـقِ أو صبراً على عِلـلِ

وشربْـتُ ـ لا كالشاربين ـ طلىً
مـن دمعِ أعـنـابٍ ومـن قُـبَـلِ (4)

الخمرُ ؟ أشربُـهُ فيسـكـرُ من
شفـتي ويُـثـمِلُ كأسَـهُ ثَـمَـلي !(5)

نَـدَمي بحجم رفاتِ أزمـنـتـيِ
ويحيْ عليَّ غـفـوتُ عنْ زلـلي !

**

ستون.. لا صُلحي ولا زَعَـلـي
أدنى نَـزيلَ الـقـلـبِ من مُـقـلي !

إنّ الـتي بـالأمـسِ تُـلـحِـفـنـي
دفـءَ الـنهودِ وبُرْدَةَ الخُـصَـلِ

جَحَـدَتْ شِـراعـاتي مَـرافِـئـهـا
واسْـتذأبَتْ نـسْـراً عـلى حَجَـلِ !

هيَ" قسمةٌ ضيزى "لها مطري
وبيادري.. وأنا العواصِفُ ليْ !(6)

أشْـركتُ حتى خِـلـتُ مبسَـمَـهـا
لاتي.. وناهِدُ صَـدرِهـا هُبَـلي !

يا حـرقـةَ الـصحـراءِ مـعـذرةً
لم يـبـقَ في كوزي سوى وشَـلِ

ضوئـيّـةَ الـ .. ماعادَ يجـمـعـنـا
خـيطٌ من السلوى فلا تَصِـلـي

قـد يـسْـتَـفِـزُّ مـخـاوفـي فـرَحـي
ويـسـيـرُ بيْ لـمـسَـرَّةٍ وجَـلـي !

**

سـتون.. لا جِـدّي ولا هَـزلــي
قـد أغْـوَيـا بيْ هُـدهُـدَ الـجَـذلِ !

يا مُرْدِفاً شمساً إلى قَمَرٍ
طاوي الطِماحِ مُشَيَّعَ الأمَلِ

آنَ التَرَجُلُ عن ثراكَ .. فهلْ
جهَّزتَ زادَ غدٍ لمُرتحِلِ ؟

الجاهليّةُ ما يزالُ لها
في دارِ نخلةَ ألفُ مُشتَغِلِ!

من طائفيٍّ ليس يُشغِلُهُ
إلآ تسَيّدهُ على " المِلل "ِ

ومُكبّرينَ وتحتَ عِمَّتِهِم
مليونُ (شِمرٍ) أو(أبو جَهَلِ)

الآمرون بنسفِ أضرحةٍ
وبذبحِ مُرضِعةٍ ومكتهِلِ

ومن اللصوص البائعين قِرى
أجيالِنا في ألفِ مُحْتَفلِ

مَنْ ذا تعاتبُهُ وليس بهمْ
مْنْ صادقٍ ديناً ومن رجُلِ ؟

المُظهرون هوى " مُعاويةٍ "

طمعـاً بجاهٍ ..والخفاءِ" عليّ"

مـولايَ ـ يانخل الفراتِ ـ أما

للعـدلِ في واديـك مـن أمـلِ ؟

من أين يُـرجى لـلعـراق غـدٌ

و"الأجنـبيُّ" أبٌ لـهُ و" وليْ "؟ (7)

أحلـى الأماني أنْ أرى وطني

حُـرّاً وقَـومـي دونما كـلـلِ

سـتون في ركضٍ ولم أصلِ

نهـر الأمـانِ وواحة الأمــلِ !

1- الجلف: الغليظ الطبع.. والجفل : الخوف .. الطفل: قبيل غروب الشمس أو قبيل شروقها.. . والظلمة بشكل عام .
2 ـ إشارة إلى صديق استودعته بيتي وبستاني ومكتبتي فخان الأمانة (والأنكى أن ابنه سرق مخطوطة ديواني وراح يقرأ قصائدي في السماوة قبل افتضاح أمره).
3- الثمد: الماء القليل الذي يتجمع في الشتاء نتيجة المطر وينضب صيفا. أمتاره : أتزوّد به.
4 ـ الطَلى : بفتح الطاء اللذة والهوى .. وبضمها: الشربة من اللبن ونحوه.
5- البيت أخذت معناه من أحد أبيات قصيدةبعضها آنذاكرتها عام 1970 وغنى بعضها آنذاك المطرب فاضل عواد.
6- قسمة ضيزى : قسمة غير عادلة .. قال تعالى: تلك إذا قسمة ضيزى [النجم/22
7 ـ نقلت وسائل إعلامية غربية أنّ" البيت الأسود الأمريكي" يمهد لإشراك قتلة الشعب العراقي من بقايا النظام المقبور في الحكم .

****

قصائد خاطفة

كاظم ناصر السعدي

الشاعر كاظم ناصر السعدي، من مواليد 1948 في كربلاء، صدرت له المجموعات الشعرية التالية: كلمات حب (1979)، أبجدية الفرات (2000) و فضاء المعنى (2008). ولديه مجموعة جديدة ستصدر قريبا.والشاعر عضواً في المؤسسات التالية: اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، اتحاد الأدباء العرب، عضو نقابة الصحفيين العراقيين و اتحاد الصحفيين والإعلاميين العراقيين. وحاليا يعمل سكرتيرا لتحرير مجلة (مدارات تربوية).

(1)

تلك السماء

حديقة روحي

في فمي

طعم مباهجها العارية

حين أعانق صمتها الشفيف

تقبلني بفمها اللانهائي

فأغرق في التأمل

(2)

في ليل الفجيعة الأبيض

أعيش وحيداً

متوجا بخساراتي

هل أتدثر بفراء الغربة؟

لا شيء يسند حزني

حتى عصاي التي

أهش بها على هواجسي

في مراعي الوهم انكسرت

جسدي

تتناهبه رياح العدم الكوني

كيف أتوكأ على زمن هش

وأبتهج بالزبد؟

(3)

حين يغمض النهار عينيه

تنبعث رائحة المكائد

من إبط الليل

تغفو شجرة اللبلاب

على

جرف الموت

أرى ضباب قلقي

يحك ظهره

على زجاج النوافذ

لذا سأرمي

كل نفايات العمر

في فراغ أخرس

(4)

حتى لا يسقط القمر المتناهي

بين ذراعي تاريخ ماكر

أضع أبجديتي الخضراء

فوق السحب الفضية

في داخلي

كون غامض

الزمن المنعكس في المرآة

ينسج ظلاله الثقيلة

رياح الذاكرة

لاتحسن تجفيف دموعي

في ضوضاء النسيان

هل تنمو عشبة الأبد

في جسد الحقيقة؟

(5)

بروحي المتعرية للفجر

الأمس

جوهر

الأشياء

أصعد سلم البراءة نحوي

أجتاز غابات الخوف

ففي قلبي نور

يضيء كياني

نافورة

تسيل بزرقة السماء

الألوان الوحشية

تغيب في متاهة المرايا

لكن بصيرتي

ترى

ما لا تراه

عيون الشمس

****

مهرة لم تنم

احمد جامع

أحمد جامع، شاعر من مصر يكتب الشعر والقصة والدراسة الأدبية، نشرت أشعاره فى مجلات وصحف مصرية وعربية، كما حاز على العديد الجوائز من بينها حصوله على المركز الأول فى مسابقة قصور الثقافة بمصر عام1991.

ليت للشط بحرا يعانقه

ليته يخرج العطر

من مقلة الصمت

يدخله عرف صفصافة

عقصوا فجرها فارتمت

فوق حبل البياض

نأت تحمل الجرح

تستملح الرمل

كي لا تسيل الدماء

مهرة في مهب الشتاء

تطأ الشوك تسحقه وترش بقاياه

في رغوة الليل

تستمطر الشمس

يا شمس حطي

على صفحة الظن

مدى

لخاصرة العشب جسرا

نحس الخطى نحوه

مهرة لم تنم

صدرها قد شواه الغرق

والمدى جمرة والسماء مزق

مر حين من الحين والشجر المر

والحنطة المطفأة

مر ركب الصدى,

والردى والصليل المقيت

ولم تقو عصفورة الحلم

أن ترجع الضوء

أن تطفئ الهاجرة

قلت يا نار شبي

وازدهى ثم هبي

الى بؤرة الوقت كي يطمئن الرحيق

ببوتقة الشعر

يرمى المفاعيل والفعل والفاعلات

على جبل أخضر اللون

ظاهرة من ندى

دون عشاقه القمر المرتجى

تتقدم هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

بالشكر الخالص للأستاذ نجيب محي الدين، الشخصية الديمقراطية المعروفة ونقيب المعلمين الأسبق لتفضلة باهداء مجلتنا عدة مجلدات من مجلة (المثقف) تعود إلى أواسط القرن الماضي.

وإذ نكرر شكرنا للأستاذ محي الدين

نتمنى له في الوقت ذاته موفور الصحة والعمر المديد.